@ketab_n
Follow Me
23.9.2014

الحلة

عاصمة السخرية العراقية المرَّة وذكرى الساخرين

نوفل الجنابي

نوفل الجنابي

الحلّة

عاصمة السخرية العراقية المرّة
وذكرى الساخرين

@ketab_n

Twitter: @ketab_n

الحلّة

عاصمة السخرية العراقية المرّة وذكرى الساخرين

Twitter: @ketab_n

قصص المدى

المؤلف: نوفل الجنابي
عنوان الكتاب: الحـلـة.. عاصمة السخرية العراقية المرّة
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: ٢٠١٤

جميع الحقوق محفوظة

(الحلة) كتبها على الغلاف بالثلث الآسر وبصداقة عتيقة: مصطفى جعفر

دار المدى للثقافة والنشر

بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور - الطابق الأول -
تلفاكس: ٠٠٩٦١(١)٧٥٢٦١٦ - ٠٠٩٦١(١)٧٥٢٦١٧
www.daralamada.com Email: info@daralmada.com

سورية - دمشق ص.ب.: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦ - تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O. Box: 8272 or 7366. - Tel: 2322275 - 2322276 - Fax: 2322289

بغداد - أبو نواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٣ - بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
Email: almada112@yahoo.com

لا يجوز نشر أيّ جزء من هذا الكتاب أو تخزين أيّ مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أيّ نحو، أو بأيّ طريقة سواء كانت الكترونيّة أو ميكانيكيّة، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلّا بموافقة كتابيّة من الناشر ومُقدماً.

All rights reserved. No part of this publication may be reprocuced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means: electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

ISBN: 978-284-3062056

Twitter: @ketab_n

صورة الغلاف:

صالون حلاقة برهي وشريكه جاسم في نهاية الأربعينيات. ربما كان برهي (وسط الصورة)، الحلّاق الوحيد بين حلّاقي العالم، الذي أعرفه على الأقل، يحلق بيد واحدة.
كان برهي يثبّت المشط طعناً في (بُكلة) الزبون المتفاجىء بأن المرآة الطويلة في وجهه ما هي إلّا بابٌ سريٌّ، يدفعه برهي باليد الباقية، ليغيب وراءه، ثم يعود وهو يمضغ ما تبقّى من خيارة الطرشي بعد أن جرّ (بيك) العرق الذي تركه بثمالته وحيداً في ظلام المخبأ السريّ.

Twitter: @ketab_n

إلى عليّ..

الذاكرة التي فَقَدَتْ.

نوفل

Twitter: @ketab_n

أنا الكومبارس العتيد
الذي عاش أكثر من حياته
والتقى بكلّ الشخصيات
حتّى التي لم توجد قطّ
....
لن أسمح بهذا العبث أبداً
إذ كيف سأتمدّد كجثّة طوال العرض
حتّى لو كان كلّ شيء
كما يقول المؤلِّف
ليس إلّا أخيلةٍ برأسي
لن تجوز عليّ حيلة كهذه
فما الذي يحدث
لو فاجأت الجميع
بالدخول في النصّ
سعيداً بارتباك الأبطال أمامي
وبالشتائم التي تأتي من خلف الكواليس.

فريد أبو سعدة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

قبل القراءة:

قد تصادفكم في هذا الكتاب حروفٌ لم تعتادوا رؤيتها من قبل. هي ليست فيروسات أو بيوضاً مجهرية، بل هي أحرف حالَ جمود العقل العربي، دون إدخالها على الأبجدية التي أصبحت حجرية غير قابلة للمسّ.

هذا عن بعض الحروف، أمّا بعضها الآخر فمرتبط بخصوصية اللهجة العراقية في استخدامها لحروف تميّز بين المذكّر والمؤنّث، وتدلّ على زمن الفعل في بعض الأحيان.

هذه الحروف هي:

گ – گـ: هو شقيق للكاف، وينطق مثلما الجيم المصرية والـ (g) الإنگليزية. (لا الإنجليزية ولا الإنغليزية).

چ – چـ: تستخدم في نهاية الفعل الذي يكون فاعله مؤنّث، لصفات ودلالات التملّك وكلّها تتعلّق بالمؤنّث.

مثال: ثوبچ – ثوبك، الأولى تخاطب المرأة عن فستانها، والثانية الرجل عن قميصه.

ألحگچ – ألحگك، الأولى «الحگچ» مخاطب المؤنّث، والثانية «الحگك» والمخاطب مذكّر....

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المدخل

أوّل ما أتذكّره منها، غبشها، وقتي الأثير معها، حين كنت أقطع على أطراف الأصابع المسافة من فراش الصيف على السطح حتّى آخر أبواب البيت. فالسطوح، كلّ السطوح، تغطّ في نومها، والخيط الأبيض وحده من استيقظ.

لم يكن بين بيتنا والشطّ أكثر من خمسين متراً، خمسون متراً من الترقّب والاضطراب، الحذر والتوجّس، مسافة ما تلبث أن تنتهي بالوصول إلى الجرف ثم خلع النعلين، فالجلوس ومقاطعة الساقين على العشب الذي ما زال نديّاً، ثم الوجوم في مواجهة الماء، مواجهة الحلّة بممثّلها الأقرب، شطّها المارق، الخارج من عباءة أبيه المهيب، الفرات شيخ أنهار الأرض وأقلها كلاماً.

هذا الموعد اليوميّ مع المدينة، ابتدأ حين صار ترك العراق واقعاً لا مفرّ منه، فصارت الحلّة غير الحلّة والنهر غير النهر، وصار حفظ تفاصيلها، ثم ايداعها الذاكرة في زاوية لا تصلها يد، أمراً لا رحيل دونه، وخصوصاً وأنّ رحيل العراقي

Twitter: @ketab_n

ليس مثل رحيل غيره، فهو يعرف متى يبدأ لكنه لا يعرف متى ينتهي، وما من زوّادة تعين على هكذا حال غير زوّادة الذاكرة.

بعد مرور أكثر من ثلاثين عاماً، لا أستطيع أن أصف جلستي تلك أو أصنّفها، فلم تكن جلسة المنصت ولم تكن أيضاً جلسة الشارد ولا هي جلسة المذعن ولا المتكبّر ولا اليائس ولا الآمل أيضاً.

إنّها الجلسات كلّها، فالنهر الذي صنع مدينة مثل الحلّة، ثم قسّمها بسطوة الماء إلى صوبين، لا تستطيع أن تحدّد أو تصف أو تختار كيف تجلس أمامه. هو الذي يحدّد وهو الذي يختار، وهو الذي يصف.

حين يصير الضوء نهاراً، تحسّ بحركة وأصوات تتداخل وراء ظهرك. الأصوات تقترب فيتبيّن أصحابها.

فلّاحون جمعوا خضار حقولهم على ضوء القمر، ثم حملوها على دوابهم قبل شروق الشمس التي توقظ حرارتها زغب الخضار وتحوّله أشواكاً ومخالبَ.

يقطعون الطريق من قراهم القريبة إلى السوق، بالحديث الذي لا تتبيّن منه جملة واحدة، مهما حاولت، فلكلّ اثنين منهم حكاية ولكلّ حمار من حميرهم، لهاثه ووقع حوافره. أكثر من خمسين فلّاحاً ومعهم أكثر من خمسين حماراً، يخترقون غبش

Twitter: @ketab_n

الحلّة عابرين الجسر إلى نهارها، محمّلين بأكداس الخضار التي جاؤوا بها للبيع، وللتحيّة أيضاً.

حين كانوا يمرّون عابرين الجسر، يصرخ واحدهم، بالصوت الجهير:

- السلام عليكم.

قبل أن تردّ بـ (وعليكم السلام)، يمدّ صاحب التحية يده إلى كدس خضاره الجالس عليه، يسحب منه ما تيسّر ويطيّر نحوك خيارة ريّانة أو قثّاءة معقوفة أو حتّى باذنجانة حالكة السواد ما زالت تحمل رائحة غصنها وأوراقه.

قبل أن يصبح الضوء شمساً، يتسلّل صبية الفجر، جامعو القناني الفارغة، يتسابقون بصمت ليتخاطفوا ما خلّفه ثملو الليلة الماضية، ندامى النهر وجلّاسه الأزليون، العائدون ثقال الخطى إلى بيوت لا تنتظرهم.

صبية الفجر يديرون ظهورهم للشطّ، ماضون خفافاً بما حملوا إلى دكاكين العرق عبر جسر الحلّة العتيق ليبيعوا القنينة بخمسة فلوس إلى الدكان المناوب، وهو الذي يفتح فجراً بالاتفاق مع باقي البائعين وبالتعاقب معهم (مثل الصيادلة تماماً) من أجل من اثقلت خمرة الأمس رؤوسهم ويحتاجون إلى كأس صَبوح تـُذهِب الصداع وتـُعيد للمترنّح اتّزانه، وهذا ما يعرفه ندامى الكأس بـ (كسر الخمارية).

Twitter: @ketab_n

الجرف يخلو من قناني الليل الفائت، وصوت ارتطام جسدٍ بالماء يدفعني إلى الالتفات يميناً. إنّه مدرّس الفيزياء الذي أطال لحيته فجأة، يغطس ثم يطفو بتعاقب تصحبة تمتمات قرآنية ينقلها الماء بوضوح.

مدرّس الفيزياء المتديّن حديثاً، الماضي قريباً إلى الاعتقال بسبب لحيته، مؤدّي واجباته الزوجية، لا يعتقد أن ماء الأنابيب سيطهّره من آثارها، فلجأ إلى النهر، نهر الحلة الذي ما زالت رائحة سكارى الليل عالقة بأعشابه.

يصبح الضوء شمساً، فأمدّ يدي إلى نعلّي عائداً إلى البيت، قاطعاً طريقاً بدأت تدبّ فيه الحركة.

أوّل المتحرّكين الجنود والبنّائيين، ثم أهل السوق ومن في حكمهم، يأتي بعدهم موظّفو المدن البعيدة والمتسوّقات المبكرات الساعيات إلى السلال قبل أن تمتد اليها أيدٍ غير أيديهنّ وقبل أن تذهب الشمس بندى الخضار الذي حملته من البساتين وطينها.

الشمس تصبح شمساً، صبية المقاهي يفتحون أبوابها نافضين حصرانها المتهتّكة، شاعلين نيرانها تحت خزّانات الماء ممهّدين المشهد لوصول الأسطوات المتثائبين، مستعرضي مهارة (تخدير) الشاي وتحضيره ثقيلا مثل أيّامهم، هنيئاً مثل أرواحهم.

Twitter: @ketab_n

الشاي يملأ الاستكانات ويطفح منها نازلاً في صحونها الصغيرة، والحلّة تـُخرج يوماً من خزانة العمر وتدفعه ليتمدّد في أسواقها المتشعّبة وأزقّتها الطاوية على مخزن الالسن النشطة.. المخزن الاكبر بين المدن التي عرفتها على الأقل وهي كثيرة وكثيرة جداً.

أوّل من يستيقظ في الحلّة سوقها، سوق خضارها تحديداً، إنّه الأخ الأكبر الذي يدور على الإخوة النائمين، يهزّ أكتافهم، لاعناً نومهم الثقيل، فيفرك هؤلاء عيونهم بسبّابـّاتهم المعقوفة، ثم يتثائبون متصنّعين الاستيقاظ وما أن يدلف الأخ الأكبر خارجاً حتى يعودوا إلى غفوة لم يقطعوها.

يتثائب السوق الصغير فـ(باب المشهد) بكراجاته الضاجّة بالحركة، ويمطّ يديه شارع المكتبات فسوق الهرج، وعلى إيقاع محلّات الإفطار تتبادل الخبـّازات الإشارات الخفيّة مع المارين امام مكتبة الفرات، ومن مطعم عيسى، يخرج قدر الشوربة الضخم محمولاً على بايسكل أبو السلة، متوجّهاً إلى الموقوفين في المخفر الذي استيقظ وفتح بابه الكبير، منتظراً فطورهم الشحيح.

وحدها مديرية الأمن أمام البلدية لم تستيقظ، لأنها لم تنم.

نوفل الجنابي

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

عزيز السرّي

رجل خمسيني نحيل، كان يمكن أن يوصف بفارع الطول لولا تقوّس ظهره وانحنائه الذي لا يتناسب مع صفة مثل (فارع).

لا أستعيد منه إلّا صورة واحدة، صورته وهو يمرّ عصراً، دافعاً بدوّاسة دراجته الهوائية بكسل وتثاقل، مرتدياً قميصاً يميل إلى الصفار وبنطلوناً رمادياً غامقاً محاطاً بحزام أسود يكاد يصل إلى منتصف بطنه. كان ينتعل صندلاً بنِّياً لا يتغيّر.

شعره القليل المقلوب إلى الوراء كان يلمع تحت شمس ما بعد الظهيرة.

من تحت قميصه المائل إلى الصفار، ومن جهة الظهر اليمنى يبرز نتوءاً بحجم قبضة طفل.. إنّه المسدّس.

كان المسدّس في الحلّة تلك الفترة (منتصف الستينات) كما في باقي مدن العراق، كائناً غريباً نادر التداول بين غير العسكريين في المدن بل إنّه ليس شأناً مدنياً إطلاقاً.

Twitter: @ketab_n

المستثنون من هذه القاعدة رجال الأمن.

المقصودون تحديداً بهذا الوصف هم رجال المباحث السياسية ومن بينهم عزيز الذي لم يكن يعرف إلا بإلحاق صفة (السّري) باسمه.

كنا تنتظر مروره ذاهباً إلى دائرة الأمن أو عائداً إلى بيته، لنصطفّ وراء صفوف أشجار الآس الممتدّة في المتنزه العام خطوطاً خضراء طويلة لا تظهر من ورائها غير رؤوسنا الصغيرة التي تنزل إلى أسفل مختفية تماماً عن عيني عزيز السّري الذي ما أن يصل أمامنا حتى نصرخ بصوت واحد:

- من راقب الناس... مات همّاً.

في أقصى حالات التفاعل، كان عزيز يلتفت نحو مصدر الصوت مبتسماً، أمّا في الأحوال العادية فقد كان يمضي في طريقه دافعاً بدوّاسة دراجته الهوائية بنفس التثاقل والكسل.

ذات يوم، وأنا عائد من المدرسة، منشغلاً بالحجر الصغير الذي اعتدت، مثل أقراني، أن أسوقه ركلاً من المدرسة حتّى باب البيت، أحسست بيد تمسك بكتفي، التفتُّ، وإذ به عزيز السرّي. توقّف الدم في عروقي وابتلعت الكلام.

- من راقب الناس... ها؟؟

- ....

Twitter: @ketab_n

- اذا ما راح تجوز أنت وذولة طايحين الحظّ. راح أگول لأبوك.

- ....

ضرب الدواسة، وبحركة الخبير، جلس على سرج دراجته الخضراء الأمبريال وابتعد.

الذين وصفهم بطايحين الحظّ (وهي شتيمة لا تعني سيئي الحظّ بل شيئاً أثقل من ذلك)، أحدهم كان يسوق حجره بالحذاء المثقوب إلى جانبي، هو الآخر ابتلع لسانه، فنحن لم نتعوّد عزيز السرّي بهذا القرب.

التفتُّ نحوه محاولاً أن أفيق من هول المفاجأة لأستعيد ما قال:

- سمعته؟؟.. كال راح يگول لأبويه؟

- اي.

- شمعرفة بأبويه؟

- ....

السؤال الأخير شكّل الجزء الأكثر رعباً وغرابة في ذلك اليوم الذي هبط فيه عزيز من علياء سرّيته ليتحوّل إلى شيء مسموع وملموس، إلى شيء يتكلّم ويحتجّ ويهدّد.

المفاجأة كانت في ذكره لأبي، بل والتهديد بإبلاغه بما

Twitter: @ketab_n

فعلت. كان أبي وعزيز طرفان متباعدان لا يمكن أن يلتقيا ولا بأي شكل، فعزيز السلطة وأبي نقيضها الدائم.

حتّى أخرج من حفرة الاستغراب التي ألقاني بها ومضى، التجأت إلى صبيح، الرجل الذي يعمل مع عمّي، موطن أسراري وحلّال مشاكلي التي غالباً ما يتداركها قبل أن تصل البيت فأجد نفسي في جحيم عقاب أبي الذي لا يماثله جحيم.

قلت لصبيح الذي كان مشغولاً بتزييت بايسكله الأسود (أبو السلّة) وأنا أتلفت حذراً من أن يسمعني أحد:

- صبيح..... عزيز السرّي....

التفت صبيح نحوي مستغرباً:

- هذا شجابك عليه؟

حكيت له ما حصل، نافياً أنّي شاركت في كورس (من راقب الناس...) لكن صبيح لم تنطل عليه برائتي:

- هاي سوالفك.. تعلمني بيك؟؟

- زين منين يعرف أبويه؟

- شلون ما يعرفه.. عمّي (يقصد أبي) يدفعله معاش كل شهر.

Twitter: @ketab_n

- ....

تعجّبت أوّل الأمر، ولكن بعد أن استوعبت الصدمة عرفت أن عزيز السرّي كان مكلّفاً بمراقبة أبي ليكتب عنه تقارير اسبوعية وشهرية من نسختين، الأولى لمديرية الأمن حيث يعمل والثاني لأبي حيث يقبض.

هكذا كان حال المباحث السياسية قبل انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ الذي استولى بعده حزب البعث على السلطة فأختفى عزيز ومعه درّاجته، وصمت كورس (من راقب الناس مات هما).

أصبح الأمن غولاً جاثماً على صدر الحلّة وصار نصف جملة مثل جملة (مات همّاً) كافية لتعليق كورس الحديقة العامّة ومعهم عوائلهم من أرجلهم، لثلاثة فصول دراسية بما فيها من عطل وأعياد ومناسبات رسمية وشبه رسمية.

اختفت الدراجة وحلّ محلّها رتل طويل من سيارات (البيك آب) الحمراء التي تتحرّك في المدينة مثل خنازير القصب الوحشية.

حمزة الجودي، بائع دوندرمة (مثلجات) في الصيف ينقلب إلى بيع الشلغم (اللفت) المسلوق في الشتاء.

من عادته أن يضع قدرين عملاقين، الأوّل يرصّ فيه

Twitter: @ketab_n

رؤوس الشلغم الجاهزة للبيع والثاني ينقع فيه الشلغم الذي يسلقه عادة في الليل لبيعه في اليوم التالي.

كان الجودي حريصاً على سمعته كأفضل بائع شلغم في الحلة. فالدبس الذي يضيفه لماء السلق يجلبه من مسبچ (مكان صناعة الدبس والخلّ) الحجّي علوان، الأفضل في الحلّة.

أمّا الشلغم فيوصله حمار الفلّاح من البستان إلى باب الدكّان مباشرة، لذا كان يترك البيع لصانعه عبد الأمير باعتبارالبيع لا يحتاج إلى مهارة، وينصرف هو إلى التنظيف وفجّ الرؤوس بسكين صغيرة ذات مقبض أسود قصير.

بينما هو يفعل ذلك بخفّة تصحبها حركة أفقية متوالية بالرأس، يقف حمزة ما بين خمس دقائق وأخرى مطلقاً صرخة تحسّ أنّه أخرجها من أسفل قدميه، صرخة من كلمة واحدة ما أن تخرج حتى تنطفئ:

- چمااااااااااااااااااااااااااا........

والـ (چما) تعني الكمأ أي أنّ شلغمه هو في الحقيقة كمأ، لكنّ الزمان جار عليه.

قبل الغروب بقليل، توقّف بيك آب الأمن الأحمر بقماشه السميك المعتم الذي يغطّي جزءه الخلفي، حيث مقاعد المعتقلين الخشبية.

Twitter: @ketab_n

نزل مفوّض الأمن متوجّهاً نحو دكّان حمزة الذي تحوّل ريقه فجأة إلى قطعة خشب مستحلفاً كلّ من في السماء والأرض من أنبياء وأئمة يعرفهم، أن يكون المفوّض قادماً من أجل الشلغم لكن الاخير قطع عليه حبل التمني وهو يسأله بوجه عابس يقطر سمّا:

- إنت حمزة الجودي؟

- اي سيدي...

- إمشي ويّانه.

ألقى الجودي سكّينه ومسح الماء بسروال بجامته (البازة) المقلّم ثم توجّه ليجلب قميصه المعلّق في مسمار لصقت تحته جريدة قديمة، وبوجه خالٍ من الدمّ تماماً قال:

- بيها نومة سيدي؟

- سؤال وترجع....

سحبه المفوّض ليسلّمه إلى شخص ثان دفع به إلى البيك آب، وما أن استقر على مقاعد الخشب حتى أخرج رأسه من وراء چادر البيك آب صارخا باتجاه دكانه:

- أمّوري. ولكِ أمّوري...

- ....

Twitter: @ketab_n

- الشلغم مال باچر وديّه لأختي خيرية وگول الها خلي تسويه طرشي... لأن حمزة الله ما راح يطلعه.

كانت دائرة الأمن بين المتصرّفية (المحافظة) القديمة ودائرة البريد. مبنى عادي من طابق واحد، ولو كان العراق لم يحكمه البعث لكان بيتاً سكنياً لعائلة متوسّطة الحال تتألّف من معلّم وخمسة أبناء وزوجة متذمّرة.

هذا البيت الصغير كان يوزّع رعباً على المارّين أمامه، وهم بالآلاف. رعبٌ كفيلٌ بجعلهم لا يفكّروا ولو حتى بالالتفتات نحوه، متصنّعين النظر باتجاه البلدية أو متظاهرين بالحديث مع رفيق الطريق.

في بداية حي بابل، بنى كولبنكيان، المدعوّ سيّد خمسة بالمائة (سمّي كذلك لأنّه كان يأخذ قبل تأميم نفط العراق نسبة خمسة بالمائة بسبب توسطه في حل نزاع مع تركيا حين طالبت بنفط كركوك)، مبنى سمّي (بهو البلدية)، لاستخدامه في النشاط الثقافي للحلّة كونه يحتوي على مسرح كبير وقاعات وحدائق واسعة.

في البداية استولت على المبنى مديرية الشباب، وبعد أن تدهور حال الشباب في الحرب العراقية الإيرانية، تحوّل إلى ملهى ليلي يعجّ بالكاولية والراقصات المصريات المتقاعدات، بكروشهنّ المتهدّلة.

Twitter: @ketab_n

بقي الحال على هذا الحال، حتى قرّر صدام حسين أن يتحوّل إلى خليفة إسلامي، فطرد أهل الدنيا بعد أن صار صاحب دين.

حينها اغتنمت مديرية الأمن الفرصة فاستولت على البهو بعد أن اتسعت (نشاطاتها) ولم يعد يكفيها ذلك البيت الصغير.

هذا التغيير حدث وأنا خارج العراق. حين التقيت بقادم جديد من الحلّة (وهذا أمر نادر الحدوث لمنع العراقيين الدائم من السفر)، سألته عن المدينة وجديدها فقال:

- على حطة ايدك، ما تغير شي بس البهو.

- شصار بالبهو؟

- چان دگ ورقص.. صار بس دگ.

كان لي عمّة توهّمت أنّ تقدّمها في السنّ وثقتها بحلقة الصديقات من حولها، سيضعها خارج دائرة اهتمام مديرية أمن الحلة، فأطلقت لسانها اللاذع الذي لا يتناسب مع مظهرها المسالم وصارت تخوض في أمور السياسة العليا للبلاد مثل (تمن الحصة ما ينوكل) و(صار لي اسبوعين ما عندي دوا ضغط) و (جيرانا البارحة باعوا شباچ بيتهم).

مثلما هبط المفوّض على حمزة الجودي، هبط عليها واحد

Twitter: @ketab_n

آخر، دقّ الباب ففتح زوجها. بلا مقدّمات، تلقّى الأمر الذي وجّهه إليه القادم الذي عرف (هويته) من البيك آب الأحمر الذي نزل منه بعد أن سدّ بمقدّمته باب البيت:

- صيح الحجية... بسرعة.

- يعنى اصيحها تحچي وياها؟

- لا.. صيحها ا تروح ويانة.

- ....

يومها لم تعرف عمتي كيف لبست حذاءها، وكيف وضعت عباءتها، وحين أراد زوجها أن يصعد معها إلى البيك آب، نهره رجل الأمن وطلب منه أن يعود إلى البيت وأن يغلق الباب، وحين سأله (اگعد بالبيت شسوي؟؟.. الحجية لا تشوف ولا تسمع) أجابه وهو يغلق باب البيك آب:

- بس لسانها أطول منها.

حدث هذا ذات ضحى في بداية التسعينات، ذهب البيك آب بعمّتي لتعود مشياً وقد حلّ الليل.

لم تتكلّم ليومين، تتلفّت فقط، لكن ما لوحظ عليها رفضها لاستكان الشاي (وهو المقدّس بالنسبة لها) لأكثر من أسبوعين.. بعد أن انحلّت عقدة لسانها عرف السبب.

حين زرتها بعد عودتي إلى العراق، لكزني زوجها

Twitter: @ketab_n

بكوعه وهمس عاضّاً على شفته السفلى:

- اسألها شصار بالأمن؟

لم أتردّد فوجّهت لها السؤال سريعاً:

- عمه.. شصار من اخذوچ الأمن؟

رمقت زوجها من فوق نظّارتها بنظرة اعقبتها هزّة وَعيدٍ برأسها:

- ما تقدر تضم حچاية.. طبعك لو تشتريه؟

حتى أدفعها للحديث قلت لها:

- عمة الأمن ولّوا، همَّ واللي چان حاطهم.. انتي هسة مناضلة مثل نزيهة الدليمي.

- يا مناضلة عمة... يا نزيهة.. يا دليمي.. حرموني شرب الچاي.

- ....

- گعدوني عند الضابط.. هو ساكت وآني ساكتة، ثلاث.. أربع ساعات، وعلى غفلة صاح چنه گارصته حيّة:

- جيبولها چاي.

- ....

Twitter: @ketab_n

- عمة وآني ماحاطة بحلگي شي من عشا البارحة، اجاني استكان الجاي مبوّخ، بس حطّة الفراش جدامي صاح الضابط:

- اشربي.

عمة من خوفي كرعته كرعة وحدة، حسيت جهنم اشتعلت ببلعومي.

- ....

- بس حطيت الاستكان الفارغ بالماعون صاح الضابط:

- جيبولها الثاني.

بلعومي بعد ما أحس بيه.. كرعت الثاني نفس الشي صارت النار تطلع من عيوني......

أوف عمه...اسبوعين وأنا بلعومي عبالك مبطن بچمينتو إذا فات بيه الهوى اصرخ من چعوب رجليّه.

أيّام الثانوية، دفعني الحماس فدخلت اتحاداً طلابيّاً محظوراً اندفاعاً منّي في المساهمة بإسقاط حكم البعث، وهي مهمّة اتضح في ما بعد أنّها تحتاج إلى دولة عظمى لتحقيقها لا إلى اتحادنا الطلّابي الذي انفرط في اجتماعه الثاني.

الاجتماع الأوّل اخترنا له بستاناً على طريق النجف،

Twitter: @ketab_n

جلسنا مثل كلّ المناضلين، بين أدغال الحلفاء العالية بعد أن اختار (الرئيس) أحدنا ليراقب الشارع البعيد خشية مداهمة مفاجئة.

قبل أن يبدأ (الرئيس) قراءة بنود الاجتماع، رفع أطولنا وأكثرنا عضلات يده، ثم قال إنّه يعترض على مكان الاجتماع إذ إنّ الأمن لو شاهدونا هنا لعرفوا فوراً أننا في اجتماع سياسي ضدّ الحكومة.

- شتريد تگول يعني؟

سأله الرئيس المتململ من مقاطعته وهو مستمتع بممارسة مهام منصبه:

- بما أنّ الأمن مطاية أقترح أن يكون اجتماعنا الجاي بگهوة صبري.

- هذي اللي گبال الأمن؟؟

- اي.. هي هذي، محد راح يتوقع تسوي اجتماع بگهوة مقابيل الأمن.

بعد أسبوع، بدأنا بالوصول إلى المقهى الذي لم يكن قريباً على الأمن فحسب، بل وإن معظم زبائنه من رجال الأمن الذين يشربون شايهم فيه ويوصون لضيوفهم منه أيضاً.

Twitter: @ketab_n

أخذنا زاوية متصنّعين الكلام في الرياضة. شرب أحد رجال الأمن استكان الشاي الثاني، قام ليدفع، وبعد أن استردّ باقي نقوده، رمق زاويتنا بنظرة لم تكن مريحة.

خلال عشر دقائق دخل أربعة رجال بينهم شارب الاستكانين الذي غادر قبل قليل. انقسموا إلى جهتين ثم أحاطونا من كلّ الجهات، وبلا حتى شتائم، بدأوا أولاً بالبوكسات والصفعات، وما أن سارعنا بالوقوف ورفع الأيدي اتقاءً للضرب، بدأ فريق الأمن مباراة من طرف واحد في الرفس والركل انتهت بسحب الرئيس وصاحب الاقتراح إلى دائرة الأمن. الباقون، وكنت من بينهم، تركونا متعمّدين لنهرب من المقهى راكضين وآثار الأصابع المتينة على وجوهنا وكدمات تبيّناها بعد وصولنا البيوت...

صاحب الاقتراح خرج بعد أربعة أيام من الضرب المركّز، تصنّعت عدم معرفته ونحن نقف على بسطة الجرايد، اقتربت منه، وهمست:

- الاجتماع الجاي وين.. على سطح الأمن؟

Twitter: @ketab_n

حلّة الأكراد

ما بين ظهيرة الطفولة وغروبها، اعتدنا أن نطلق أقدامنا الصغيرة في المساحات الخضراء الممتدّة بين بيوتنا والنهر، لاهثين وراء كرة المطّاط اللدن.

لم يكن يوقف هذا اللهاث غير ظهور بعيد لرجل نحيل يرتدي الخاكي، تتدلّى من كتفه الأيسر، حقيبة رخيصة يميل لونها إلى لون التراب.

نقف ساهمين بينما الرجل يقترب، وحين يرفع يده ملوّحاً، نتراكض نحوه على ممرّ العشب المحاذي للنهر. نتدافع حوله حتى نكاد نسقط في الماء.

إنّه رحيم القادم من حرب (العصاة). هكذا أسمت الحكومات العراقية المتعاقبة، الأكراد العراقيين الذين قاتلتهم وقاتلوها.

ذات يوم، أوقف ضراخ وعويل طويل لهاثنا وراء كرة المطّاط اللدن. كان الوقت غروباً والصوت آتٍ من بيت رحيم.

Twitter: @ketab_n

لقد عاد من الحرب هذه المرّة في صندوق موت مغلق، بينما حمل حقيبته الرخيصة المائل لونها إلى لون التراب، جندي آخر لم يجد من أهله الذين أذهلتهم فجيعة الفقدان أحداً يأخذ منه الحقيبة، فتركها عند زاوية الباب، وسط الزقاق الغارق في الظلام والعويل.

مرّة كنت أقلّب صوراً قديمة لأبي، وكان ضابطاً حتّى إسقاط الحكم الملكي، لأجد صورة غريبة بعض الشيء، يظهر فيها أبي واقفاً بين نوري السعيد وعبد الكريم قاسم. كانت الصورة في مكان ما من اربيل. مكان الصورة الوحيدة (بالنسبة لي ولمن أعرفهم على الأقل) التي جمعت الخصمين قاسم ونوري السعيد.

ذات يوم، وبينما كان أبي غارقاً في كتاب، لم أنس عنوانه أو شكله، وكان (أعمدة الحكمة السبعة)، أتيت بحركة من حركات طفولتي غير البريئة. ولأنّ سجلّ سوابقي مليء حتّى الأذنين بالخروج على نظام الهدوء الصارم الذي يفرضه حضور أبي، استشاط غضباً وسحب ما توفّر تحت يده من ادوات العقوبة السريعة والفعّالة، فتناول من رفّ وراءه شيئاً يشبه العصى. ولأنّ السيل بلغ معه الزبى، ضربني على كتفي الأيسر. أحسست بلهيب خرج من مكان الضربة، لكنّي في الوقت نفسه رأيت قطعة من سلاح العقاب تتدحرج أمامي على بلاط الغرفة الأخضر.

Twitter: @ketab_n

بعد أن أفلتُّ ودخلت أحد ملاذات البيت الآمنة، لحقني أخي مسرعاً لينصحني بالحيطة لأنّ للعقاب بقيّة، والسبب، أنّ العصى التي انكسرت على كتفي لم تكن عصى، بل غليون طويل صنعه الملّا مصطفى البرزاني بيده وزخرفه بسكين شهيرة كان يحملها، وكان قد أهداها لأبي في واحد من رحلات مكوكيّة اعتاد أن يحمّله فيها نوري السعيد رسائل إلى الملّا مصطفى.

بعد أن التفّ صدام حسين على اتفاقية الحكم الذاتي التي وقّعها مع الأكراد، صرنا نرى أكراداً بدؤوا بالظهور بالعشرات ثم بالمئات.

وجوه طيبة، بسيطة، يربكها لسان عربي معطّل واستغراب بيّن للمكان.

في تلك الأيام من عام ١٩٧٧. سيق إلى الحلّة قسراً، الآلاف من الاكراد في ما عرف بعد ذلك بحملة تعريب كركوك، هذه الحملة التي بدأت قبل إجراء التعداد السكّاني الذي نصّ عليه اتفاق الحكم الذاتي والذي على أساسه يتقرّر إذا ما ستضمّ كركوك إلى المنطقة الكردية أو أنها ستبقى على وضعها بسبب (أكثريّتها العربية) التي أراد صدام حسين أن يصنعها بنفسه.

لم يستفد صدام حسين كثيراً من هذه الحملة. فحين رأى

Twitter: @ketab_n

الملّا مصطفى أنّ (التحضير) للتعداد يجري بهذه الطريقة، أدار ظهره لكلّ أنواع الحكم الذاتي وغير الذاتي، لـ(يصعد) إلى الجبل (حسب التعبير الكردي عن قرار اللجوء إلى السلاح)، تاركاً لصدام مشكلة البحث عن حلفاء أكراد، ولو صوريين، لإكمال المسرحية التي شكّل الأكراد المهجرون واحداً من أكثر فصولها ألماً.

كان أحدهم يجلس على كرسي الفرّاش أمام مكتب أخي الكبير، سألته عنه فأجاب من دون أن يلتفّ:

- إنه كرديّ هُجِّر من قريته وأخذتْ بيته عائلة عربية جلبت من الرمادي، لا أدري إن كان سيقوى على العيش مع هذا السكوت وهذه الحسرة الحارقة التي يطلقها كلّ لحظة؟

كان وجع قلب الرجل يملأ المكان ويلتصق بالسقوف والممرّات مثل سحابة سوداء مثقلة بالحسرات.

أكراد الحلّة لم يكن كلّهم مهجّر قسراً، فغالباً ما كانوا يأتونها قضاة وضباط وشرطة وأيضاً يأتونها اشخاصاً عاديين يبحثون عن فرصة عيش أفضل وربما أكثر أمناً.

في سوق ضيّق محاذ لسوق (الهرج) فتح نافع الكردي في أوّل السبعينات دكّاناً صغيراً أسماه مقهى.

ما هي إلّا سنة حتى أصبح اسمه مقترناً بالشاي الأشهر في سوق الحلّة وشارع المكتبات.

Twitter: @ketab_n

كان نافع كرديّاً حقيقياً، القامة التي نحتتها الجبال والرأس المسطح من الخلف والشارب الأشيب الكثّ.

فلّاح أبو الجرايد، المعروف بنعوته المشتقّة من مصطلحات الصحف. كان حين يطلب الشاي ينادي على نافع من بعيد:

- ثنين چاي(حدك) واحد سنگين وواحد نص ونص....

أما (حدك) فهي الكلمة المختصرة التي تستعملها الصحف اختصاراً لـ (الحزب الديموقراطي الكردستاني).

حين عدت إلى الحلّة في ٢٠٠٤ وجدت المقهى الصغير مثلما هو، سألت القهوجي عمّا إذا كان يعرف أنّ هذا المقهى كان لشخص كردي اسمه نافع، أجاب:

- وبعدها لنافع.

- بعده يشتغل؟

- تعب آخر سنتين.

وأنا أشرب الشاي تنقّلت بنظري على الجدار المقابل الذي علّقت عليه نفس إجازة المقهى القديمة. الإجازة ثبتت عليها صورة لنافع. على يمينها علّقت صورة لورود ملوّنة يتوسّطها وجه فتى مراهق بشعر فاحم وابتسامة عريضة، كتب تحتها:

Twitter: @ketab_n

(الشهيد أحمد نافع....... اغتالته يد الإرهاب الأسود في انفجار الحلّة........).

في نهاية سوق الحلّة الصغير، سوق العمّار، وفي إحدى علوات الحبوب هناك، كان يعمل حجي ملك. كردي في الستينات ظلّ مصرّاً على وضع عمامته الكردية الزعفرانية المشرشبة حتى اختفى مع المختفين أو مات مع من مات.

الحاج ملك هو طبيب عظام الصوب الصغير. عدّته شنطة جلدية ربّما تعود لناقل بريد إنگليزي أو جندرمة تركي ساقه حظه العاثر إلى كمين كردي من الكمائن التي انتشرت على طول القرن العشرين وعرضه.

العدّة التي تحتويها الحقيبة مختصرة إلى الحدّ الأدنى من لوازم الطب. دهن حرّ في علبة معدنية، خشبتين مسطحتين، ثلاث أو أربع بيضات دجاج يفضّل أن تكون طازجة.

ربّما لم يكسر عظم أو يخلع كتف في صوب الحلّة الصغير إلّا ومرّ صاحبه بحجّي ملك.

العلاج لديه لا يطول. يبدأ بطلب المساعدة في مسك المكسور من قبل مرافقه أو مرافقته، وإن كان من ذوي الأحجام الخارجة عن السيطرة يطلب ملك مساعدة أحد الحمّالين من حوله.

ما أن يطلق عبارته.. (لا تخاف كاكا.. هي بس تگة)..

Twitter: @ketab_n

ويقصد (طگة) حتّى يسحب الذراع أو القدم أو الكتف ليعيد المخلوع إلى موضعه والمكسور إلى مكانه، غير آبه بالصرخة المصحوبة ب(نعلعلة والديك) في بعض الأحيان والتي يطلقها المصاب الذي يكون قد رأى نجوم الظهر تشعّ وتبرق.

بعدها يبدأ التدليك بالبيض ثم بالدهن الحر، يعقبهما إسناد موضع الإصابة بشريحتين من خشب الصناديق اللتان تربطان بالقماش الأبيض. أمّا حمّالة ربط الذراع وتعليقها بالرقبة فغالباً ما يستفاد من (عصابات) الأمّهات أو (شيلات) الجدّات البيضاء.

لم يكن الحاج (ملك) هو الخبرة الكردية الوحيدة التي استوطنت الحلّة، فهناك خبرات من نوع آخر، نوع خطير تحيطه السرية والغموض.. والموت.

أثناء حملة التهجير القسري للأكراد، كان حميد العطار طبيباً في ناحية (جبلة) التابعة للحلّة، يقيم فيها في بيوت الأطبّاء. ولأنّه من أفراد كتيبة العرق آنذاك، كان يستدعي نداماه من الحلّة (ومنهم نحن) لينصب (الميز) في بيته حلاوياً صرفاً، من العرق إلى الچلفراي مروراً بالخس واللبلبي.

في إحدى هذه الجلسات لاحظنا شرود حميد وعبوسه، وهو أمر غريب لمن يعرفونه، فهو حلاوي لاذع اللسان وحاضر السخرية.

Twitter: @ketab_n

بعد أن دبّ دبيبها، قام وأحكم اغلاق الستائر ثم تأكّد من أنّ الأبواب مغلقة كلّها.

نزلت الكؤوس أقداحاً على الطاولة، وانتظر الجميع الدكتور ليقول ما عنده، وهو أمر واضح العلاقة بالحكومة، فلا ستائر تسدل ولا أبواب توصد ولا صمت يطبق إلا بسببها.

عاد توفيق إلى كرسيه، وقبل أن يبدأ أدار نظراته بين الوجوه المترقبة قائلاً:

- اللي راح احجيه، اذا طلع من هاي الغرفة، مو بس أبو أبوية يحترگ.. أبهات أبهاتكم راح تشتعل بعد.

كما هي العادة في مثل هذه المواقف، تعالت عبارات الطمأنة التي لا ينوي أحد الالتزام بها، بما فيهم صاحب التحذير وطالب الكتمان.

جرّ حميد العطّار ما تبقّى في الكأس، وما أن أعاده إلى الطاولة، حتى قال:

- أوّل البارحة..

بصوت واحد، أجبنا:

- ايـ يـ يـ يي....

- شبيكم.. عمّي أعصابكم..

Twitter: @ketab_n

- ....

بعد صمت ثقيل:

- البارحة، الساعة بالثلاثة، بالثلاثة وربع اندگت الباب.

- بالليل؟

- لعد شوكت.. الظهر... طبعاً بالليل.

- ....

- طلعت، لگيت سيارة جيب عسكري، ووراها البيك آب مال الأمن. اللي دگ الباب نقيب ركن، الخط الأحمر مالته عرضه أصبعين، گلي باحترام.. (آسفين دكتور بس لازم تجي ويّانة بأسرع ما يمكن)......

سأل احدنا مستعجلاً حميد الذي بدا وكأنّه دخل في متعة الرواية:

- تروح وياه ليوين؟

- آني أدري؟

- قصدي جاي يعتقلك لو يريدك بشغل؟

- لو جاي يعتقلني چان آني هسة مگابل وجهك الكريم، أكيد يريدني بشغل.

Twitter: @ketab_n

هنا التفتنا إلى صاحب المقاطعات طالبين منه السكوت أمّا حميد فقد توجّهنا له بصوت واحد:

- دخيلك دكتور... خش بالموضوع ترى شگيتنة.

- جبت جنطتي وركبت وراه بالجيب العسكري، بصفي مرافق النقيب شايل كلاشنكوف وجعبة الرصاص بالصدر.

مشت السيارة ووراها بيك آب الأمن، طلعت من (جبلة) وفاتت بالبساتين.. هنا حدث ما لم يكن بالحسبان.

- ....

- المرافق اندار عليّه، وطلّع وصلة سودة....

اندار عليه النقيب وگلي بلطافة لازم نشد عيونك.

- ....

- ظلت السيارة تدگ بينا حوالي ساعة.. ساعة وربع.. لوفات وطسّات وحجار ومي.. إلى أن وقفت بمكان هوسة وصياح.

أبو الكلاشنكوف فكّ الوصلة السودة، لگيتلك نفسي بنص دائرة چبيرة مگصوص بيها النخل والكرين مساوي التراب، لكن النخل مسوى عليها سياج داير ميدور..... والبراجكتورات مسّويتها نهار...

Twitter: @ketab_n

- شنو هي، گاع ترابة.. مزروعة؟

- لا... حاطين بيها خيم داير ما دايرهة.

- منو بيها الخيم؟

- اصبر شوية.. جايك بالسالفة.

- ....

- النقيب گلي امشي دكتور، وآني وراه، إلى ان وصل خيمة سمعنا الصياح طالع منها گبل ما نوصل آني گلت أكيد هذي جلسة تعذيب.

- وشطلعت؟

- طلعت بلية سودة...... يا ريت تعذيب.

- ....

- فوّتوني بالخيمة، اشوفلك واحد عمره فوگ الخمسين يتمرغل تمرغل.. ويصيح كل صيحة، تنسمع بالمحمودية. التفتت للنقيب، سألته شبيه الرجال؟

- شكو جايبيك لو ندري شبيه؟

گربت من الرجال:

- شبيك... شيوجعك؟

Twitter: @ketab_n

صاح النقيب:

- ميعرف ولا كلمة عربي.

- يحچي انگليزي؟

- يحچي بس لاتحچي وياه ولا كلمة قبل ما نجيب المترجم.

ما أطولها عليكم. إجا المترجم، عسكري بدون رتبة.

- ....

- گمنة نحچي آني والرجال. والمترجم حلگة بأذن النقيب. صاحبنا جايته آلام بالكلية المطي ميتحملها، والمصيبة حسب ما افتهمت، عنده التهابات لازم يدخل المستشفى وگاطعين الدوا عليه صار لهم أكثر من شهرين، يعني من يوم اللي جابوهم.

- منين جابوهم؟

- طلعوا أكراد، بس يا أخي أشكالهم حيل مثقفين، كلهم يحچون انگليزي بطلاقة، والحچي مال دكتوراه وفوگ.

- وبعدين؟

- كتله للنقيب هذا الرجال راح يموت إذا ما دخل المستشفى.

- خلص دكتور انتهى دورك، انطيه أي مسكنات واحنا راح نسوي الباقي.

Twitter: @ketab_n

- إحنا هسة شفتهمنة؟

- جايك بالسالفة.

- مو انشگينة يا دكتور، جيبها من آخرها.

- الجماعة اللي بالبستان كلهم أساتذة جامعة واطباء وعلماء اكراد.

- شلون عرفت؟

- اليوم الصبح إجاني سايق الأمن اللي راح ويانة جايب مرته طالعتلها حباية بحلگها.

- وحچالك؟

- ما حچالي بس سألني شنو يعني غسيل دماغ؟

- وشگلتله؟

- گلتله هذا الدماغ مثل طارمة حوشكم، كلما يتوصخ يجلفوه بمكناسة وأربع سطولة مي.

- لا لا بشرفك شگتله؟

- اني عرفته يريد يحچي بالموضوع لسببين لا ثالث لهما. لو يريد يشوفني راح أحچي شي، لو يريد يسوي نفسه يفتهم. گلتلة ليش تسأل؟

Twitter: @ketab_n

- لان الجماعة اللي اخذوك عندهم يقولون ديسوولهم غسيل دماغ.

- يعني بالمختصر شصاير؟

- اللي صاير الحكومة جامعة كل الأكراد اصحاب الشهادات العالية لو تريد تخلص منهم لو تگلبهم بعثية.. وهذا المكان الله ما يندله، يعني باچر اذا عدموهم كلهم محد راح يسمع حتى صوت الرصاص.

على مدى أكثر من ثلاثة عقود لم تمرّ عليّ معلومة ولو بسيطة متعلّقة بما جرى لهؤلاء على الرغم من ظهور ملايين الوثائق السرية التي لها علاقة بإبادة خصوم سياسيين لنظام صدام حسين.

رحيم الكوسج (أحد مشاهير الحلّة في الكذب وخلط الخيال بالواقع)، كان له ركن خاصّ في مقهى نايف. من هذا الركن يبث آخر الأعاجيب التي لا تحصل إلّا معه ومنها ما يحدث له في الشمال، وهو الجندي العائد في اجازة من الحرب ضدّ الأكراد.

كانت له كذبة شهيرة يقول فيها إنّهم، (أي الجنود) حين ساعات الضجر (يتشاقون بالمدافع) أي يمزحون بقصف بعضهم البعض بمدافع الميدان:

Twitter: @ketab_n

- اكو واحد بالربية گبالنة. هذولة اللي نتشاقة وياهم، هو صديقي.

گالي:

- رخّومي، اليوم راح أحرمك نومة الظهر. وصدك سواها ابن المشعول، أگلب راسي عاليمين يقصف المخدة بمكان ما جنت حاط راسي، أگلبه على اليسار يقصف اليمين، تالي ما بقى من المخدة غير وصلة بگد الشخاطة.

كنا نتصور أنّ مدافع رحيم الكوسج هي الخيال الذي لن تبلغه الحروب يوماً، لكن صدام حسين حوّل هذا الخيال واقعا شحنه بكيمياء الموت، وإن خلّفت مدافع الكوسج الضحك الذي ملأ قهوة نايف، فإنّ مدافع صدام خلفت صوراً لن تنسى، صور أشلاء الكرد الطيّبين وهم ماضون إلى الشهيق الأخير، محتضنين بعضهم بعضاً.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(جاوانيون) حفيدهم سليم فلپس

ما إن تسمع بإسم محلّة (الأكراد) حتى تقفز أمامك الشراويل الكردية الفضفاضة وأحزمة القماش المزركشة والعمائم والمسابح الخشبية وإلتماعات ثياب النساء تحت شمس الحلّة النازلة من السماء على الرؤوس مباشرة، ومن دون عائق أو وسيط.

كلّ هذا لا علاقة له بالواقع، فكُرد الحلّة جغرافياً، والكُرد الذين نعرفهم تاريخٌ وقومية، وما بين الاثنين فرق شاسع واسع، فمن أين أتى الاسم ومن أيّ مكان طار ليحطّ في الحلّة. ليس بعيداً عن شطّها ولا عن جسرها (الجديد) الذي حوّله المحافظ الثوري هاشم قدّوري، ذات ليلة حماس ثوري، إلى جسر (ثخين) بعد أن أهال عليه كمية هائلة من الإسفلت الساخن، أنهت تباهي الحلاويين بالجسر الذي ينفتح للسفن العابرة فأصبح (وصلة وحدة) صمّاء لا تفتح حتى للأسماك.

بعد كلّ هذا، من أين أتى اسم (الأكراد) لمحلّة لا علاقة لها بالكرد؟.

Twitter: @ketab_n

العلاقة التي يعرفها بعض المهتمّين بأصل المدينة وفصلها لا تتعدى ما يقوله التاريخ عن قبيلة كردية جاوانية (هكذا كُتبت) رافقت مؤسّس الحلّة من بني مِزْيَد أيام الكهلور (هكذا كتبت أيضاً) عام ١٠٨٦ للميلاد، هذه القبيلة شاركت في المعترك الذي انتهى إلى تأسيس الحلّة، فبقت آثارهم حتّى اليوم، والمقصود بالآثار هو محلّة الأكراد لا غير.

حسب الحلاوية الدارجة، يطير حرف الألف وهمزتها من الأكراد فتصبح (الكراد).

كما يقول التاريخ نفسه، إنّ رجالاً من الجاوانية كان لهم دور في الحرب والأدب أشهرهم بنورام ومنهم أبو الفتح بن ورّام.

كهلوريون أوجاوانيون، جاؤوا من آخر الدنيا أو جاؤوا من (محاويل الأمام) بنورام أم بنو قينقاع، كلّ هذه الأسماء المفخّمة المطهّمة مثل خيول في عزّ شبابها، لن تقنع أحداً، كائناً من كان، أنّ هناك خيطاً من أي نوع، ولاحتى خيطاً (سِتلياً)، من الممكن أن يربط أصحاب هذه الأسماء الخارجة من المخطوطات القديمة بأحبارها السوداء كالليل وأوراقها المقهّرة، بسليم فلبس وعليوي أبو العنس وسالم بجّو وعباس گلمبو.

هؤلاء (الأحفاد)، مقطوعو الصلة ليس مع الكهلوريين والجاوانيين فقط، بل مع صوبي الحلّة الصغير والكبير.

Twitter: @ketab_n

هم عالم وحده، عالم من حلقات متداخلة تنفذ كلّ منها إلى الأخرى عبر طرق سرّية يغلقها أصحابها ويفتحونها حسب ما يطرأ على علاقاتهم من مستجدّات، وفي الكراد لا يمكن أن يمر يومٌ من دون مستجدات.

إنّ عجز الواقع يوماً عن الإتيان بها، فالخيال ومصانعه جاهزة على الدوام لإنتاج ما يحلو لها من مستجدّاته، وبأيّ قياس.

كلّ اسم في الكراد عالم، وكل عالم في حالة نطاح مستمرّ مع عوالم الآخرين.

سليم فلبس، أحد أعلام الكراد، هذا (العَلم) يتلازم ذكره مع سؤال عن علاقة اسمه بالماركة الكهربائية الهولندية الشهيرة فلبس؟

حتى لا يذهب بنا التفكير بعيداً، فنتوقّع أنّ للرجل أسهماً أو وكالةً للشركة الشهيرة، لا بدّ من وضع حائط بين الاثنين، فسليم لم يصلّح أو يبادل أو يتاجر أو حتّى يسرق أي نوع من الأجهزة التي تنتجها هذه الشركة.

أمّا العلاقة فهي في الراديو المتربّع على رفّ المقهى المفروش بشرشف مطرّز بالزهور يتدلّى ثلثه ويختفي الباقي تحت الراديو نفسه. هذا الراديو كانت له عين واحدة، تتحوّل إلى اللون الأخضر حين تسخن أسلاكه ولمباته، فيعرف

Twitter: @ketab_n

المسترخون على الكرويتات الخشبية أنّ الأوان قد آن لانطلاق الأغاني والأخبار وما بحكمهما.

بعد كلّ هذا، ومرّة ثانية: أين العلاقة بين سليم وفلبس؟

سليم هو صاحب المقهى الذي يتوسطه الراديو ذو العين الواحدة، ولأنّه (أي سليم) أعور بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، أي أنّه أبيض العين تماماً، لم يأخذ الأمر من أهل الكراد إلّا دقائق بعد إخراج الراديو من الكرتونة ووضعه على الرفّ، وقبل أن يشتغل، ألحق باسم سليم لقباً، ولأنّ الراديو هولندي أصلي ماركة (فلبس) أصبح الاسم الكامل لسليم هو «سليم فلبس»، فقد تشارك الاثنان بالعين الواحدة وان اختلف لوناهما.

خير من وصف سليم هو أخته قومية (هذا اسمها وليس اتجاهها السياسي).

الوصف المفصّل حدث أثناء إحدى محاولات الأخت الكثيرة لإيجاد زوجة لأخيها.

بعد أن انتهت قومية من استكان الشاي، آتية في الرشفة الأخيرة على بقايا السكر غير الذائب ومعه البثل المترسّب في القاع، توجّهت نحو أم البنت المطلوبة قائلة:

- جاييكم طلاّبة، وانشاءالله ما تفشلونه.

- إذا نگدر ليش لا عيني قومية...

Twitter: @ketab_n

- جاية أطلب خيرية لسليم.

- ....

- شو سكتّي عيني أم سليم؟ (الثانية كان اسم ابنها سليم).

- خَيريَتْنَا؟

- لعد خيريتنا؟

- بعدها زغيرة عيني مو مال زواج.

- يا زغيرة، ما شاء الله تسد العگد من تفوت.

- ....

- شو هم سكتي،.. خاف ما عاجبكم سليم؟

- ....

- أي مبين ما عاجبكم.

- ....

- ليش يمّة.. شبيه سليم شناگصه؟

- ما كلنا شي.. بس؟..

قبل أن تنتهي من جملتها، انطلقت قومية لتضع النقاط على الحروف:

- كبل ما تبسبسين.. آني أگلّچ:

Twitter: @ketab_n

أصلع.. وشنو يعني، الصلعة صلعة موظّف. عينه عورة.. حچي عداوات.. أروح فدوة لعينه، هي شوية رايحة عاليمنة.. حوال حسن ولا يگله.

يشرب عرگ.. منو ميشرب عرگ، يمكن بس سيد أبو هوسة ميشرب.. والله العالم..

حتى اجيبلچياها مثل ما هيّ.. أصلاً هو لا بحال الزواج ولا بحال النسوان.. هذولاك الفروخ.. تارسين البيت.. فرخ طاب وفرخ طالع.

وحتى ما يضل شي بگلبي.. خاف ميعجبكم تناسبون واحد يصيحوله (فلپس).... ليش (أبو گُصّة) أحسن؟

(أبو گُصّة) هو اللقب الذي اختارته الكراد لأهل الخطيبة التي انتهت خطبتها قبل أن تبدأ كما كلّ خطبات قومية لأخيها فلپس الذي استسلم لقدره وبقي وسط زحام الفروخ.

أبو گُصّة و فلپس، ليسا صاحبي اللقبين الوحيدين في هذه المحلّة التي لم تأخذ يوماً بالوصية الإلهية (ولا تنابزوا بالألقاب)، بل على العكس تماماً، فأنت لا تحتاج إلى أي نوع من الجهد لتعرف أنّ لاعمل للكراد وأهلها إلا أن يتنابزوا.

علي السريع، حسن أبو القوّة، عباس لندن، ثلاثة أشقّاء بثلاثة ألقاب، حمل حسن لقب (أبو القوّة) لتمتّعه بالطول الفارع والتقاسيم الخشنة، حتّى قيل إنّه إذا ضَرب الراشدي

Twitter: @ketab_n

فإنّ المساحة التي يغطّيها على وجه المضروب تمتدّ من أعلى قحف رأسه حتى مكان التقاء الرقبة بالكتف، والعهدة على الرواي.

أمّا لقب (لندن) الذي أُلحق باسم شقيقه عبّاس فقد كان سببه عمله في مقهى، حين يأتي وقت الاخبار، يبدأ الجالسون بالصياح (لندن....لندن.... لندن..) مطالبين بتغيير محطة الراديو من إذاعة بغداد إلى هيئة الاذاعة البريطانية، ولأنّ عباس كان الأطول في المقهى، تتوجه الطلبات إليه لأنّه يغيّر الإذاعة من دون الحاجة إلى كرسي للوصول إلى رف الراديو.

لم يكن عبّاس محتاجاً لشيء سوى مدّ يده الطويلة ليرتفع الصوت الذي لا غنى عنه:

«هنا لندن.. هيئة الإذاعة البريطانية»

حينها فقط تطمئنّ القلوب وتهجع النفوس، وكأنّ أخبار لندن إبرة في الوريد العراقي، لا تستقيم الحياة ولا تمضي الأيام من دونها.

من هنا جاءت (لندن) لتلتصق باسم عبّاس فيصبح عبّاس لندن.

الشقيق الأكبر بين الثلاثة هو علي السريع، ولِلَقبه قصّة أطول من قصّتي لقَبي شقيقيه.

Twitter: @ketab_n

كان هناك لفريق من العراقيين، سدٌّ في حياتهم اسمه امتحانات البكلوريا.

هذا السدّ الذي يقف بوجه المصرّين مانعاً إيّاهم من الحصول على شهادة الثانوية، غالباً ما يزداد ارتفاعاً مع تكرار الفشل في عبوره.

علي السريع لم يكرّر المحاولة لمرّتين أو ثلاث، بل أربع عشرة مرّة، هذه السرعة في الحصول على شهادة الثانوية، هي التي دفعت الكراد إلى إطلاق لقب (السريع) على عليّ الذي استغرق مشواره في اجتياز الامتحانات تسعة عشر عاماً بالتمام والكمال، (بينها خمس سنوات لم يتقدّم للامتحان لأسباب بينها الهروب من الجيش والضوجة من السقوط).

عقدة علي الامتحانية لم تكن مع مواد الامتحان كلها بل هي عقدة بالتخصّص. فرسوبه طوال مشواره (السريع) كان في مادّة اللغة الإنگليزية فقط. باقي الدروس على صعوبتها، كان يعبرها بسهولة.

يوم نجح علي السريع، كان يوماً من النادر أن تشهد الحلّة مثله، لم يكن النجاح غير المتوقّع هو السبب فقط، بل ابتهاج (العربنچية) بالخبر القنبلة، ليتبرّعوا بزفّة مجانية لأكثر من عشرين عربانة (ربل)، جلس في أولاها علي السريع إلى جانب العربنچي كاظم ليلو صاحب نداء انطلاق المسيرة،

Twitter: @ketab_n

لتتبعهم باقي العربات حاملة فرق (العبدات) بالطبول المجرّدة، وفرقة (صادق الأوخ) النحاسية بفرعها الأصلي والفرع الذي انشّق عنها مكوّناً فرقة (الجنائن المعلّقة) التي يقودها سالم تكبّر (سمي بتكبّر لتعاليه على العازفين بسبب اشتغاله مع فرقة في بغداد لأكثر من سنتين).

تحسّباً لأي طارئ قد يؤدّي إلى اشتباك الفرقتين، فُصل بينهما بأكثر من عشرين رَبَلاً.

رشيد الأعمى، بكمانه الريفي كان أيضاً هناك ومعه مجموعة من مغنّي مدينة الثورة حيث ينتمي.

رشيد هو الأعمى الوحيد في العراق (وربّما في أماكن أخرى غير العراق) الذي يقود دراجة هوائية، وحين يصدم رشيد أحداً أثناء قيادته، يصرخ ثائراً بوجه المصدوم:

- شبيك أعمى؟!!

أكثر من حلّاوي (ومعظمهم من أهل الكراد) أوقفوا الزفّة ليتأكّدوا بالعين المجرّدة من شهادة نجاح علي السريع، غير مصدّقين الخبر، أحدهم حاول تخفيف دمه فصاح بعليّ بعد أن تفحّص الدرجات:

- ولك علي.. ذوله ناسين الانـگليزي ماحاطيلكياه.

يومها، لم يستفق علي من غيبوبته إلّا بعد أن دلق على

Twitter: @ketab_n

رأسه العربنجي كاظم ليلو سطل ماء اعتاد أن يعلّقه في العارضة الخلفية للربل من أجل سقاية الحصان.

عدنان زلّاطي، الذي يأبى أن يترك علي السريع وحده في ملحمة الرسوب المتواصل، كان يرسب معه في كلّ عام، وفي العام الحادي عشر.. استسلم.

الفرق بين الاثنين أنّ عقدة زلّاطي لم تكن في اللغة الإنكليزية، بل في كلّ الدروس. كان يرسب في كلّ مادة، وبدرجات أعلاها ٣٧ بقي يذكرها على أنها إنجاز إذ لم يكن بينها وبين النجاح إلّا ١٣ درجة كما يقول.

ذات سنة من سِنيّ الامتحان، خرج علي السريع من القاعة مسرعاً باتجاه مقهى فلبس، كان الأمر خارج المألوف تماماً، ففي مثل هذه الأيّام، يتوجّه علي إلى البيت مباشرة، يأكل لقمة، ثم يعود إلى حديقة النساء.

على عادة المذاكرين الحدائقيين، يخلع نعليه، ثم يبدأ بالقراءة سيراً في الممرّ الترابي الذي لم يغيّره طوال الأعوام الأربعة عشر. الحلاويون اطلقوا على الممرّ اسم (الطريق السريع)، حتى زالت حديقة النساء ومعها نساؤها.

جلس علي بين مجموعة خضيّر ننه، ومعظمها من الأصدقاء المشتركين بينه وبين عدنان زلّاطي، مسح عرقه

Twitter: @ketab_n

(كان لا يتخلى عن الجاكيت فوق الدشداشة ولو أمطرت السماء ناراً)، وبصوت يقطعّه لهاث المشي السريع:

- اليوم زلاّطي سوّة سوايه.. بعد شوية چان سقطت من وراه.

- على أساس أول مرة تسقط !.

علق أحدهم وسكت بعد أن وجد نفسه هدفا لنظرات الاستنكار، فالوقت ليس وقت مناكفة.

- بيش الساعة يبدي الامتحان؟

وجه علي السؤال إلى الجالسين.

- بالثمانية.

أجاب أحدهم.

- گول بين ما يفتحون الأسئلة ويفتشون الهويات ويوزعون الدفاتر.. هاي ربع ساعة.

- يعني بالثمانية وربع.

- بالثمانية ونص، عدنان طلب دفتر جديد.

- ....

- خلّص الدفتر الأول.

Twitter: @ketab_n

- عدنان.. خلّص الدفتر من الأجوبة؟

- اسمع هاي..

أكمل علي:

- بالتسعة إلّا ربع، طلب دفتر ثاني.

- عدناااااااان؟؟؟؟

- آني جمدت، بعد ما أكدر أكتب ولا كلمة.. منين نزل الوحي على هالأخ الگحبة؟

- ....

- بالتسعة وخمسة، طلب الدفتر الثالث، ماتحمل المراقب صاح للفرّاش... علوااااااااااان.. أركض صيح المدير.

- ....

- إجه المدير يركض، بس وصل، صاح المراقب.. أستاد هذا الطالب كلّ ربع ساعة يخلص دفتر، وإذا ظلّ هيچي.. ينرادله لنهاية الامتحان لوري دفاتر.

حمل مدير القاعة الدفتر الأوّل، فتحه، ثم استدار بوجه محتقن نحو عدنان:

- ولك ليش تكتب هيچي؟

Twitter: @ketab_n

- شنو استاد؟

- كل كلمة بطول النعال.

- والله استاد گالولي، كلما كثّرت الكتابة، كلّما زادت الدرجة، أني گلت إذا المصلح شاف عشر دفاتر گدّامه راح يحطّ التسعين مثل الورد.

يتزعم عدنان زلّاطي جماعة أطلقت عليها الكراد اسم (شوفووووه... احچوا). هذه الجماعة تجلس في مقهى يشرف على الشارع العام.

مع الأيّام، وبعد أن ذاع صيت المجموعة، صار المقهى يسمى باسمها مقهى (شوفووووه.. احچوا).

زعامة عدنان للمجموعة هي تحصيل حاصل، فهو صاحب فِعلي الأمر (شوفووووه) و (احچوا).

يجلس عدنان مع مجموعته على قنفتين متقابلتين لا أحد يجرؤ على أن يقترب منهما، غابت المجموعة أو حضرت.

مكان زلّاطي هو الطرف الأيسر من القنفة المواجهة للشارع، الآخرون قد تتغير أماكنهم، أما هو، فجلسته ثابتة لا تتحوّل، الباقون قد يلعبون الدومنة أو الطاولي، أمّا هو فلا يمكن أن يرفع عينه عن الشارع وما يمرّ فيه من بشر وخيول وسيارات وحمير وعربات وكلاب أو قطط سائبة.

يبدأ زلّاطي بتفحّص المارّين بمجرّد أن يلوّحوا له من

Twitter: @ketab_n

بعيد، ما أن يشَخّص القادم حتى يبدأ بالتفكير، وقبل أن يصل إلى حدود المقهى بعشرين متراً، يكون قد قرّر ما إذا هناك ما يستحقّ (التشريح) أم لا.

اذا قرّر أنّ القادم ليس لديه ما يستحق المداولة، يدعه يمرّ من دون أن ينّبه إليه أحداً. أمّا إذا اتخذ قراره بأنّه (الضحية) المنتظرة، يرتفع صوته الأخنف وهو يفرك حنكه:

- شوفووووووه......

تسمع المجموعة النداء، فيترك الجميع ما بأيديهم وتستدير الرؤوس نحو الضحية.

يمرّ العابر والمجموعة تبحلق في كل شئ فيه، يستمر التمحيص حتّى يختفي المقصود فيعود صوت عدنان زلّاطي إلى الارتفاع آذناً:

- احچوا.

هنا يبدأ أفراد المجموعة بتقديم مرافعاتهم عن هذا الذي ساقه حظّه العاثر للمرور أمام المقهى:

- مو چنه لابس قميص وحده من بناته... لو آني ما أشوف؟

- زين اذا وحدة من بناته.. هذا قميص اللعّابة (الدمية).

- شكو مگلوبة چهرته.. على أساس متّقف؟

Twitter: @ketab_n

- هو من الله خلقه هذي خلقته.. أصلن إذا ابتسم يتفلّش وجهه.

- مو چنه سمنان شوية؟

- لا مورّم.

- مو اسمه شاكر؟

- لا ذاك أخوه.. أضرط منه.

- لعد هو شسمه؟

- فاضل.

- لا أبوهم فاضل اللي جان فرّاش بالطابو.

- فرّاش؟

- أي المرحوم فرّاش، بس من يمشي بالبنطرون والعقال تگول ملك حسين.

- وهذا صاحبنه شيشتغل؟

- منو؟

- هذا..

التفتوا باحثين عن الرجل، فوجدوا أنّه ذاب في الزحام.

Twitter: @ketab_n

ذاع صيت المقهى وانتشر، فصار العابرون يقطعون الشارع إلى الرصيف المقابل حال وصولهم إلى بداية رصيف المقهى.

هذا الاحتماء اليائس بالرصيف المقابل، لم يوقف غارات جماعة (شوفووووه....احچوا) ولم يؤثّر فيها.

التغيير الوحيد الذي طرأ، هو اسناد مهمّة الرصد بأصغر أعضاء المجموعة وأقواهم نظراً، ففي التفاصيل تكمن القصص ومن بين ثناياها تخرج الأجنحة التي يطير بها الخيال.

في النصف الأوّل من السبعينات، اجتاحت الشباب حمّى تقليد الأميركية آنجيلا ديفز.

العلامة الفارقة لهذه الشخصية السوداء الطاغية الحضور، هي شعرها وسلاسلها ونظارتها المدوّرة.

كان شعرها يحيط بوجهها مثل كرة خشنة ملفلفة الخصل، أمّا سلاسلها فكانت كبيرة الحلقات تصل إلى أسفل بطنها منتهية بشعار الهيبيين الشهير(الدائرة المحيطة بحرف Y الإنكليزي).

ليس على نطاق واسع، بل بين المتمرّدين منهم، انتشرت هذه الهيئة. كان معظم هؤلاء من هواة موسيقى البوب والمستنكفين من سماع الموسيقى أو الغناء الشرقي، والعراقي منه بشكل أكثر استنكافاً.

Twitter: @ketab_n

ما زاد الطين بلّة، هو استخدام هذه المجموعة لكلمات إنكليزية وتوسيع بنطلونات الشارلستون إلى الدرجة التي لا يمكن معرفة إن كان لابسها، يرتدي تحتها حذاءً أم خرج حافيا من البيت.

العلامة الفارقة الأخرى التي كانت تثير القرّاضة (محترفو الاستغياب) هي ياقات قمصان هؤلاء. كانت طويلة جدا، تتدلّى من العنق لتصل إلى فوق السرّة بقليل مثل خصيتي ثور استنفذتا وظيفتهما الأصلية.

مع أنّ جميعهم لديهم فكرة كاملة عن مقهى زلّاطي وجماعته، وأنّ المرور أمامها يعادل في خطورته الاقتراب من أسد لم يأكل منذ شهرين. مع كلّ هذا، مرّ أحدهم أمام المقهى.

ما أن لاحت كرة الشعر المنكوش فوق الرأس، حتّى صاح عدنان زلّاطي من قاع قلبه:

- شوفوووووووووووه......

هذه (الشوفوه) صحبتها زفرة وصلت حرارتها إلى الحمّام الملاصق للمقهى.

التفت الجميع كالعادة، ولكن بتركيز أكبر بعد أن أحسّوا أنّ في الأمر ما يحتاج إلى التركيز.

Twitter: @ketab_n

العابر المتمرّد، لم يكن يأبه.

مرّ من دون أن يلتفت لأحد، فارع الطول، عديم (التضاريس)، أي أنّه مستوٍ من أعلى كرة الشعر حتى حذاءه غير الظاهر.

سيقانه الطويلة جعلت من بنطلون الجينز (القماش من الأورزدي والتفصيل حسب الطلب لدى ناجي الخياط)، من أجزاء المشهد الأكثر استفزازاً، فقد كان يأخذ ثلثي مساحة المتمرّد غير الآبه.

الجينز المنتهي عند السرّة، يخترقه حزام بعرض أربعة أصابع تتوسّطه حلقة على شكل عجلة سيارة من النيكل اللمّاع، أمّا الجاكيت فكان أقرب إلى حمّالة الصدر النسائية، يبدأ من تحت الصدر باصبع حتى الكتف، لا أكمام ولا أزرار. لم يكن (جاكيت) بالمعنى المفهوم، بل مثّلثان من الأمام ومستطيل من الظهر مربوطان بقماش القديفة.

تحت هذا الشيء ارتدى المتمرّد فانيلة بيضاء بأكمام طويلة، ملتصقة بجسمه الضعيف حتى تكاد أن تصل إلى عظامه.

كلّ هذا نصف محتمل، ما هو غير المحتمل، كرة الشعر الهائلة الحجم التي عرف عن صاحبها مباهاته بالمشط الذي ينكش به شعره، وبتحديه أن يوجد في الحلّة أخ له،

Twitter: @ketab_n

(للمشط)، وأيضا شرباكة السلاسل التي كادت خرخشتها أن تعبر الرصيف وتخترق أذن عدنان زلّاطي ليصبح الاستفزاز صوتاً وصورة.

مرّ وكأنّه عمود هاتف مستدقّ ينتهي إلى قمع يروح ويجيء، هو الجزء الأسفل من الشارلستون، عنوان المرحلة وعلامة التمرّد ووسيلة استفزاز فريق التقليديين الذين يصرّون على التمسّك ببنطلون (أبو البوري) ومنهم زلّاطي ومجموعته.

بعد أن اختفى (الهدف)، ردد عدنان، وبصوت خفيض هذه المرّة:

- إحچوا....

توالت التعليقات التي لم تخرج عن السخرية من شكل الضحية الخارجي:

- بس تگلبه يصير فرچة بطل..

- يمكن اخوته الزغار مطلّعهم ويّاه جوه البنطرون.

- إذا يحط بطل عرگ بكفشته ميبين منّه غير القبغ.

- يا بطل عرگ عمي.. بطل وميز وسكمليين وچيس لبلبي و٣ گلاصات.

- بس الحچي بيناتنة، متوفق باليَلَگ.. إذا بردت الدنيا بالخفارة، يتغطّى بيه ويلفّ راسه وينام.

Twitter: @ketab_n

- ياخفارة؟

- ليش هذوله ميلزمون خفارات؟

- وين يلزمون الخفارة، بمستشفى الكفشات المستعصية؟

- ....

الحوار مستمرّ، وعدنان لم ينبس بحرف، استنفذ الجميع ما لديهم فانتبهوا لسكوته:

- شو ساكت عدنان؟

سأله أحدهم.

أنزل قدمه المرفوعة على القنفة، ومن دون أن يجيب، لملم دشداشته في حضنه مشمّراً عن ساقيه حتّى الركبتين اللتين بدتا ككرتين أم ٣ دراهم.

تنهّد، حكّ خدّه، اتكأ بيده اليسرى على عارضة القنفة الخشبية، التفت إلى المجموعة التي أحسّت أنّ وراء هذا السكوت أمراً خارج مألوف القرض والقرّاضة.

- تدرون هذا لو ينطونيا شسويلة؟

- شتسويلة؟

أجابوا بصوت واحد أعاد بعده زلّاطي رفع قدمه اليمنى ليضعها على القنفة:

Twitter: @ketab_n

- أوّل شي أجيب طاسة مي حار.. يفور.

- ....

- أنزّعه كل الغراض اللي لابسهن.

- ربي كما خلقتني؟

سأل أحدهم.

- ربي كما خلقتني.

- ....

- أجيب خصاويّه، واحطهن بالطاسة.

- ....

- فد خمس دقايق، يصير طول الوحدة بين الفوت والفوت وشوية.

- ....

- أجيب السندان مال طالب الحداد، وأمدهن عليه.

- ....

- أروح أجيب حكّومي المخبّل.. وبالچلّابتين اشلّع سنونه كلهن.

Twitter: @ketab_n

- ....

- بين ما آني أشلّع سنون حكومي، واحد منكم يجيب نص كيلو تمر وطاوة وربع كيلو دهن.

- ....

- على النار مال وجاغ الجاي، تحطون الطاوة والدهن، ولمن يدوغ، تذبون بيه التمر.

- ......

- حكّومي ذاك الوكت يصيح ويستريح، الجماعة مثبتيه بالكاع، لما التمر يصير نار كبرة واحد منكم يجيب الطاوة، وبالچف مال الجمنتو، ألّم التمر الحار وأدحسه بحلگ حكومي.

- يا يابااااااااااااااااه....

صرخ أحدهم مشمئزّاً، لكن عدنان زلّاطي لم يرف له جفن:

- گبل ما أهّد حكّومي.. أجيبله چاكوچ مال تفليش أبو راسين، كل راس بگد الركّيّة.

- ....

- حكّومي بس يفلت يصير مثل الهنود الحمر، يگمّز بالگهوة ويصيح: واا.

Twitter: @ketab_n

- ....

- الچاكوچ بيده، وخصيان صاحبنه مفروشة على السندان.... يشيل حكومي الچاكوچ ويجي يركض و يگمّز... وي ي ي ي.. ي ي ي ي ي.. ي ي.....

- ....

البعض فتح عينيه على آخرها والبعض الآخر أغلقهما هارباً من اللحظة المتوقّعة.

- من يوصل حكومي يم السندان، ذيچ الساعة التمر ياخذ مفعوله، والچاكوچ وصل للسگف.... ومثل هرقل ينزّلة عالسندان.

- ....

- الضربة ما تجي على خصاوي صاحبنة.. تجي بصفهه.. يعني بين الچاكوچ وخصيانه.. إصبع.

- ....

- ذاك الوكت تهجمون على حكومي كلكم وتاخذون منه الچاكوچ.

- وصاحبنه؟

- خلص.. انطيه الچارلس والسناسل.. وأگلّه روح أبويه لحال سبيلك.

Twitter: @ketab_n

الفروخ الذين استخدمتهم قومية في هجومها المعاكس الذي أرادت به ردّ هيبة أخيها سليم فلبس بعد أن رفضه بيت (أبو گصّة) زوجاً لابنتهم، كانوا سلاحاً ذا حدين، حدٌّ تستخدمه قومية لصالح فلبس، وحدّ آخر يمكن أن يقلب السحر على الساحر فيقع الشقيق (البريْ) في المحظور الذي يوصله إلى المحكمة ومعه في كلبچة واحدة عليوي أبو العنس.

تمّ القبض على الاثنين بعد أن اشتكى أهل الفتى الضحية محدّدين المتّهمين بالاسم. الاتهام لم يكن يحتاج إلى إثباتات جرمية، فالقضية جاهزة والمتّهمان بخبرتهما السابقة وفّرا حفلات الكتل في مركز شرطة الكراد مقرّين معترفين بالجريمة التي ساقتهما إلى المحكمة.

نزل المتّهمان من السيارة (المشبّكة) التي نقلتهما من توقيف حي بابل إلى المحكمة عند رأس الجسر الجديد في الصوب الصغير.

في الحلقة اليمنى من الكلبچة كان عليوي أبو العنس وفي اليسرى سليم فليس الذي نزل من سيارة السجن بالقاط الرمادي الفاتح الذي لا يخلعه مهما تبدّلت الفصول أو تقلّبت الحرارة.

كعادته، لم يتوقّف فليس عن تكريز الحَب، لا في السيارة ولا في الطريق إلى قفص المحاكمة.

Twitter: @ketab_n

بعد أن أنزلهما الشرطي واكتشف (مزرعة) القشور التي بذرها سليم على أرض السيارة صرخ:

- ولك فلپس... بس نخلّص لا أخليك تمسح السيارة كلّها بعينك العورة.

- ليش الغلط ريّس.. بلكي براءة.

أجاب فلپس رئيس العرفاء وهو يرمي الحب بيد واحدة ويتلقّفه بفمه مستعرضاً مهارة زادت الشرطي غضباً.

- براءة.. على أساس راح يحاكموك بقضية نفقة يا أعور الكلب.

كلّ هذا يجري وسط صراخ قومية وصمت جاسمية والد فلبس (سمي هكذا بسبب حركاته الأنثوية)، وفضول المراجعين والصمت المطبق من عليوي أبو العنس.

دخل المتّهمان القفص بعد أن فكّت عن أياديهما الكلبچة، ما إن دخل الحاكم حتى نادى منادي المحكمة باسميهما:

- سليم جاسم الحصيني.

- حاضر.

أجاب فلپس بخبرة العارف المجرّب.

- علي عبّاس فرحان.

Twitter: @ketab_n

لم يجب أبو العنس الذي يبدو أنه قد نسي بفعل عدم الاستخدام، أنّ هذا الاسم يعود له.

لكزه فلپس بكوعه ليتأوه بصوت مسموع أعقبه بصرخة مكتومة:

- إي.

رفع الحاكم نظّارتيه وتوجّه نحو القفص:

- شنو اي.. أنت علي عبّاس فرحان لو مو أنت؟

- آني سيدي آني.

قلّب الحاكم الأوراق أمامه ثم توجّه إلى فلپس:

- سليم جاسم الحصيني.. هل نكحت الفتى (....)؟

فلبس الذي كان قد حضّر دفاعه، خربطت عليه كلمة (نكحتَ) استعداداته، هنا قرّر أن يتحوّل إلى الفصحى التي رأى أنّها ستقّوي موقفه أمام المحكمة:

- والله سيدي أنا ما (نئته).. أبو الأنس (نائه).

مرافعة القضاء الفصيح انتهت بسليم فلبس سجيناً لسنتين، أما عليوي (أبو الأنس) فكان نصيبه ستّة أشهر لأنّه (وحسب الحكم) سهّل الجريمة بمراقبته الطريق لفلبس أثناء قيامه بالجرم الذي أنكره مدّعياً أنّه هو من كان المراقب ممّا أثار

Twitter: @ketab_n

حفيظة الحاكم كونه فاقد لخمسين بالمئة من أداوات المراقبة (عينه البيضاء) وخمسة وعشرين بالمئة ممّا تبقّى منها (الثانية الحولاء).

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

يقسّم الشطّ الحلّة إلى قسمين، كلّ منهما يسميه الحلاويون (صوب)، ولكلّ صوب صفة، فالأوّل صغير والثاني كبير، وهي صفة لها علاقة بمساحة كلّ منهما وأحياء كلّ منهما وأسواق ومقاهي ومدارس وناس كل منهما.

تسمع في الحلّة عبارة تتردّد هي «هذاك الصوب» فهذا الرجل (من أهل هذاك الصوب) و(أنا ذاهب إلى هذاك الصوب) وفلان (مدرسته في هذاك الصوب)، إلى آخر القائمة الطويلة.

«هذاك الصوب» تستخدم للصوبين وفي الصوبين، لكنّ الغريب هو أنّ لا وجود في قائمة تعابير الحلّة لـ«هذا الصوب» ولا أحد يعرف السبب حتّى الآن.

لا تباينات بين الصوبين، لكنّ الأمر لا يخلو من تبادل السخرية على الخفيف، وتبادل معارك الحجارة عبر الشطّ بين فترة وأخرى، وأيضاً اختلاف التسميات وتحريك الكلمات أو طريقة نطقها، وهو أمر يكفي في الحلّة لإثارة معركة كلامية

Twitter: @ketab_n

يستمر فيها فريقا النزاع شتاءً كاملاً بما فيه من عطل وأعياد ومآتم.

ما بين الصوبين جسورٌ كانا اثنين، العتيق والجديد، ثم صارا ثلاثة حين أضافت كتيبة الهندسة في الجيش، وعلى عجل، جسر (بيلي) الذي اختارت له موقعاً وسطاً بين الجسرين القديمين.

شمال الجسر الجديد قام جسر (بتّـة) وجنوب العتيق، قام جسر (الهنود)، وكلّها أسماء اعتادت الحلّة أن تطلقها لأسباب ترتبط غالباً بمحادثة أو زلة لسان أو صفة تحرص الحلّة أن لاتفلت منها فتحّولها إلى لقب لا تمحوه الأيام بحروبها وصروفها.

سليم شناوة، تاجر وصناعي، كان احتراق رقبته بنار هبت فجأة من أحد أفرانه كافياً ليتحوّل إلى (النمساوي) لأنّ الفرن سبب الاحتراق كان مصنوعاً في النمسا.

تسمية الجسور بالعتيق والجديد معروفة، أما جسر (الهنود) فلأنّ شركة هندية نفّذته، وسمّي الأخير بجسر(بتّة) لأنّ الأرض المحيطة به لها نفس الاسم الذي لم يعرف مصدره أحد.

جسر بيلي (المؤقّت) بنته هندسة الجيش في بداية السبعينات على أن يرفع بعد انتهاء احتفالات انقلابات تمّوز

Twitter: @ketab_n

التي كان النهر مسرحها، لكنّه لم يرفع حتّى اليوم، أي بعد أكثر من خمسة وثلاثين عاماً.

هذا الجسر هو الوحيد الذي نجى من ألقاب الحلّة، فقد بقي يحمل اسم المهندس الذي اخترع هذا النوع من الجسور وهو (بيلي)، والسبب أنّ الجيش علّق لافتة تحمل اسم المذكور حال انتهائه من نصبه فلم يعط الحلاويين وقتاً لإطلاق ما يفتح قريحة سخريتهم.

مع ذلك، تداول من استصعبوا الاسم، تسمية أخرى وهي (جسر اليطگطگ).

كان الجسر يصدر أصواتاً حين مرور السيارات عليه.. وما زال.

ما بين الجسور، يختصر الحلاويون عبورهم بين الصوبين عبر خطّين من زوارق الخشب، الأوّل خطّ عمران وجواد أمام المحافظة والثاني خطّ حاتم أبو رزاق بين گريطعة والجامعين.

عمران وجواد اللذان يتناوبان زورق المحافظة، كانا من أهل المجاذيف، وخطّ گريطعة كان أقلّ احترافاً، لأنّه يستخدم الحبل، لكنّ الاثنان تجمعهما أجرة واحدة وهي خمسة فلوس للعابر.

جسور الحلّة ليست للعبور فقط فهي تؤدّي مهمّات

Twitter: @ketab_n

أخرى، فالجسر العتيق تحديداً، مسرح للمآتم الشيعية، حيث تمثل عليه واقعة وفاة الحسن بن علي، وما تبقّى في الذاكرة من ابطالها مثل الحرّ الرياحي، الذي كان يرتدي، ولسبب لم أعرفه حتى الآن، خوذة شرطي المرور القديمة. نصف الكرة البيضاء تلك، والتي تعتليها نبلة رمح مدببة لامعة. ولسبب لم نعرفه أيضاً كان الحُرّ يرتدي معطف طبيب على بنطلون داكن.

الحرّ الرياحي كان يحمل حقيبة وهو على حصان غالباً ما يحرن حين يصل منتصف جسر الحلّة العتيق.

ما يحصل لحصان الرياحي سببه، على الأغلب، الصراخ الجماعي للنائحات، وهو صراخ داوٍ لم يتعوّده حصان فكّه صاحبه من عربة (رَبَلْ) أوقف واردها ذلك اليوم إلى أهل البيت.

كان الجسر العتيق، ممرّاً واحداً، ذهاباً وإياباً، فالجسر ضيّق ومزدحم صباح مساء، الأمر الذي جعل وجود منظّمٍ للحركة ضرورة لمنع التقاطع والتدافع وما يعقبهما من تطوّرات قد تتّسع أو تنكمش حسب حالة روح التسامح في يوم التنازع على اولوية العبور.

منظّم الحركة (أو الجسّار)، كانت له غرفة في الصوب الكبير، لا يغادرها إلّا حين يشمّ رائحة الإشكال الذي غالباً

Twitter: @ketab_n

ما يبدأ بإطلاق الهورنات العالية من سائقي السيارتين يعقبها خرطوش من شتائم لا تتوقّف.

هنا يظهر ضابط الجسر معلناً تدخّله بصافرة معدنية طويلة، فيذعن السائقين ويفسح أحدهما الطريق للآخر.

السائقان عادة، واحد يأتي من الصوب الصغير ومعاكسه من الصوب الكبير.

منظّم الحركة على الجسر كان اسمه عبد الرضا السلمان. نحيل وطويل، يضع العقال واليشماغ (الكوفية المرقّطة بالأبيض والأسود) ويرتدي سترة على دشداشة غالباً ما تكون بيضاء.. قليل الكلام وميّال للعزلة.

ما أن تنكسر شمس منتصف النهار، حتى يقفل السلمان باب غرفته الخشبي الحائل، عابراً جسره، متأبّطاً عباءته المطويّة بعناية، متوجّهاً إلى (الوردية) غير البعيدة، إلى بيته في زقاق السرحة حيث يعيش بلا زوجة أو أبناء.

زهرة السلمان، الأرملة اللاذعة اللسان والنظرات، شقيقة الحاكم بأمر الجسر وشريكة عزلته.

ما لم تنسه الحلّة عن عبد الرضا السلمان، تقديمه عرضاً موسمياً يتناقض وميله للصمت والاعتزال. يبدأ العرض الذي يختبئ وراء حجّة (الاحتفال) بثبوت رؤية هلال العيد، حين

Twitter: @ketab_n

يصعد إلى السطح المظلم ويبدأ حفلاً ساهراً من إطلاق النار المتواصل الذي يكون دائماً أوّل من يبدأه وآخر من ينتهي منه.

غير العارفين بالسلمان يستغربون احتفاليته الحماسية فعلاقته بالعيد، مثل علاقته بباقي المناسبات الدينية، فهي ليست بالقوة التي تتناسب وكمّية الرصاص المطلق.

لا يستغرب العارفون به الأمر، فهم يدرون أنّه يعمل في تجارة السلاح المهرّب قبل أن يتحول العراق إلى دولة أمن ومخابرات.

كان السلمان لا يفوّت أيّة فرصة للتأكّد من صلاحية البنادق والمسدّسات وباقي عائلة الأسلحة المخبّأة تحت مفارش الأسّرة وبين عوارض السقوف التي لم تكن إلّا جذوع نخيل يحمل سعفاً يابساً يغطّيه قماش أبيض. إنّه باختصار، المخبأ المثالي لاسلحة السلمان.

سقوف الحلّة القديمة، لا تذكر إلّا ويذكر معها حسين الهِبِشْ.

كان الحلّاق الأشهر في الصوب الصغير، وتحديداً في أول السوق. الحلاقة لم تكن تأخذ من وقته طويلاً، فليس أمام الزبون إلّا (تسريحتين) الأولى على الصفر، وبالموس، والثانية (مجيدي) أو (أبو طاسة) حيث يدخل الهِبِشْ رأس الزبون في طاسة معدنية ثم يزيل الشعر من كلّ المساحة الباقية خارجها.

Twitter: @ketab_n

فيما تبقّى من يومه يعمل الهبش في إخراج الأفاعي من السقوف القديمة، وفي وقت فراغه يمضغ زجاجات المرطّبات الفارغة، بما فيها كعوبها السميكة.

ذات نهار أرسلت في طلبه امرأة من (الهيتاويين) تعاني من أفعى تتحرّك ليلاً في سقف البيت.

مد يده، وبعد دقائق سحبها ممسكاً برأسها. دسّها في كيس من خام ابيض يحمله معه لمثل هذه المهمات، نازلاً من على الطاولة المتأرجحة التي أصعدها على سرير النوم ذو الأعمدة من أجل أن يطال الأفعى.

من وراء الباب سألته صاحبة البيت عن الأجر الذي يطلبه فردّ بينما كان يراقب حركة الأفعى في الكيس:

- نص دينار.

- ليش يما حسين.. مو هواية؟

لم يجب الهبش على طلب التخفيض، مدّ يده في الكيس، أخرج الأفعى وأعادها من حيث أنزلها. عدّل وضع دشداشته، سوّى أكمامه المثنيّة وتوجّه إلى الشارع:

- انتي طلعيها.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

لا عمر محدّد بدقّة لجسر الحلّة الجديد الذي كان بينه وبين العتيق اختلافات. أوّلها أن ليس له ضابط حركة مثل عبد الرضا السلمان. فقد كان عريضاً بما يكفي لسيارتين متعاكستي الاتجاه، ولم يكن حوله أو تحته باعة الفجل الذين يضعون أحمالهم قرب الماء لغسل الرؤوس المنزوعة من الأرض قبل ساعة أو أقلّ، بليف النخيل، ليذهب عنها الطين ويحلّ محلّه بياض أنصع من قلب النخلة.

أثناء الغسيل، يتسلّل ماء الشطّ إلى مسام الأوراق العريضة فتستيقظ من ذبولها ريّانة مترعة.

ينتهي الغسيل فيصعد الباعة بأكداس الفجل محمولة في سلال عريضة مصنوعة من أغصان الرمّان الطريّة المجدولة. يحمل كلّ واحدة منها اثنان من الباعة، نساء أو رجال كلّ واحد يمسك عروة من عروتاها.

على مدخل الجسر، وتحت شجرة توت عامرة يصفّونها مغطّاة بالخيش المبلّل بماء الفرات.

Twitter: @ketab_n

الفجل موعده العصر، وما بعد الغروب بقليل، يعود الباعة والبائعات إلى بيوت تنتظرهم. ومع خطواتهم، تسمع صوت الخردة وهي تطقطق في جيب (الصفحة) مع حركة الدشاديش المبلّلة بماء الفجل.

كان من النادر أن ترى حلاوياً عائداً إلى بيته في المساء دون أن تتدلّى ضمّة الفجل من إحدى يديه، مربوطة بخوصة من سعف أخضر.

البعض منهم لم يكن صبوراً بما يكفي فيذهب في قضم الأوراق قبل أن يصل البيت.

الجسر الجديد كان (أكبر) من أن ينشغل بالفجل والفَجّالة. فقد أدخل الحلّة عصر الميكانيك كونه جسراً متحرّكاً قابلاً للانفتاح من أجل مرور السفن.

كلمة السفن، ينبغي أن لا تذهب بسامعها أبعد مما ينبغي، فهي لم تكن سوى سفن حمل مسطّحة لا تمرّ إلّا مرّة أو مرّتين في السنة ولها حمولة لا تتغيّر.

الحمولة هي جذور السوس التي لم أعرف حتى الآن من أين تأتي بها السفن وإلى أين تأخذها.

آخر سفينة رأيتها في نهاية الستّينات، بعدها لم يفتح الجسر أبداً، فقد قرّر هاشم قدوري، محافظ الحلّة، تقمُّصْ شخصيّة الخليفة عمر بن عبد العزيز فنزل بالحلّة ضرباً بالمشاريع مستهدياً بحمّى شعارات أطلقها صدام حسين يوم كان نائباً.

Twitter: @ketab_n

كان أسفلت الجسر غالباً ما يتحوّل إلى حفر تسبّبها الشاحنات القادمة من بغداد، العابرة إلى كربلاء والنجف والديوانية، ولتكرار تصليحها من دون فائدة، قاد قدوري بنفسه هجوماً بالأسفلت بدأ ليلاً، وانتهى مع الفجر وقد زاد سُمك الجسر نصف متر، هي كمّية الأسفلت التي أخمدت أنفاس مكائن فتح الجسر إلى الأبد.

ما أن طلع الصباح حتى استبدل الحلاويون اسم الجسر الجديد بالجسر (الثخين).

فترة تثخين الجسر هي ذات الفترة التي توهّم فيها صدام حسين أنّه مفكّر عظيم، والسبب عقدة البعثيين الدائمة التي تلازمهم وخصوصاً أمام خصومهم الشيوعيين وهي أنّهم حزب لا علاقة له بالثقافة، فقرّر صدام أن يصبح (منظـّرا) فأمطر العراقيين بالخطب والكرّاسات التي انهالت على رؤوسهم متحوّلة إلى لافتات استهلكت ربع القماش الأبيض في السوق.

وهم الثقافة وتوهّم المثقّف الأوّل، تحوّل إلى عبارات على البعثيين أوّلاً ثم على من تبقّى من العراقيين، حفظها عن ظهر قلب.

من بين هذه العبارات (لا تدع ظلّك يغيب عن مكان عملك) و (عرق التدريب يقلّل من دماء المعركة) و (العراقيون بعثيون وإن لم ينتموا) وغيرها من العبارات التي كان من بينها

Twitter: @ketab_n

(نعمل بالممكن على أن لا ننسَ الطموح). وهي عبارة سقطت في ألسنة الحلاويين فأدخلوها بين الجسر الثخين والمحافظ.

كان لمدرسة قرية (الجـمجِـمة) مديراً دبقاً عرف بمحاولة التسلّق والوصول على أساس الولاء (للثورة والحزب). وحتّى يبدو أمام هاشم قدوري أن لا ليله ليل ولا نهاره نهار، ركب درّاجته الهوائية السوداء من قرية الجمجمة التي تبعد عن الحلة عشرة كيلومترات على الأقل، متوجهاً إلى الجسر الجديد حيث يقف المحافظ قدوري على رأس العمّال ومعه المسؤولون المتثائبون تحت أضواء كاشفة لم تر الحلّة مثلها قبلاً.

كانت الساعة الثالثة فجراً، هاشم قدوري وصلت به الحمية الوطنية إلى حمل الكرك و(فرش) الأسفلت بيديه.

حسين، المدير المتفاني القادم من الجمجمة، يزخّ عرقاً ويتشبّث في عزّ الصيف بربطة عنق عليها كلّ أنواع البقع الممكنة، من دهن الدرّاجة الهوائية حتّى مرقة البامية التي كانت فرضاً يومياً على مائدة بيت المدير حتّى حلول الشتاء.

المحافظ رفض مقابلته والحرس رفضوا السماح له بالمرور، فالجسر منطقة حربية.

المدير لم يذعن وواصل التوسّل بعد أن أبلغ برفض المحافظ مقابلته، متعلّلاً بأنّ الأمر ضروري وضروري جدّاً، عاد أحد الحراس إلى المحافظ الغاطس بالأسفلت بطوله الفارع، قائلاً بتردّد:

Twitter: @ketab_n

- سيدي، هذا حسين يقول الشغلة ضرورية.

توقّف قدوري عن جرف الأسفلت وقد احمرّ وجهه، فاحمرّت وجوه كلّ المسؤولين الغارقين في الأسفلت خصوصاً أنّ العرق ينزل من جباههم أنهاراً أنهاراً. نفخ نفخة تدلّ على أنّ صدره قد ضاق بمدير مدرسة الجمجمة الابتدائية:

- هذا المطي ميفتهم.. روح گله خلي (يشتغل بالممكن بس لا ينسى الطموح).

كان هاشم قدوري محافظاً على قياس ألسنة الحلاويين فحوّلوه إلى مسلسل يومي يتداولوه في المقاهي بالصوت الهامس الذي تعقبه الضحكات العالية، هذا المسلسل لا أحد يعرف صحّة أحداثه من عدمها، وبشكلّ أدقّ، لم يكن هناك من يأبه إذا كانت الرواية قد حدثت فعلاً أم ألّفها أحدهم. المهمّ هو إنزال المحافظ من عليائه وإدخاله مروحة الألسن.

سمع قدّوري ذات مرّة، أنّ مطاعم الحلة لا تراعي شروط الصحّة. فقرّر، وعلى طريقة ولاة القصص وملوكها، أن يتنكّر ويذهب للتأكّد من الأمر بنفسه.

لبس دشداشة فلّاح حديقته المرقّعة، وفوقها سترة الفلاح نفسه التي لم تكن أحسن حالاً من دشداشته، ثم تلثّم باليشماغ الأسود، وضع نظّارة سوداء، تحزّم، ثم دخل إلى مطعم عيسى، المطعم الأكبر في الحلّة، أخذ ركناً ثم نادى من يُدعى

Twitter: @ketab_n

بالسفرچي، وهو من يأخذ الطلبات، والأخير وقف على رأسه ثم بدأ بالسرد السريع للأطباق المتوفّرة:

- يابسة، أسود، تشريب، قوزي، گص، گص على تمن، تكة، كباب، معلاگ، چلاوي....

ضاق هاشم قدوري بالسفرجي، فقال متأفّفاً وهو يحاول تصنع لهجة الريفي:

- انطينا نص كباب.

استدار السفرچي نحو جهة المطبخ وهو يطقطق بالملاعق صارخاً:

- نص كباب للسيد المحافظ.

Twitter: @ketab_n

لم تعرف الحلّة أيّة ريح حملت محافظها إلى بلغاريا، ليعود منها ليدلي بتصريحه الشهير:

- والله لأسوي الحلّة صوفيا.

تنفيذ القسم ابتدأ باحصاء الفِلَكْ (الدوارات) وتقاطعات الشوارع والأماكن التي اعتبرها هاشم قدوري مهمّة. ابتداءً من بيته في (حي بابل) وانتهاءا بمقرّ الحزب أمام نادي الضبّاط القديم، مروراً بنقابات البعث واتحادات طلابه.

بعد الإحصاء، جمع المحافظ ما تيسّر له في ذلك اليوم من مدراء الحلّة العامّين ورئيس بلديتها، وطلب معهم نقيب الفنانّين الذي وصل مبنى المحافظة بوجه مصفرّ. صحيح أنّ المحافظ تحوّل إلى (مسخرة) لكنّه مؤذٍ ويخيف.

في ذلك الاجتماع قال قدوري مقولته الشهيرة:

- أريد بكل مكان من هذي المكانات تمثال.. ويوم السبت أريد نمونات التماثيل هنا.

Twitter: @ketab_n

أشار بالسبّابة الضخمة (كان هاشم ضخماً) إلى أرض مكتبه، ثم التفت إلى نقيب الفنانين:

- سمعت شاكر؟؟

كان النقيب هو الرسّام شاكر نعمة الذي لم يدع حائطاً في الحلّة من دون أن يرسم عليه صورة لصدام وعلى جانبيه أهداف الحزب الثلاثة الشهيرة والأمّة العربية الواحدة ذات الرسالة الخالدة.

خلال أيّام، انتصبت منصّات الخشب ثم ما لبث الفنانون بشقّيهم، المتحمّسون بإرادتهم والمتحمسون رغم أنوفهم، أن اعتلوا المنصّات لتتضّح بعد شهر تقريباً الملامح الأولى لأكبر كمّية من التشويهات التي أسميت نُصُباً وتماثيل.

على المفرق المؤدّي إلى النجف، نُصُبَ تمثال الأم، وكان لامرأة يقف بجانبها شيء يتّضح لك بعد أن تقترب منه وتتمحّصه، أنّه ابنها.

التمثال أعطي اسماً خلال ساعات من رفع الستار عنه وهو: أم هاشم.

وجه تمثال الأم كان نحو النجف وظهرها باتجاه الحلّة، التمثال وسط ساحة ترابية فيها مقهى اعتاد الملّا محمد علي القصاب (المؤلّف الأوحد لأغاني سعدي الحلّي) أن يجلس فيه بين العصر والمغرب.

Twitter: @ketab_n

صفن الملّا، محدّقاً بعينه الواحدة ثم التفت إلى الجالسين:

- ليش يا هاشم تنطي وجه الوالدة للمشاهدة (للنجفيين) وگفاها للحلّة.. احنا ناگصين شبهة؟؟

مثل كلّ المحافظين، كان لهاشم قدوري سيّارة مرسيدس زرقاء S۲۸۰. في تلك الفترة صدر ما عرف بقانون الكفاءات. وملخّصه أنّ لكلّ صاحب شهادة عالية يقرر أن يعود إلى العراق، الحقّ بأن يجلب معه سيارة من دون جمارك وأثاث بيت وغيرها من مغريات الرفاهية المفتقدة في العراق.

حينها انفتحت خطوط ساخنة بين (الكفاءات) في الخارج وعوائلهم في العراق، من أجل الوصول إلى القرار الحاسم بنوع السيارة التي سترافق (الكفوء) العائد.

كان سوق العراق محتكراً من الدولة ولا سيّارات فيه غير الموسكوفيتش والفولغا والفيات البولندي بمكائنه الحامية و (المبوّخة) في عزّ الشتاء.

بيت كاظم عجام، فتحوا خطّاً ساخناً مع ابنهم اسماعيل في لندن ليزوّدوه بمواصفات المرسيدس التي سيعود بها.

لم يكن قدوري منتبهاً إلى أنّ هناك من يراقب سيّارته من بعيد ولم يكن يعرف أنّ من يتحدّثون إلى سائقه ما هم إلّا أفراد من عائلة عجام الذين كان هدفهم معرفة كلّ تفاصيل السيارة التي تعبر شوارع الحلّة مثل طاووس.

Twitter: @ketab_n

عاد الدكتور الكفوء إسماعيل عجام راكباً نسخة طبق الأصل من سيارة هاشم قدوري.

لم يقف الأمر عند هذا الحدّ، فقد وقّتَ بيت عجام ساعاتهم على موعد خروج المحافظ من بيته صباحاً، ثم عصراً.

ما أن يخرج قدوري من بيته حتّى يرى نسخة طبق الأصل من سيارته تدور حول ساحة الساعة المواجهة لبيته ثم تمضي في حال سبيلها بعد التأكّد من أنّ المحافظ رأى وتيقّن أنّ هناك من ينافسه بالأبّهة ويبزّه في لمعان المرسيدس S٢٨٠.

يومان والثالث، لم يحتمل هاشم قدوري نكاية بيت عجام بهيبته، فأرسل بطلب مدير الإدارة المحلّية.

بعد سيل من الفشار والكفر، صرخ ووجهه محمّر حتّى يكاد الدم يطفر منه:

- روح گوله لهذا القندرة ابن عجام، إذا گرّب يم بيتي راح ارگعة خمسين طلقة. وإذا ما صبغ سيّارته راح أكسرها على راسه وراس اللي جابوه، وهو وكفائته احطه جوه هاي قندرتي.

ثم أشار إلى حذائه اللامع بحجمه الكبير الذي كان يناسب حجم حذاء محافظ بعثي.

أيّام الجبهة التي ضمّت الشيوعيين مع حزب البعث على

Twitter: @ketab_n

أساس المشاركة في الحكم (اتضح بعد ذلك العكس)، حدث أن زار أحمد حسن البكر (الرئيس آنذاك) الحلّة، وطار فوقها بهليكوبتر، ليشرف على أحوال الشعب من اعلى نقطة ممكنة.

يومها كان هاشم قدوري رفيق تلك الرحلة الرعوية.

بعد أن عاد إلى الأرض سارع إلى عقد اجتماع للجنة الجبهة في الحلّة، وراح يسرد لهم تفاصيل ما جرى، حتّى وصل إلى ذروة التجلّي وهو يروي ما قاله البكر حين كان ينظر إلى بيوت الحلة.

نظر إلى الجالسين وقال بصوت يبدو أنّه لا يستخدمه إلّا في مثل هذه المناسبات:

- تدرون شگال أبو هيثم؟

- ....

- گال، تدري شنو أتمنّى هاشم.. گتله شتتمنى سيدي.. گال اتمنى أنام وأگعد واشوف على كلّ سطح من هاي البيوت أريل تلفزيون.

ساد الصمت ولم يعلّق أحد. أمّا هاشم قدوري فقد فتح عينيه على آخرهما (كان معروفاً بمثل هذه الحركة)، ثم وجّه الكلام إلى ممثّل الحزب الشيوعي:

- شو ما حچيت ولا كلمة.. هذي لو گايلها لينين چان سويتو عليها خمسين كتاب.. كلّ كتاب، هالگده.

Twitter: @ketab_n

ثم باعد بين يديه بما لا يقلّ عن خمسين سنتيمتراً، إشارةً إلى سماكة الكتاب.

حتّى الآن لم أجد إجابة على سؤال متعلّق بذاك المحافظ، أكان يشبه الحلّة أم الحلّة هي التي كانت تشبهه؟

ذات رمضان أصدر قدوري فرماناً بمنع شرب العرق قبل آذان المغرب أي قبل الإفطار.

و كلمة العرق مقصود بها هنا كلّ ما له علاقة بالمشروبات المدعوّة بالروحية.

القرار قصد نوادي المعلّمين والمهندسين والموظّفين وغيرها من منافذ تفريج الهموم في الحلّة.

تنفيذاً للقرار، صار الحلاويون يتوجّهون قبل الآذان لينتشروا في حدائق النوادي متحلّقين حول طاولاتهم المعتادة، محدّقين بالكؤوس المترعة وصحون المزة الفقيرة.

ما أن يرتفع الآذان حتّى ترتفع الكؤوس لتعود إلى الطاولة أقداحاً فارغة والآذان لم يزل في منتصفه.

ذهب أحدهم إلى المحافظ هامساً بأذنه الطويلة كما كلّ أعضائه الباقية، أنّ الأمر خادش للحياء الديني. الطاولات عامرة بالكؤوس والسائل الأبيض واضحٌ جهاراً نهاراً، فما كان من هاشم إلّا أن أصدر أمراً بمنع أقداح الزجاج التي تشفّ وتفضح ما في داخلها واستبدالها بأقداح البلاستيك المعتمة.

Twitter: @ketab_n

الصنف المطلوب من الأقداح لم يكن متوفّراً، فاستخدمت بدلاً منها (الدولكات) التي انتشرت على الطاولات، فأصبح للندامى كأساً هائل الحجم له مقبض، ما أن تغيب الشمس حتى تمتدّ إليه الأيدي لترتفع (الدولكات) مع الآذان ولا تنزل إلّا بانتهائه.

على الرغم من عدم إضاعته لأي ليلة من دون أن ينهي (نص العرق) في نادي الموظّفين المقابل لبيته، لم يكفّ المحافظ قدوري عن مطاردة أهل المدام من الحلاويين، خصوصاً ذوي الدخل المحدود منهم، من شارع إلى شارع مضيّقاً عليهم الخناق لسبب لم يعرفه أحد.

من بين قرارات المحاصرة، منع قدوري الحلاويين من افِتراش عشب الضفاف البارد والشرب على الشطّ.

ولأنّ بيتنا لا يبعد عن الضفّة أكثر من خمسين متراً، كنت حين أمرّ على الشطّ، أتلقّى غالباً طلبات من هذه الجماعة أو تلك باسناد وضع المّزة المترنح بشئ من الطرشي أو الروبة أو أي شي متوفّر في مطبخ البيت اختطفه عائداً به إلى الندامى المنتظرين.

هذه المجموعات ثابتة الأسماء والمواقع. كان أصغرها من اثنين اعتادا أن يجلسا قبالة البيت هما كاظم الشهير بـ (أبو دليَوْ) و هاشم أبو الدهين.

الأوّل شقاوة (فتوّة) متقاعد تتناقل الحلّة عنه حادثة

Twitter: @ketab_n

شهيرة، تلقّى فيها طعنة (قامة) في بطنه فنزلت أمعائه، فما كان منه إلا أن سحب اذيال دشداشته ليصنع منها (شليل) وضع فيه أمعاءه ثم انطلق راكضاً إلى المستشفى الجمهوري.

أمّا الثاني، وهو هاشم ابو الدهين، فهو الشقيق الوحيد للمغنّي الشهير سعدي الحلّي.

مررت بمحاذاتهما، ألقيت السلام ثم ملت يساراً نحو البيت، خطوتان وسمعت صوت أبو دليو:

- ابن عمي... بروح ابوك.. المزة قصّرت.

عدت بعد قليل حاملاً خياراً مخلّلاً وباذنجاناً محشيّاً مربوطاً بخوص النخيل.

تفاجأت باختفاء قنينتي العرق وباتخاذ كاظم أبو دليو وهاشم أبو الدهين وضعيّة الصيادين، مدليان بأرجلهما في الفراغ بين الماء والجرف، وكلّ منهما ممسك بخيط من النايلون الأبيض.

حين رأياني تلفّتا يميناً نحو شرطيين يبتعدان بخطى بطيئة ليغيبا في ظلام الطريق الضيق متشابك الأشجار، ولأنّ هاشم لا يرى حتّى في النهار قال كاظم وهو يسحب خيطه:

- اسحب هاشم.... راحو.

سحب كاظم خيطه وتبعه هاشم أبو الدهين فظهرت القنينتان مربوطتان في نهايتهما.

Twitter: @ketab_n

سألت كاظم بنفس صوته الخافتة:

- منو اللي راحوّ ابو جواد؟

أجابني وهو يفتح قنينته، مادّاً يده ليأخذ صحن الطرشي:

- خفر السواحل ابن عمي.

حينها عرفت أنّ المحافظ سيّر دوريات من الشرطة الراجلة لمنع الشاربين من تحويل ضفاف شطّ الحلّة إلى مشرب شعبي من المؤكّد أنّ عمره (أي المشرب) بعمر الخمرة التي اخترعها بابليون حاولوا أن يخفّفوا من وطأة التسلّط عليهم ثمّ على حفيديهما، هاشم أبو الدهين وكاظم أبو دليّو.

الطبيعي والمتوقّع أنّ لا أحد يمكن أن يعترض على قرار لقدوري، فهو الحكومة، ومن يعترض على حكومة بعثيين؟

مع ذلك حدث هذا الأمر مرّة حين اعترضت الحلّة، بل وتظاهرت.

من دون سبب، أصدر المحافظ هاشم قدوري أمراً بمنع عبور العربات التي تجرها الخيول (الربلات) على الجسر وحصرها في الصوب الكبير.

يومها، ومن مدينة الثورة مهد العربانات والعربنچية، انطلقت أوّل وآخر مظاهرة معارضة (حتّى عام ١٩٩١).

مطلّقات وأرامل، متزوّجات حديثاً وزوجات ملَّ منهنّ

Twitter: @ketab_n

ازواجهن، متلصصات على الجيران ومتباطئات في نشر الغسيل على السطوح، أمّيات وقارئات بصعوبة، نمّامّات ومتمنّعات عن الخوض في سيرة الناس، بنات بضفائر وبنات بشعر كوّرهُ الإهمال وانشغال الأم في حرب الحياة ومرارتها.

أطفال وفتيان، كهول وشيوخ، رجال بعكازات ورجال بقوّة أرجلهم، حفاة ومنتعلون، حاسرون وملثّمون، درّاجات، خيول بعربات، عربات بلا خيول، وخيول طليقة لا يقودها أحد.

هكذا خرجت مظاهرة العربنجية قاطعة طريق كربلاء، مثيرة الغبار والاستغراب، حتّى وصلت المحافظة ليصعد المتظاهرون من قرع القدور والصحون المعدنية.

ما أن وصلوا حتى هجمت عليهم قوّة من ثلاث جهات تشبعهم ضرباً وركلاً على الاجسام والرؤوس لينتهي نصف الرجال في سجون الشرطة والأمن الملاصق مبناه للمحافظة. ونصفهم الآخر عبَرَ الشط في ذلك الشتاء القارس ليختفي بين بيوت وبساتين الصوب الصغير.

النساء بقين في مكانهنّ وقد فرشن عباءاتهنّ أمام المحافظة، متلفّحات بالدموع، غير عابئات بأكثر الشتائم بذاءة.

Twitter: @ketab_n

الأمازون تمطر في المحطة

وأنت قادمٌ من بغداد، تجتاز مدن الطريق واحدة تلو أخرى. بعد المحاويل بعشر كيلومترات، ينعطف الطريق يميناً فتقطعه سكّة القطار.

ما أن تعبر السيارة الانحناءة حتى تحسّ أنّك دخلت الحلّة، أو وصلت الحلّة... لا فرق.

إن كنت تراها للمرّة الأولى، سيدير رأسك (سايلو الحبوب. أسطوانات عملاقة (ستٌ على ما أعتقد) مقسومة إلى نصفين يفصل بينهما فراغ من فضاء مستطيل.

صوامع الحبوب هذه، تهيمن على الفضاء مثل كائن خرافي يمرّ به قطار الحمولة كلّ يوم ليسحب بالخراطيم العجيبة أطنان الحنطة، مالئاً بها قاطرات الشحن التي ما أن تمتلئ حتّى يجرّها قطارها إلى حيث لا يعرف الصبية الناظرون إليها باهتمامٍ وصمت من وراء الاسلاك التي تفصل السايلو عن بيوتهم القريبة.

لا يفصل بين هذا المبنى ومحطّة القطار غير مئات الأمتار.

Twitter: @ketab_n

المحطّة، هي مبنى من طابق واحد محاط ببيوت السكك التي بناها الإنكليز لتلتقي وبيوت لندن في المساحة والحديقة الأمامية الصغيرة، وبانعدام وجود سور حولها، بل صفوف من أشجار الآس الخضراء على مدار الفصول.

المحطّة، موطن أحلامنا الصغيرة، نخترق الشوارع ليلاً لننتهي على مصطبة من مصاطبها معطين وجوهنا للقطار المنتظر وظهورنا للمبنى الرسمي، حيث غرفة الناظر وشبّاك التذاكر وغرفة (المقصجية) ومفردهم مقصجي، وهو الرجل الذي يحوّل اتجاهات السكّة والقطار بسحب الذراع ذي القبضة اللامعة.

على مصاطب الخشب، كنّا ننتظر بصمت، القطار النازل نحو البصرة (القطار المتّجه من البصرة إلى بغداد يسمّى الصاعد)، قبل أن يدخل في مسافة النظر يسبقة المنبّه الرخيم، وما هي إلّا ثوانٍ حتّى يشقّ الظلام ضوؤه المستدير المشعّ.

هنا، تتحوّل المحطّة إلى عالم آخر ينفض عنه السكون ويبدأ كل شيء فيه بالحركة. الباعة بأطباقهم الواسعة المنسوجة من الحلفاء، حامل إبريق الشاي العملاق المختفي لونه تحت سخام النار، بائع المجلّات الذي حوّل كتفه الأيسر إلى واجهة عرض رصّ عليها المجلّات متدرجة، العربات التي لا تصل الرصيف إلّا بعد كرّ وفرّ والتفاف على موظفي المحطّة، وبين هذا الجمع المتضارب يمرّ الـ (تي تي).

Twitter: @ketab_n

إنّه قاطع التذاكر ومفتّشها، سمّي هكذا منذ أيام الإنكليز الذين اختصروا كلمتي TICKIT TAKER بحرفيها الأولين اللذين تركاهما وراءهما للـ (تي تي) مع الصافرة والحقيبة الجلدية المعلّقة بكتفه.

في محطة الحلة، وكما كلّ محطّة للقطار، كانت توجد غرفتين خصّصتا، منذ مُدّت أوّل سكّة حديد، لاستراحة الملك فيصل، وكان فيهما طبّاخاً هندياً اسمه (بيكا).

أطيح بالملكية في ١٩٥٨ فأطيح باستراحة الملك ومعها طبّاخها الذي لم يهن على محطة الحلّة فأعطته عملاً بسيطاً وابقته في بيت السكك، لأنّه (غريب) ولا يصحّ أن (يتهجول) أي يتشرّد، كما ساد العرف في العراق إلى أن صارت حكومة البعث تأتي العراقيين بملايين الغرباء الذين حوّلوا العراقيين إلى مواطنين من الدرجة الثانية، فانقلبت الأعراف و(تهجول) العراقيون.

من منزله، صار (بيكا) يجهّز أعراس الحلّة ومآتمها وولائم محافظيها ومدراء شرطتها وأمنها، بالخرفان النائمة على تلال من الأرزّ الأصفر واللوز والكشمش.

استمرّ على هذا الحال عقوداً، وحين بلغ عقده السادس قرّر، وهو الهندوسي، أن يعتنق الإسلام، فحجّ إلى مكّة وغيّر اسمه ليصبح أحمد بدلاً من بيكا.

Twitter: @ketab_n

حين عاد من الحجّ استقبلته المحطّة بأحضان الإيمان فأقام للحلاويين وليمة قوامها ثمانية خرفان، ووقف في باب بيته مستقبلاً المعزومين بالدشداشة البيضاء والنعال المكّاوي والعرقجين، ماداً يده للمصافحين والمسبحة الخضراء المضيئة في الظلام تتدلى من ساعده الأيمن.

كان الوافدون يقبلون بالابتسامة العريضة، ليأخذوا الرجل بالاحضان رافعين صوتهم:

- سعيكم مشكور حجّي أحمد.

بعد أن أطاح هؤلاء بالخرفان من علياء جبال الأرزّ الأصفر، ومدّوا أكفّهم حتّى نهاية الأصابع في صحون المرق الدسم، شربوا استكاني الشاي المقرّرين وآن أوان المغادرة.

حجّي أحمد، قفز خفيفاً إلى الباب ليودّع أخوته في الإسلام لكنه لم يجد نفس الأحضان التي تلقّفته قبل العشاء، بل وقف ساهماً يتلقّى. إشارات وداع من بعيد وخطى مسرعة يلقي أصحابها سلام الوداع بصرخة عالية:

- في أمان الله (بيكا)... انشاءالله العودة.

على يمين المحطة (باتجاه البصرة) ينتصب في منتصف الرصيف مكعّب من الأسلاك الحاجزة (ربّما كان لونها أخضر)، يتوسّطه أنبوب مجوّف عليه أرقام وخطوط، وبجانبه أنبوب رفيع ينتهي بقضبان على شكل (+) لحمت على نهاية كلّ طرف منه نصف كرة معدنية.

Twitter: @ketab_n

لم يكن أحد يحفل بهذه الآلات، وأكثر الأجوبة وضوحاً على سؤال عن وظيفة هذه الأشياء الغريبة يمكن أن يأتيك من مدّعي معرفة يقول وهو يهرش فروة رأسه:

- إنّها من غراض الحكومة.

بقيت هذه الآلات (غراض حكومة) حتّى وصلنا إلى الصف الرابع الثانوي حين فاجئنا استاذنا عدنان إبراهيم الذي يفضّل استخدام الفصحى دائماً، بأنّ هذا الجهاز المعقّد الذي يؤشّر على صورته في الكتاب، أنّ لدينا واحداً منه في الحلة.

زيادة في التأكيد، حدّد مكان وجوده وهو المحطّة لنعرف أنّه ذات الأنبوب المرقّم ومروحة أنصاف الكرات التي نمرّ بجانبها كلّ يوم تقريباً.

كان الأنبوب لقياس معدّل الأمطار ومروحة أنصاف الكرات لقياس سرعة الريح.

بعد أن انتهت همهمة الصفّ وتعريف من يعرفوا المكان لمن لا يعرفوه، قال الأستاذ بهدوئه المعهود:

- لكنّ الحلّة لا ينفع معها علم ولاهم يحزنون.

- ....

- ذات يوم فوجئ موظّفو الأرصاد بأنّ نسبة الأمطار في الحلّة تفوق نسبتها في غابات الأمازون.

Twitter: @ketab_n

هذه القياسات تكرّرت مع كلّ (مطرة) وحين أُسقِطَ في أيديهم، تناوبوا على مراقبة الانبوب ليكتشفوا أنّه كلّما أمطرت السماء، يتسلّل أحد الخبثاء ليبول في الأنبوب مصعّداً معدّلات الأمطار بما يختزنه في مثانته، خزاه الله وأخزاكم.

أرجو أن لا تحاولوا تقليد هذا الخبيث وتحاولوا تضليل الأنواء الجويّة، لأنّ صاحبنا أكل شهر حبس وعدد من الخيزرانات تكفي ظهور طلّاب هذه المدرسة بصفوفها الصباحية والمسائية.

من نفس المحطة، مرّ قطار الموت ذائع الصيت عام ١٩٦٣، حين عبّأ البعثيون عربة الحمل الحديدية بعشرة أضعاف ما تسع من الشيوعيين في لهيب تمّوز على أمل أن يموتوا وهم في الطريق إلى السجن الصحراوي في بادية السماوة، نقرة السلمان.

الشيوعيون لم يمت منهم أحد.. فوصلوا كاملي العدد إلى سجن نقرة السلمان في أبعد أعماق صحراء السماوة اللاهبة.

Twitter: @ketab_n

حلّة الحامية

لواء المشاة التاسع هو الاسم العسكري لما تعرفه الحلّة بـ (الحامية).

إنّها الوجود العسكري الوحيد في الحلّة. لكنه كان كافياً لتغيير معالمها حين (ينزل) الجنود إلى المقاهي والسينمات، متحلِّقين حول عربات اللبلبي والشلغم والدوندرمة، إن حلّ الصيف القائظ.

هذا حين كان الجنود بلا حروب ولا فِرَق إعدام تلاحقهم أو مخبرين يحصون أنفاسهم.

لم تكن كلّ مقاهي الحلّة مفتوحة لجنود الحامية، فبعضها ممنوعة لسبب في علم الاستخبارات العسكرية، أمّا المسموح بها فتُعلّق لوحة يتوسطها حرف (ج) كبير له شكل هندسي غريب كتبت تحته عبارة: مسموح بجلوس العسكريين.

العسكريون لا يجلسون، بل يملأون المقاهي صخباً وصراخاً، متحلّقين حول طاولات الدومينو ضاربين قطعها البيضاء على طاولات (الفايبر) الأسمر بالقوّة القصوى،

Twitter: @ketab_n

متبادلين نعوت الإذلال للخاسر والاتهامات بالغشمنة والغباء بلهجات مدن العراق المختلفة، كلّ حسب قاموس المدينة التي جاء منها.

في السينمات يختلف الحال العسكري، فللجنود في الغالب مقاعد (أبو السبعين) وهي فئة غريبة اذا ما عرفنا أنّ مقاعد الفئة الأولى في الحلّة هي (أبو التسعين) ومقاعد من لا فئة لهم وهي (أبو الأربعين) والأرقام هنا تعود لعدد الفلوس.

أمّا ابو السبعين فهي لا لهؤلاء ولا لهؤلاء، لهذا السبب لا أحد يختارها إلّا الجنود....

جنود الحامية، حامية الحلّة.

هؤلاء لا يهمّهم الفيلم، فهم يغادرون معسكرهم ومعهم نيّة دخول السينما أي كان الفيلم، لذا غالباً ما يناموا مخدّرين بهواء المراوح الضخمة وأكياس الباقلّاء واللبلبي وقناني الكولا بأنواعها.

ما بين المقهى والسينما، والسوق في بعض الأحيان، يمضي الجنود حاملين بيرياتهم (قبّعاتهم العسكرية) بأيديهم، وحين يلمحوا بيرية الانضباط العسكري الحمراء من بعيد يسارعوا إلى وضعها على رؤوسهم ثم تعديلها، عائدين إلى مشية الجندي المنضبطة.

نصف الراتب الشهري على الأقل يذهب ثمناً (لنزلة الخميس هذه.

Twitter: @ketab_n

الراتب الشهري لجندي الحامية، وكلّ جنود العراق المكلفين، ثلاثة دنانير وربع الدينار.

كانوا جنوداً سعداء، أجل سعداء، مقارنة بما آل إليه حالهم حين صاروا يعودون إلى بيوت أهلهم بالتوابيت العارية بعد أن نفدت أعلام الحكومة وخوى سوق القماش من الألوان التي توارت بعد أن تركت الرفوف للأسود.. للأسود فقط.

من الجهة الخلفية، جهة دور نواب الضبّاط كنّا نتسلّل إلى الحامية عصراً، عابرين بأجسامنا الصغيرة أسلاكها الشائكة (لم تكن شائكة فعلاً) قاطعين الممرات المشجّرة لنصل إلى ملعب كرة القدم ماضين في اللعب والصراخ تحت سمع الجنود وبصرهم....

من دون اعتراض.

كان في حامية الحلّة، كما في كلّ مكان يعود للجيش، وحدة للألعاب، وهذه كانت محلّ جذب وشدّ وتنافس يبلغ حدّ التناحر أحياناً.

طرفا الشدّ ضابطان، النقيب كمال توفيق والملازم محمد حسن وتوت.

كمال توفيق كردي من السليمانية، اعتاد أن يقضي عصرياته في النادي البلدي الرياضي بحكم الجيرة وقرب النادي من سكن الضبّاط العزّاب، أمّا محمد حسن وتوت فكان حلاوياً قحاً، شاءت الصدف أن يميل إلى نادي بابل.

Twitter: @ketab_n

ما بين ناديّي البلدي وبابل منافسة وتناحر انتقلا إلى الضابطين.

لأنّ الجندي هو الضحية دائماً في العراق، حوّل الضابطان مجموعة من جنود المدن البعيدة إلى كيس ملاكمة يوجهان إليه قبضاتهما بدلاً من أن يوجّهاها إلى رؤوس بعضهما مباشرة.

هذان الضابطان كانا يلعبان أي شيء، المهم أنّ هناك كرة تتحرّك باليد أو القدم او بكليهما والسبب، ضمانهما المؤكّد لنجومية المباراة، كونهما وكيلين حصريين للأهداف كافة والتسديدات ورميات التماس وضربات البداية والركنيات وكل ما يحلو لهما من باقي التفاصيل المصنّفة تحت عنوان: ألعاب الجيش.

هذا إذا لعبا ضدّ بعضهما البعض، أمّا حين ينفرد أحدهما ضدّ فريق آخر، ولأنّه يكون دائماً من الجنود المغلوبين على أمرهم، فإنّ المباراة تكون مفتوحةً وبلا نهاية حتى يسجّل الضابط هدف الفوز.

كان ملعب كرة القدم في الحامية بلا أنوار. وذات مرّة بقينا نتفرّج على مباراة هبط الظلام عليها، ولم يجرؤ الحكم على إنهائها قبل أن يسجّل محمد حسن وتوت هدفاً راوغ فيه المدافعين الغارقين في الظلام مسدّداً الكرة على يمين حارس المرمى الذي رمى نفسه عليها بعد تأكّد دخولها المرمى وكأنّه يؤدّي دور القتيل برصاص زائف.

Twitter: @ketab_n

على صوت تهليل الفريقين للهدف، عرف الحكم أنّ المباراة حقّقت غايتها لكنّه لم يجرؤ على إعلان النهاية حتّى جاءه صوت الملازم صارخاً من عمق منطقة الجزاء التي لم يعد يراها الحكم:

- صوفرْ حَميد.. صوفرْ.

حينها فقط صفّر حميد معلناً نهاية المباراة التي ابتدأت عصراً وامتدّت حتّى آذان العشاء الذي لم يرفعه أحد.

مباراة الضابط الواحد، وإن طالت، هي الشرّ الأهون إذا ما قورنت بمباراة الضابطين. فهي جحيم الحكّام واللاعبين بنوعيهما، الأساسي والاحتياط. إذ إنها غالباً ما تنتهي بعدد لا بأس به من المسجونين لمدد متفاوتة حسب (الجرم) المرتكب.

التسبّب بركلة جزاء حُكمها معروف وهو سجن اسبوع بلياليه، أمّا الانفراد وعدم التسجيل فيؤدّي إلى يومي سجن فقط.

التمريرة الخاطئة ومراوغة الخصم (لا أحد يجرؤ على المراوغة غير الضابط كون مراوغته فاعلة وغير قابلة للفشل، والسبب معروف)، هذه الأخطاء تنتهي عقوباتها وقت حدوثها وتتنوّع ما بين الزحف على طول الملعب أو الجري حوله عشرة مرّات، أو حركات (ضغط) بحدّ أدنى هو عشرين (ضغطة) وأقصى هو خمسين.

من ثوابت مباريات الضباط أنّ الحكم الذي يبدأها ليس

Twitter: @ketab_n

نفسه من ينهيها، فمع كلّ قرار لا يعجب ضابط، يطرد الحكم ويسلّم الصافرة إلى (حكم) اختاره من بين الجالسين على الخطّ، وان لم يجد من يعجبه فقد يشير إلى أحد لاعبيه بأن يبدّل قميص اللعب ويستلم الصافرة.

كان محمد حسن وتوت، عسكرياً جيّداً وذو لياقة وحضور، أمّا غريمه كمال توفيق فكان مدخّناً شرهاً ولياقتة شبه مفقودة بالإضافة لكونه بيشمرگة نزل من الجبل منذ أكثر من سنتين فهو لم يمارس أي رياضة مثل وتوت، ابن المدينة المستقرّ.

مع ذلك كانت كلمة التفوّق الأخيرة لكمال توفيق كونه نقيباً ومحمد حسن وتوت ملازماً أوّل، فالجيش رتب، و مُلازم لا يفوز على نقيب.

ضابط الألعاب الرسمي هو محمد حسن وتوت، أمّا كمال توفيق، فقد تسلّل إلى رياضة الحامية من باب الهواية، ولأنّ وتوت صاحب الكلمة الأخيرة في ألعاب اللواء التاسع مشاة، وضع القوّة البدنية لجيش الحلّة في خدمة نادي بابل، فكان ينتقي أفضل اللاعبين الذين دفعهم من مدنهم البعيدة نحس الخدمة الإلزامية ليحطّوا في الحلّة فيجدوا أنفسهم طرفاً في معركة لم يختاروها.

أحد هؤلاء الضحايا كان اسمه حميد، بصريٌّ بكل ما

Twitter: @ketab_n

تعنيه الكلمة، أسمر نحيل، طوله فارع، مبتسم أغلب الأحيان، صامتٌ لا يميل إلى النميمة، وهي صفة تشبه في الحلة طيران السمكة او تغريد الكلب.

لم يبرح حميد ذاكرتي أبداً، كنت أراقبه من بعيد، معجباً بصمته وبقدرته على البقاء طويلاً في جلسة ثابتة لا يحرّك فيها ساقاً او ذراعاً، لأعرف بعد أكثر من سنة أنّه قريب من فلسفة هندية قائمة على التأمّل.

بعد أن اقتربت منه أكثر (كان فارق العمر كبيراً بيني وبينه) استغرب أوّلاً ثم اعتاد اهتمامي بما لا يهتمّ به الرياضيون عادة، وهو القراءة، فصرت أعيره الكثير من الكتب التي كان يطلبها بالعنوان، ويصادف ان أعثر عليها في مكتبتنا المنتشرة في كلّ زاوية من زوايا البيت والتي تعود كتبها لثلاثة أجيال من القرّاء، أبي، أخي الكبير، ثم نحن الجيل الأخير.

ذات يوم، عرضت على حميد سندويتشاً، وهذه الكلمة لا تعني في الحلّة غير لحم البقر والصمون.

أحنى طوله، وهمس في أذني حذراً من أن يسمعه أحد:

- آني نباتي.

- ....

حين أدرك الحيرة الواضحة على وجهي، استطرد مستمرّاً بالهمس:

Twitter: @ketab_n

- يعني ما آكل لحم.

بعد أكثر من سنة يبدو أنّه اخضعني فيها لاختبار الثقة أودعني حميد السرَّ الذي يجب أن لا تعرفه الحلّة، لأنّها لو عرفت بالأمر فإنّها ستحوّل هذا البصري الهادئ النحيل إلى حكاية ومسلسل من الحوادث كأن يقول أحدهم إنّه في رمضان الماضي، وبينما هو عائد ليلاً، سمع حركة بين اشجار الحديقة العامة وحين اقترب مادّاً رأسه بين الأحراش رأى حميد يدب على أربع ورأسه غاطس في الحشيش وصرير أسنانه يسمع من بعيد ليتّضح بعد ذلك أنّه يتسحّر مستعجلاً قبل أن يدركه الإمساك.

أمر شبه عسكري، ضمّ حميد إلى فريق نادي بابل بكرة السلّة، واستخدم طوله الفارع ضدّ نادي الفيحاء، الغريم التقليدي، فصار يقف تحت السلة ليتلقّف الكرات العالية ويضعها في السلة أو يحوّلها إلى لاعب آخر ليعود بعد إنجاز المهمة بخطى متثاقلة، للقيام بواجب الدفاع وقطع كرات لاعبي الفريق الغريم.

بينما مدرّجات الملعب تهتزّ تحت أقدام المشجّعين، كان حميد يعيش في عالم آخر بعيد لا يعود منه إلّا بوقوع عينيه على ضابط الألعاب، محمد حسن وتوت الجالس على المقاعد الوثيرة المخصصة للمسؤولين.

Twitter: @ketab_n

بصريٌّ آخر استخدم لصالح نادي بابل، ليس في الكرة، بل في حرب الخطّ والرسم على الحيطان، وهي حرب أشعل فتيلها صدام حسين منذ أن اعتبر أنّ كلّ حيطان العراق لوحة مخصّصة لصوره وأقواله.

صار من النادر أن تجد حائطا في الحلة أو في العراق من دون شعارات البعث وأقوال السيد النائب (كان صدام أيّامها رئيساً بمنصب نائب الرئيس) تتناثر عليها وكأنّها تصدّعات خلّفها زلزال مفاجئ.

فلاح الذي لا أعرف إلّا اسمه الأوّل، ضمّه محمد حسن وتوت إلى الألعاب بعد أن عرف أنه خطّاط، وخطاط ماهر.

المهارة هنا تعني سرعة إملاء فراغات الحيطان التي كان وجودها (أي الفراغات) إشارة إلى نقص في الوطنية قد يؤدّي إلى ما لا يحمد عقباه.

مثل كلّ اللاعبين الحريصين على مرانهم، كان فلاح الخطّاط يواظب على الحضور يومياً إلى نادي بابل، بالملابس الرياضية الكاملة، لكنّه لا يدخل الملعب بل يتوجّه إلى دلو البوية والسلم الخشبي، متعلقا فوقه بصبر ودأب حتّى ينتهي من (الأمّة العربية الواحدة ورسالتها الخالدة)، مرفقة بمجموعة وجوه ومشعل وسعفة.

على عكس حميد، كان فلاح الخطّاط كثير الحركة

Twitter: @ketab_n

والمزاح، ميّال إلى الاختلاط، يستغل أية فرصة نزول من على ظهر السلّم لينضمّ إلى أقرب حلقة حديث، ولأنّ الكلام يجرّ كلام، سألته ذات يوم:

- شجابك على هالورطة؟

- يا ورطة؟

- الخطّ والرسم.. حتّى وجهك مو وجه (أمّة عربية واحدة)؟

تلفت يميناً ويساراً، وأنزل صوته إلى أقلّ درجة ممكنة:

- مواني اللي اجيتها... هي اجتني.

- ....

- أوّل ماجابونا من البصرة، وگفونا استعداد، صاح رئيس العرفاء: منو منكم خطاط....رسام؟

طلعنا انّي وثنين ويّاية، التفت العريف على جندي أول واكف يمه واشرله على الدفتر: - سجّلهم شيوعيين.

آني گلت انعدمنه....

بنفس اليوم دز عليّه ملازم محمد وگلي انتقل للألعاب واشتغل بنادي بابل، ماصدقت فلتت.. هسة لو مو يگلي ارسم نادي بابل، لو يگلي اصبغ الشطّ هم أصبغه.

Twitter: @ketab_n

حين تركت العراق في منتصف السبعينات، كان محمد حسن وتوت من ضبّاط الحلّة البارزين، ولا زلت أذكر حتّى اليوم تقدّمه جنازة محمد كريدي العسكرية، حيث كان كريدي ضابطاً قديماً تقاعد بعد سنين طويلة قضاها معلّماً في الكلّية العسكرية.

يومها تقدّم وتوت الموكب المهيب، بالخطى المستقيمة والسيف اللامع تحت شمس الضحى الشتائي، مبهراً الجمهور على جانبي الطريق بحركة السيف المتعاقبة وكأنّه خرج للتوّ من فيلم روسي قيصري تلتمع فيه السيوف المتدلّية من الخصور في قاعات الرخام الشاسعة والثريّات الذهبية التي تبدو وكأنها نازلة من مكان في السماء لا يعرفه أحد.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

مدرستي الابتدائية، لا أدري إذا ما اقتطعت من متنزّه في صوب المدينة الصغير أم أن المتنزه يحيط بها من جهتين، تاركاً الجهتين الباقيتين لشوارع وبيوت ما زالت تصطفّ في الخيال وكأنها دخلته قبل ساعات.

هذا عن (العدنانية) أمّا (البنين) فهم نحن، القادمون من بيوت أحياء قديمة وبيوت أحياء جديدة، بيوت طين وصرائف قصب، بيوت مُلكٍ صِرْفْ وبيوت إيجار يدفعه ساكنوها بطلوع الروح، بيوت يصارع أهلها من أجل أقساط مصرف الاسكان وبيوت بناها أصحابها طوابقاً من دون أن تهتزّ أموالهم أو تختلّ.

العدنانية هي الحلّة في مدرسة.

لكلّ معلّم فيها حكاية، وللطلّاب حكايات تتداخل وتتشابك صانعة بساطاً من الغيبة والنميمة وصناعة الألقاب التي لم تكن حميدة في الغالب.

مدير العدنانية كان عبد الخالق السبتي، وهو من بين

Twitter: @ketab_n

القلائل الذين عبرت سيرتهم سور العدنانية لتنتشر في الحلّة كلّها.

كان طويل القامة، ضخم الجثة، يضع نظارة طبية ذات إطار أسود على الدوام، لا يلبس إلّا البدلة الكاملة صيف شتاء..... أليس هو المدير؟

عبد الخالق السبتي لم يكن يمشي من دون عصى يؤرجحها بيسراه بينما يمناه في أعماق جيب بنطلونه.

وضع اليد اليمنى الدائم ألصق بالسبتي تفسيراً تبنّاه الطلّاب بلا تردّد، هو أنّه يعاني من حكّة في مناطق حساسة يستخدم لها الجيب ستاراً.

لا تقف سيرة الرجل عند الحكّة هذه، فقد تعدّتها إلى روايات لا أشك أنّ الحلّة تلقّت ربعها وصنعت الأرباع الثلاثة الأخرى.

من بينها، أنّ عبد الخالق السبتي، وفي حفل الآباء والمعلّمين حاول أن يظهر للمحافظ (الذي كان أيامها يسمّى متصرّفاً) ترحيباً خاصّاً، فقدّم له قنينة بيبسي، ولأنّ الرجل (اي المتصرّف) أمين لهيبة المسؤول ونفخته، رفض كرم الضيافة باشارة من يده دون أن يتكلف ويدير وجهه نحو المدير الذي أراد أن يظهر حماس المضيف فاقترب من المحافظ قائلاً بأكثر طبقات صوته أدباً واحتراماً، وهي كافية لإسماع نصف الحضور:

Twitter: @ketab_n

- اخذ يا معود..... الأضرط منك جبناله بيبسي.

كان عبد الخالق السبتي من جلّاس (الجندول)، المقهى الذي يحتلّ الزاوية اليمنى للجسر الجديد من جهة الصوب الصغير، على الشطّ مباشرة.

هناك يجلس مدير العدنانية متوسّطاً حلقة من المعلّمين أو من في حكمهم. كان حديث ذاك اليوم عن الزوجات، وتحديداً عما يجدنه وعما لا يجدنه. السبتي أسكت مجالسيه بسيرة ام خالد، وهي زوجته (سمى ابنه خالداً إعجاباً بعبد الناصر وتماشيا مع ميوله القومية)، متحدّياً سامعيه إذا ما كانت هناك امرأة تصل إلى نصف مهارتها في صنع الطرشي.

حين أسهب السبتي وأطنب، فاض الكيل بأحدهم فقال:

- عدنا نبي ونصلّـي عليه.. هذا البيت (وأشار باتجاه بيت السبتي) گوم جيب كاسة (طاسة خزفية) طرشي حتا نشوف هالحچي صدگ لو لا؟

انتفض السبتي، ومن دون أن يجيب، توجّه إلى بيته القريب حيث كان يسكن بيوت الإدارة المحلية في حي بابل، وهي صفّ من بيوت حكومية لها لون واحد، تمتدّ بمحاذاة ابتدائية الفاطمية للبنات.

بعد أن سمعت أم خالد الرواية، حضّرت (كاسة) من الحجم الكبير رصّت فيها الخيار ثم غمرته بالخلّ وكأنّها تنضّد سبائك فضة وذهب.

Twitter: @ketab_n

في طريق العودة، ضربت رائحة الخلّ بأنف السبتي فمدّ يده ساحباً الخيارة الأولى، ثم الثانية فالثالثة.....

قبل مائة متر من المقهى صار العثور على خيارة في بركة الخل يحتاج إلى غوص أصابعه الوسطى والسبّابة والإبهام معاً.

حين وصل حلقة الجلاس المنتظرين بلهفة، المغالبين لعابهم السائل، كانت الكاسة خالية تماماً إلّا من الخلّ الذي يحضر في الطرشي بصفة مراقب لا أكثر.

بعد أن وضع السبتي الكاسة على الطاولة الخشبية في وسط المتحلقين، وبعد أن استوعبوا الصدمة، دارت الرؤوس نحوه:

- ابو خالد... وين الطرشي؟

هنا تصنّع السبتي المفاجأة، فمدّ يده إلى الكاسة ورفعها إلى أعلى رأسه متفحّصاً أسفلها وبحسرة مصطنعة ضرب على ركبته:

- لا يا أم خالد.. اكو واحد يخلي الطرشي بكاسة مزروفة!!

معاون السبتي في العدنانية كان حميد جابك. لا أذكر ماذا كان يدرسّنا لأنّه، وبحكم منصب المعاونية، يُعطي دروساً أقلّ من المعلّم الذي لا يسند إليه منصب إداري، لكنّي أذكر تماماً خيزرانته.

Twitter: @ketab_n

كان يقف في القاعة التي يدخلها الطلّاب بعد اجتيازهم الممرّ القصير بين الباب الخارجي ومبنى المدرسة. هناك حيث تعلّق النشرات المدرسية واللوحات التي عادت من معرض الرسم السنوي للمدارس. هذا قبل أن تجتاح مباني المدارس حمّى الشعارات الحزبية وأقوال الرئيس وصوره الضرورة.

كان حميد جابك يقف هناك، متأبّطاً خيزرانته التي يسحبها بخفة وتمّرس، لينزل بها على أي طالب متأخّر، وحيثما تنزل.

لا أزال أذكر صوتها وهي تخترق هواء القاعة الساكن.

كان حميد جابك عصى تحمل معلّماً.

معلّمونا القساة، معلّمونا الطيّبون، ضحايا العَوَزْ، أصحاب الأحلام المؤجّلة إلى يومٍ لم يجئ، الغاضبون دوماً علينا وعلى أنفسهم. لم نكن نعرف أنهم كانوا يستقتلون من أجل ادخال شيء في رؤوسنا الصغيرة، رؤوسنا اليابسة التي تذاكت عليهم وتشيطنت، فكنّا نحن والزمن والراتب الذي لا يوصلهم أبعد من منتصف الشهر ضدّهم، فيستعينوا على قضاء حوائجهم منّا بالخيزران أو بالعَرَقْ المسيَّح أو بالصمت، ليدفنوا الخيبة ووحشة الليالي وضيق ذات اليد. لكن معلّمينا لم يتخلوا يوماً عن دأبهم ولم يستسلموا لجموحنا الذي لم تزده العصى إلّا جموحاً، حتى روّضونا وحوّلونا إلى مخلوقات أليفة أدخلوها بصبر لا أحد يعرف من أين استمدوه، في مصباح علاء الدين المخصّص للعفاريت، والذي دفعوا ثمنه من أعمارهم.

Twitter: @ketab_n

فلاح أبو زرّة، أو (معلّم فلاح) واحد من هؤلاء، لم تغب عن مخيّلتي أناقته. كان مثل نجوم السينما الايطالية الذين دأب تلفزيون بغداد الأبيض والأسود على عرض أفلامهم كلّ يوم جمعة.

فلاح أبو زرة كان أميدو نزاري، ذلك النجم الأربعيني بشعره اللامع جدّاً وشاربيه المرسومين مثل جناحي طائر الخطّاف.

كان يدرّسنا الرسم وفي أحيان كثيرة يملأ غياب معلّم لم يحضر، فيتركنا لنذاكر درساً نختاره، بينما يذهب في خطوات ثابتة، عاقداً يديه وراء ظهره، مرسلاً نظراته عبر النوافذ أو الباب المفتوح على الساحة.

طوله الفارع وبدلاته المخطّطة، حذائه اللامع تحت أي ظرف وفي كلّ جو، ربطة عنقه المنتقاة بعناية. مظاهر نادرة وعلامات مميّزة ندر توفّرها في معلّم آخر. هذا التأنّق والحضور صنع له عالماً مستقلّاً عن بقية المعلّمين. كان حين يدقّ جرس الدرس الاخير يحث الخطى مبتعداً عن لغط الطلّاب ومجموعات المعلّمين وكأنّه يريد اللحاق بعالم آخر بعيد عن المدرسة، عالم هيّأ له هذا اللمعان الغريب عن غبار العدنانية وطحين طباشيرها.

أبو زرّة، كانت وما زالت، عائلة أشهر العطّارين في

Twitter: @ketab_n

الحلة. حين عدت إلى هناك بعد غياب اكثر من ثلاثة عقود، دخلت السوق الكبير ثم انحرفت يمينا إلى سوق القيمر، فالعطارين.

هناك... رأيته، إنّه هو، المعلم فلاح الذي لا تخطؤه العين، كان جالساً في محلّ عطارة صغير بذات الملابس التي عرفناه بها لكنّه بدا مثل دمى المانيكان المتروكة وراء زجاج محل مهجور. أنيقة لكن يعلوها غبار سميك أطفأ لمعانها فكبت ألوانها وحلّت محلّها ألوان أخرى، ألوان بلا بهجة أو بريق.

دنوت منه، صافحته، ثم سألته:

- عرفتني؟

- لا.

- أنا نوفل......

لم أكمل الجملة حتى هز رأسه:

- العدنانية؟

- نعم.

تركته غير محاول أن أستعيد صورته القديمة. من الذي ألقى على معلّم فلاح بكلّ هذا الغبار.. من أطفأ ذاك البريق؟

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

على الجانب المعاكس تماماً، كان المعلّم عبد الأمير الذي ما أن يدخل الصفّ حتّى تدخل معه رائحة الدهن التي تثقل هواء الصفّ. غالباً ما كان عبد الأمير يرتدي بدلة واحدة، لونها الأزرق الغامق يقترب من الأسود الذي تكسوه لمعة صنعها اثنان، مكواة المنزل والدهن الحرّ الذي ينقل صفائحه وقِرَبِهِ فجر كلّ يوم إلى دكانته قبل أن يأتي إلى المدرسة.

لم يكن لدى المعلّم عبد الأمير وقت ليعود إلى بيته ويبدّل ملابس العمل بملابس المدرسة، فقد كان لديه ما بين الاثنين عمل ثالث وهو التدريس في سجن الحلّة.

عبد الأمير (الذي لقبه الطلاب بأبو الگيمر) لم يكن مهتمّاً بما يقال عنه أو يقال له. يعطي دروسه ثم يركب درّاجته الهوائية ذات السوباية الخلفية، مخترقاً مجاميع الطلّاب المبتهجة بانتهاء يوم دراسي وبخفّة لا تناسب بدانته، يمضي إلى السوق الذي أتى منه.

مثل كلّ مدارس العراق، وخصوصاً، مدارس الحلّة، لم

Twitter: @ketab_n

تترك العدنانية معلّماً من دون لقب يلصقه به الطلّاب بعد أن يستلّوه إمّا من شكل المعلم أو من زلّة لسان وقع بها أو حادثة ساقه حظه السيئ ليكون طرفا فيها، وفي أحيان نادرة يلصق بالمعلّم اسم امه.

فرحان ابو اللسن (معلم الإنكليزية الذي يردّد كلمة LISTEN).

عبّاس البشّة (لأنّه قصير ويمشي مثل طائر من أنواع البطّ يسمّيه العراقيون البشّة).

حمزة عيون (لا لشيء إلّا لأنّ عيونه زرقاء).

عبد الخُلق (اسمه محمود لكن لأنّه يتكلّم دائماً عن أهمية الأخلاق).

كامل بُكلة (مدرّس النشيد الذي يصفّف مقدّمة شعره ويثبّتها بدهن الشعر لتبرز إلى الأمام). إلى جانب اللقب له قصص كثيرة منها حادثة (أنت عمري).

أيّامها كانت أغنية أم كلثوم التي لحّنها عبد الوهاب، (انت عمري)، حديث الشارع. لا تمرّ بمقهى أو مطعم إلّا وتسمع السيدة وهي تقول بلوعة:

«قد إيه من قبلك راح... راح وعدّى يا حبيبي...... قد إيه من عمري راح...»

Twitter: @ketab_n

هذا عن الشارع، أمّا نحن طلّاب الثاني باء في ابتدائية العدنانية للبنين فلم تكن ام كلثوم ولا أغنيتها ضمن دائرة اهتمامنا التي لا تتعدّى (الطوبة أم ثلاث دراهم) ومجلّات سمير وبساط الريح وإنهاء وظائف المدرسة ثم الانطلاق إلى أقرب فسحة في البيت تصلح للعب الكرة.

دخل المعلّم كامل الشهير بـ (كامل بُكلة)، حاملاً الكمان المخبّأ في بيته الأسود، مرتدياً بدلته الرمادية مع القميص الأبيض وربطة العنق الزرقاء. بعد أن صرخ المراقب:

- قيام...........

التفت إلينا بتعالٍ، ليردّ وهو يضع الكمان على أقرب رحلة إليه:

- جلوس........

رفع غطاء بيت الكمان ثم سحب الآلة العجيبة ذات الخشب اللامع، رفعها ووضعها على كتفه الأيسر، ضغط عليها بحنكِهِ، وبدأ بضبط الأوتار متأكّداً من دوزانها الصحيح بتمرير القوس عليها بين شَدّة على المفاتيح وأخرى.

ما أن انتهى من عرض المهارة، التفت إلينا، نحن المنبهرين بما يفعل، المفتوحة عيوننا على آخرها مندهشين بهذه الآلة العجيبة التي اعتدنا عليها سوداء معتمة عبر شاشة التلفزيون، ومن دون أن يأبه لتعجّبنا، سألنا:

Twitter: @ketab_n

- تريدون (انت عمري)؟

أصوات متقاطعة ومتعاقبة، صرخنا:

- شنو أنت عمري استاد؟

أنزل الكمان من على كتفه، فتح عينيه على آخرهما، وبصوت عال مستنكر:

- ولكم قنادر.... متعرفون انت عمري، متعرفون أم كلثوم؟

- ....

- تعرفون... ما تعرفون.... غصبن عليكم راح تسمعون.

- ....

بدأ بالعزف، لكن النغمات لم تطاوعه فأفلت اللحن على ما يبدو وانزلق القوس مصدراً سلسلة من العواءات الفاضحة التي لم يخف نشازها حتى على جهلة بالموسيقى مثلنا وهنا توقّف المعلّم كامل، ووجّه سؤالاً جديداً لنا:

- تريدون إسعاف؟

- إي استاذ... إي... إي الله يخليك.

ما هي إلّا ثوان حتى انطلق القوس صعوداً ونزولاً

Twitter: @ketab_n

مصدراً صوت سيارة اسعاف بأقصى السرعة: وي.. وي.. وي..

بعد أن بدت آثار السعادة واضحة على وجوهنا بسبب الاسعاف التي حلّت محل أم كلثوم، أعاد الأستاذ كامل الكمان إلى بيته، ثم التفت إلينا مصفقا بايقاع منتظم:

- ياالله ويّاية: نحن الشباب لنا الغد.. ومجده المخلد.. شعارنا على الزمن عاش الوطن

عاش الوطن..

الاحتفالات بثورة ١٤ تموز (ذكرى الإطاحة بالحكم الملكي وإعلان الجمهورية) كانت تصادف في منتصف العطلة الصيفية للمدارس والتي يغيب فيها الطلّاب في عالم آخر لثلاثة اشهر.

كان على كلّ مدرسة أن تحتفل بتزيين عربة تسير في موكب الاحتفال الذي يتجمّع في باب المشهد ثم يخترق الشوارع مارّاً من أمام البلدية حيث يجلس على المنصة التي اعدت خصيصا، متصرف اللواء ومدير الشرطة وآمر الموقع ومن في حكمهم من المسؤولين في الحلّة.

مهمّة تحضير عربة (العدنانية) كانت من نصيب المعلّم هادي حليحل، وهو معلّم الرياضة الذي كان (يمتاز) عن باقي المعلمين بعدم استخدامه العصى. ليس بسبب نزعته السلمية

Twitter: @ketab_n

ولكن لاستخدامه بدلاً منها حبل الكشّاف الذي يفضّله لسهولة تحويله إلى سوط يصل إلى أيّة منطقة في جسم الطالب، بالإضافة إلى إمكانية حمله في الجيب واستخدامه ساعة يشاء من دون الحاجة إلى إرسال المراقب ليجلبه من غرفة المعلمين.

مثلما يحدث مع العصى.

بعد عرض الأفكار على المدير عبد الخالق السبتي اختار أن تشارك العدنانية للبنين بنموذج كبير لحمامة السلام (أيّامها لم يكن عبد الكريم قاسم قد انقلب على الشيوعيين بعد ولم تزل حمامة السلام رمزاً وطنياً).

المفاجأة التي حضّرها السبتي للجمهور المتحمّس، أنّ حمامة السلام هذه، تتقيّأ شربت برتقال وتذرق ملبّس وحلقوم.

لأنّ التصميم الصناعي لم يكن متداولاً تلك الأيّام، تلخّصت ميكانيكية الحمامة بعمل هيكل كبير من الأسلاك لتكسى بعد ذلك بالجبس، ثم بطبقة من كرات قطنية على أساس أنّها ريش أبيض.

من أجل أن تتقيّأ الحمامة وتقضى حاجتها، تركت قاعدتها مفتوحة ليدخل منها (لفتة)، طالب المهمات الخاصة الأطول في العدنانية والأكثر قدرة على التحمّل بين طلّابها الأمر الذي حوّله إلى (متعهّد) مناسبات، فهو ضارب الطبل الكبير أمام الكشّافة، واللاعب الأكثر أهمية في كرتي السلّة والطائرة

Twitter: @ketab_n

وحارس المرمى القابل للتحوّل إلى قلب دفاع أو رأس هجوم في أيّة لحظة يشاءها المعلم هادي حليحل. بالإضافة إلى مهمّات اخرى مثل رمي الرمح والقرص، ورمي أي لاعب من الفريق الخصم وإشباعه ركلاً ولكماً حتّى تصله إشارة التوقّف من المعلّم حليحل والتي غالباً ما تأتي بعد أن يكون اللاعب الخصم قد دخل مرحلة عدم الأهلية.

كان من المفترض أن توضع الحمامة في شاحنة من النوع القلّاب ويتحلّق حولها طلاب منتخبون إما على أساس تفوّقهم أو قرابتهم للمسؤولين الجالسين في المنصّة، والخيار الأخير هو الأغلب حدوثاً.

المتحلقون حول الحمامة كانت مهمّتهم تلقّف الحلويات من مؤخّرتها والشربت (العصير) من منقارها الذي أدخل فيه انبوب مطاطي موصول بصفيحة المحلول البرتقالي حيث يقرفص لفتة في درجة ستّين مئويّة على الأقلّ.

بعد تلقف الحلوى تنثر على (الجماهير) المصطفّة على جهتي الشارع والتي كانت غالبا ما تحصل عليها ومعها عدد لا بأس به من الكدمات.

هنا برز سؤال حيوي ومصيري:

كيف ستصل الحلوى والشربت إلى المتصرّف (المحافظ) والمسؤولين من حوله؟

Twitter: @ketab_n

بعد اجتماع مصغّر اقتصر على المدير عبد الخالق السبتي ومعاونه حميد جابك ومعلّم الرياضة هادي حليحل، تقرّر إضافة قطعة احتفالية أخرى وظيفتها إيصال حلوى الاحتفال إلى يد المتصرّف من دون أن يتحرّك أحد من مكانه، لا طلّاب العدنانية ولا المحافظ (بالطبع).

هذه القطعة هي مدفع خشبي مزود بنابض (سبرنگ) ضخم، يسحبه الرامي ثم يفلته، فيقذف ما في جوفه من الحلوى، لتسقط أمام المسؤولين أو في احضانهم.

لأنّ لفتة قابع في جوف الحمامة، اختير صديقه اللدود (مال الله) كضارب مدفع، فهو لا يقل قوة ولا عضلات عن (لفتة) ولأنّ ذراعيه مفتولتين وجاهزتين لأداء المهمّة.

ما أن وصلت الشاحنة حول سور مبنى البلدية ولاحت منصة الاحتفال من بعيد حتى صرخ المعلم حليحل:

- وصلنا.. ولك مال الله إذا غلطت أبوك أحرگه.

تلقّف مال الله الحلوى من مؤخّرة الحمامة بيد مرتجفة، أدخلها فوهة المدفع من الأمام، توقفت الشاحنة تماماً، وبوقفة استعداد بجانب المدفع، وصدر بارز إلى الأمام، صرخ حليحل:

- إطلاااااااااااااااااق...

سحب مال الله الحبل المرتبط بالنابض بأقصى قوّة، ثم

Twitter: @ketab_n

أفلته لينطلق كيس الحلوى من دون أن ينفتح كما هو مخطّط، متوجّهاً باستقامة ودقّة إلى صدر مدير الشرطة الذي انقلب إلى الوراء، من قوّة المفاجأة لينقلب معه الكرسي والنجوم والنياشين والهيبة التي أمضى عمره وهو يربّيها كما الولد الوحيد.

ركض رجل الشرطة لمساعدته على الوقوف الذي لم يكن من أولوياته في تلك اللحظة العصيبة، فصرخ:

- جيبولي هذا الكلب ابن الكلب أبو (اطلاق)، أريد أنعل اجداده اليوم.

بخفّة القط، قفز هادي حليحل إلى مقدّمة الشاحنة وبدأ بضرب سقف القمارة بقبضته صارخاً:

- حرّرررررك ولك حرّرررررررك..

انطلقت الشاحنة القلّابة بالسرعة العادية واتخذ من فيها وضعهم الاحتفالي على أساس أنّ شيئاً لم يحدث.

الحمامة أُلقيت على سطح المدرسة وبقي قطنها نهباً للريح والمطر فلم تبق منها إلّا كومة أسلاك صدئة لا يلتفت إليها جالبي الكرات التي تنزل خطأً على السطح، لكنّها كانت كافية للتذكير باليوم الذي أطاحت فيه بهيبة الشرطة بكيس حلوى نزل من مؤخّرتها.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

من عرفتهم على الأقلّ، أو من سمعت عنهم من المدرّسين، كلّهم كانوا ساخطين.

الاختلاف بين مدرّس وآخر كان في درجة السخط، وعلى من.

البعض منهم لم يكن يتردّد في الإعلان عن سخطه على الربيع والهواء والغناء وما تضعه أمامه الصدفة من أصوات ووجوه وصور.. أيّاً كان اصحابها.

هذا السخط غالباً ما يصبّه مدرّسو الحلّة على مكان واحد، هو رؤوس طلّابهم.

بعضهم كان يصبّه ضرباً بالعصى، إذا ما كان مسيطراً على سخطه وبالقبضة، أو القندرة المجرّدة إذا ما كان السخط خارج السيطرة.

في آخر الشهر، أي حين يفعل خواء الجيب فعلته، يتساوى الساخطون في أدواتهم التي لا تحتاج إلى سبب لتبدأ العمل. العصي تصعد وتتزل والقبضات تتوجّه إلى حيث يمكنها أن

Twitter: @ketab_n

تصل، وكذلك الرفسات المسلّحة بالأحذية المثقلة بالمسامير والإضافات الجلدية والمعدنية.

هؤلاء عالمهم محدود، لا خيال فيه ولا ابتكار. الضارب والمضروب ثابتان لا تتغيّر أمكنتهما إلّا في حوادث نادرة يتحول فيها المضروب إلى ضارب.

يحدث هذا إذا ما قرّر الطالب أن يترك المدرسة من دون رجعة وأن يودّعها بنزال ينتقي فيه خصماً بعينه وهو المدرّس الذي أذاقه الويل ليطرحه أرضاً أمام أكبر عدد ممكن من الطلّاب، مقدماً للجمهور المتشفّي، حفلة من اللكم والرفس لا تنتهي إلّا بمسح كاشي الصف ببدلة المدرّس، والتي غالباً ما تكون بدلته الوحيدة.

فقر الخيال لدى فريق العنف من المدرّسين الساخطين، تقابله سعة الخيال لدى الفريق الثاني، وهو فريق ساخطي الألسن.

هؤلاء (أشدّ مضاضة) من الفريق الأوّل، فآثارهم على ضحاياهم لا تزول بالتقادم بل تتجدّد كلّما أعاد روايتها راوٍ بعد أن يضيف إليها لمسة من خياله الخاص... وهذا غالباً ما يحدث.

حسن چارك، مدرّس الرياضيات في المتوسّطة المركزية، كان بالرغم من مظهره وصوته الهادئ، يخفي حنقاً وحقداً على التدريس والمدرسة والأيام التي رمته إليها.

Twitter: @ketab_n

كان يدّرس الهندسة والجبر، وهما الدرسان الأكثر احتياجاً إلى حضور ذهني لطلاب تحلّق أذهانهم في كلّ زاوية من زوايا ملكوت الله الواسع بعيداً عن جبر حسن چارك وهندسته.

ذات يوم، لم يعجبه حلّ أحد الطلّاب لسؤال في الامتحان الشهري في مادّة الجبر، فصحّح المسألة بطريقته الخاصة.

كان الناتج الخاطئ الذي وصل إليه الطالب للمسألة هو (٥٥)، فما كان من الأستاذ إلّا أن أعاد دفتر الامتحان وقد حوّل الـ (٥٥) إلى عجلتي درّاجة هوائية وضع لهما بقلم التصحيح الأحمر مقوداً ومقعداً ودواسات للأرجل وكتب تحتها:

«هذا البايسكل..... روح عليه لأمك»

درس العربي، كان الفرصة الامثل للمتنطعين من الطلّاب. فيه يستعرضون قدرات يتوهّمونها بأنفسهم، من بينها بلاغة التعبير وجهورية الصوت وسحر الالقاء.

في المتوسّطة المركزية نفسها، كان مدرّس هذه المادّة هو سعدي علوش، وهو ليس مدرّساً عادياً بل مثقّفاً وأديباً ساقه حظّه العاثر إلى هذه المدرسة المتهالكة التي تشرع نوافذها للريح الباردة بعد أن تحوّل زجاجها إلى ذكرى وأبوابها إلى هياكل بلا مفاتيح ولا قبضات.

«أنشودة المطر» كانت من بين القصائد المقرّرة في

Twitter: @ketab_n

كتاب الأدب العربي لطلّاب الثالث المتوسط. وهذه القصيدة التي تمثل فخراً وطنياً لثلاثة أجيال على الأقلّ من المتعصّبين العراقيين للشعر الحديث، تمثّل لسعدي علوش إرثاً شخصياً يضع حمايته والدفاع عنه من بين أهمّ أولوياته التي تضمّ أيضا كيل السباب اليومي للبعث والبعثيين همساً أو في القلب، وذلك أضعف الإيمان، وربع العرق بعد التاسعة ليلاً في نادي المعلّمين بباب المشهد، وخبز العائلة.

سبب هذا الاهتمام، هو أن شاعر أنشودة المطر، بدر شاكر السياب، كان زميلاً لسعدي علوش في دار المعلّمين العالية التي خرّجتهما وخرّجت أيضاً نازك الملائكة وعبد الوهّاب البياتي ولميعة عبّاس عمارة وكلّ من له دور في ثقافة العراق وأدبه. هذه الصدفة التاريخية مثّلت لسعدي مجداً في بلد لا يسمح فيه بالأمجاد الشخصية.

حين وصلنا إلى يوم الدرس الذي يخصّ هذه القصيدة، تحوّل سعدي علوش إلى كائن آخر تدب في وجهه الأبيض الشاحب دماء الخيلاء والبهجة، وتسري في قدميه حركة غير مألوفة فيقطع الصف ذهاباً وإياباً وكأنّه في حلم لا يصحو منه إلّا على صوت الجرس الأخنف الذي ذهب الصدأ برنينه.

ذات يوم، وقبل أن يوقظه الجرس من حلم أنشودة المطر، أيقظه طالب اسمه وهّاب شمخي، موجّهاً له عبر أذنه المرهفة، رفسة وصلت إلى قلبه. (هكذا وصفها علوش).

Twitter: @ketab_n

في بداية الدرس، وقف الأستاذ علوش منتشياً، واضعاً يديه على الرحلة العالية بجانب السبّورة، ورفع صوته بحيوية:

- من يقرأ القصيدة؟

رفعت الأيادي الطالبة لهذا الشرف، فانتبه علوش إلى يد غريبة لم يألفها مرفوعة.. كانت يد وهّاب شمخي الطامح إلى إصلاح العلاقة الخربة مع مدرّسه الذي قال له ذات يوم إنّه قد يصلح لأي شيء في الحياة.. أي شئ.. إلّا لحرفة تريد عقلا أو خيالاً، خاتماً بيانه الخاص بشمخي بنصيحة لخّصها بكلمة واحدة: أيّس !

اقترب علوش ليتأكد أنّ نظّارتيه السميكتين لم تخدعاه، وحين تيقّن من أنّ شمخي هو صاحب اليد، أمسكه من سبابته المرفوعة وجره حتى أوقفه أمام السبّورة. استدار مقاطعاً يداه خلف ظهره وبدأ يجرّ قدميه بخطى بطيئة منتظراً معجزة أن يقرأ شمخي القصيدة.. أو حتّى ربعها.

وبدأ وهّاب شمخي الرحلة التي نصحه بها الكثيرون، وهي أنّ لا طريق لإصلاح علاقته بسعدي علوش إلّا بحفظ قصيدة السيّاب وقراءتها بما تقتضيه من إحساس وحماس. بدأ مرتجف الصوت، لكنّه ابتدأ:

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر

أو شرفتان راح ينأي عنهما القمر

Twitter: @ketab_n

عيناك حين تبسمان تورق الكروم

....

استمرّ شمخي بثقة - تزداد شيئاً فشيئاً، فالقصيدة فعلت فعلها وتفكّكت الأسارير المتجهّمة للمدرّس المتوجّس لتتحوّل الثقة إلى نشوة وصلت ذروتها حين باعد بين يديه، شادّاً أوتار حنجرته إلى أقصاها وهو يأخذ دور المنادي صارخاً:

- أصيح بالخليج يافليّـ يـ يـ يـ يـ يـ يـ ح....

لم يكن لأحد أن يتوقّع أنّ سوء حظ شمخي سيصل إلى أنّ ذبابة تركت الحلة بأقضيتها ونواحيها وأنهارها ودروبها لتختار كتابه المفتوح على قصيدة أنشودة المطر لتقضي حاجتها عليه.

ولأنّ سوء حظّ، شمخي عالي التركيز، اختارت الذبابة حرف الجيم في كلمة (خليج) لتترك عليه نقطتها الإضافية واضعة شمخي في حيص بيص، لكنه لم يتردّد باتخاذ القرار التصرّف الشعري فحوّل (يا خليج) إلى (يا فليّح) وهو اسم شائع في ريف العراق.

لم يصدّق سعدي علوش أذنه، استفاق من مفاجأة حفظ شمخي لقصيدته الاثيرة ليدخل في صدمة (الاجتياح) الذي تعرّض له خياله، وخصوصاً أنّ شمخي أطال ومدّ ومطّ وهو ينادي (يا فليّح) ليبدو وكأنّ هذا (الفليّح) واقف على الطرف الآخر من الشارع منتظراً النداء المتلهّف لشمخي ليسارع بالقفز

Twitter: @ketab_n

من فوق سور المتوسّطة المركزية، ثم إلى حضن المنادي الذي سيستقبله بالقبلات الحارّة لأنّه (من ريحة السيّاب).

علوش اقترب بخطوات ثقيلة من طالبه الذي توقّف عن القراءة بسبب عاصفة الضحك التي هبّت. صار قريباً منه، وبوجه محتقن بحمرة الغضب:

- وليدي شمخي الكتاب اللي عندك عتيگ؟

- لا أستاذ.. جديد؟

- لا وليدي عتيگ، لأنّ بالكتاب الجديد صلّحوها.. مو اصيح بالخليج يا فليّح.. صارت اصيح بالخليج يا عبد الزهرة.

لم يكد يكمل جملته الأخيرة حتى أطبق على خناق شمخي الذي أخذته المفاجأة فاختفى سواد عينيه قبل أن يجد نفسه مطروحاً أرضاً وسعدي علوش يسوي سترته وينفض تراب الاختلاف الشعري من على ردنيه وهو يتمتم:

- أصيح بالخليج يا فليّح.. ابن القندرة..

سخط المدرسين لا ينصب دائماً على طلابهم ففي أحيان كثيرة يتحوّل إلى اعتكاف أو عزلة ينقلب بسببها الرأس ليصبح مطبخاً للأفكار والتصرّفات الغريبة.

المدرّس حسين عيدان بنظّاراته السميكة المعتمة وجسده النحيل، انتهت به المهنة الصعبة إلى قنفة خشبية في مقهى

Twitter: @ketab_n

الجندول يستعرض عليها مهارة غريبة وهي معرفة رقم عربانة الربل قبل أن تبدأ عبور الجسر (من مسافة مائة متر تقريباً) منادياً بعالي الصوت:

- عجلة رقم أربعمية وسبعة حلّة، سايقها شهيد الأعرج أبو رجل الحديد.

غير العارفين بالسرّ، يتعجّبون لهذه القدرة العابرة للطبيعة وخصوصاً أنّ رقم (الربل) مسجّل على ظهره، وليس على أي مكان آخر، مما يعني أنّ الاستاذ عيدان يتمتّع بنظر خارق للأجسام الصلبة.

هذا عن غير العارفين، أمّا العارفون فيعلمون أنّ حسين عيدان أمضى أشهراً وهو يحفظ على ظهر قلب لون الربل ولون حصانيه ومن هو صاحبه، وأيضاً رقمه، ليستعرض بعد ذلك قدرة خارقة أوهم الآخرين بأنها من مواهب عديدة يتمتّع بها ومنها إعطاء الرأي الصائب بما يجري من أحداث، بما فيها خطف الطائرات.

في الفترة التي ساد فيها هذا النوع من العمليات (السبعينات) كان المحبطون من السياسة العربية الرسمية يهلّلون مع كلّ عملية خطف.

حسين عيدان لم يكن مع هذا الاعجاب، إذ كان سرعان ما يهبّ بوجه من يحمل له خبر خطف طائرة أمريكية هائلة الحجم قائلاً من طرف أنفه:

Twitter: @ketab_n

- شنو يعني خاطفين طيارة.. ماكو أسهل منها... اللي بيه خير يخطف باخرة !

أمام محلّ هادي الماشطة في شارع المكتبات، المتجر الأشهر لبيع المعلّبات والمواد الغذائية التي تحتاجها النخبة الحلاوية، كان يقع محل أبو ساهرة المختصّ ببيع المشروبات الغازية بعد تجميدها صيفاً وشتاءً.

لأبي ساهرة ابن في صفنا يضعف نظره يوماً بعد يوم. مدرّس متضايق من اضطرار ثامر الاقتراب من السبّورة لنقل ما كتب عليها، اختار اثنين من الطلّاب كنت أحدهما، ليرسلهما مبعوثين ينقلان غضبه إلى الأب وتحذيره بأنّه إن لم يشترِ لثامر نظّارة فإنّه (اي المدرس) سيقلب على رأسه الدنيا (على رأس الأب).

ذهبنا إلى أبي ساهرة ناقلين رسالة المدرّس الغاضب. وبهدوئه المعهود، سألنا وهو يناول زبوناً زجاجة الكولا الجامدة:

- وبيش هذي النظارة؟

- بعشر دنانير.

التفت وكأنّه لسع بسلك كهربائي:

- عشر دنانيـ يـ يـ ر.... ليش شراح يصير من ورا المناظر.. سيد ابو الحسن...

Twitter: @ketab_n

السرسرية لو راح يزيدون واحد لو راح ينقصون واحد.....

Twitter: @ketab_n

حلاويون.. على سفرٍ واغتراب

الحلاويون مقيمون، لا مسافرين ولا مهاجرين، لكن من خرج على هذه القاعدة منهم تحول إلى حكاية. حوَّل نفسه أو حُوِّل رغماً عنه، لا فرق.

من الحلاويين من اغترب مُلاحقاً حلم الترحال، وهم قلّة، ومنهم من سافر طلباً لعلوم الغرب، وهم الاكثرية، ومنهم من سافر لشمّ الهواء، وهؤلاء لم يظهروا بكميات واضحة إلّا في السبعينات حين ازدادت الرواتب وصار للجيوب فوائض.

لكلّ صنف من هؤلاء المسافرين حكاية، زيدت أو أُنقصت لتصبح على قياسه. فالمهاجرون لهم حكايات والمسافرون صيفاً لهم نوع آخر منها، أمّا المسافرون طلباً للعلم فلهم حكاية أحد فصولها عنوانه (الهوم سيك) أو (حنين الوطن) كما يسميه بعضهم.

هؤلاء توجّه معظمهم إلى لندن والقليل إلى أميركا للدراسة، ليعودوا.بعد سنة أو سنتين وهم على عتبة الجنون، يقطعون الشوارع عاقدي الأيدي وراء الظهور، طويلي اللحى

Twitter: @ketab_n

متضغّني الجباه، يرتدون الدشاديش وينتعلون أخفاف الإسفنج، وحين تسأل أي أحد عمّا أوصل أيّاً منهم إلى هذا الحال، يأتيك الجواب:

- حنين الوطن.

هؤلاء نسوا حياتهم السابقة واحتفظوا بقدراتهم العلمية، فكانت المدينة تنساهم لتعود فتتذكّرهم في الأيام التي يكرم المرء فيها أو يهان، أيّام الامتحانات، وخصوصاً أيّام الاستعداد للبكالوريا.

من دون موعد، يتجمّع معظم هؤلاء في مقهى (الهلالي) الملاصق لمكتبة الحلّة العامّة، ليتوافد عليهم الطلّاب فيحصلون منهم على دروس خصوصية مجانية في الإنكليزية والكيمياء والفيزياء والرياضيات بفرعيها، الجبر والهندسة.

ذلك المقهى المظلّل بالنخيل العالي شهد أغرب أنواع العمل التطوّعي.

يتناثر ضحايا (حنين الوطن) على القنفات الطولية العارية الخشب إلّا من حصران متهتّكة، من دون أن يكلّم أحدهم الآخر أو يعرفه أصلاً، ليفد إليهم طلاباً لا يعرفونهم هم متلقّي الدروس المجانية الذين لا يغادرون المقهى إلّا وقد أصبح المبهم واضحاً ومنجلياً، ليذهب بعدها كلا الطرفين، المدرِّس والمدرَّس، إلى حال سبيله.

Twitter: @ketab_n

هؤلاء ذهب معظمهم ليدرس اختصاصات حسّاسة في الغالب. منهم من عاد ومنهم من أكمل، ومنهم من مات.

ما بين موقع بناء هنا وموقع آخر هناك، يتنقل شيخ يرتدي دشداشة سوداء ويشماغ أسود وسترة سوداء أيضاً. حتى النظّارة ذات العدسات السميكة جدا تصادف أن يكون إطارها أسود.

الشيخ هو (بشبوش) وهذا اسمه. يقضي يومه وهو يجمع أكياس الاسمنت الفارغة ليحملها على رأسه من أجل أن يبيعها لصانعي الأكياس الورقية.

السواد الذي يغرق فيه، كان حزناً على ابنه الذي سافر إلى أميركا من أجل الدكتوراه في الفيزياء النووية فينجح فيها بتفوق. هكذا تقول الحكاية، لكنه عاد ميتاً تاركاً الأب في حزن أبدي.

الحلّة تبنّت حكاية تقول إنّ الأميركيين حقنوه بالسمّ بعد أن أصرّ على العودة إلى العراق ورفض عرضهم بالبقاء هناك، عالماً نووياً في مفاعلاتهم.

كما الكثير من الحكايا، لم يسأل أحد عن دليل ما حدث، لكن بشبوش لم يكن مهتمّاً لسبب الموت بقدر ما اهتم بالموت نفسه فارتداه وحوله إلى إعلان متنقّل يعيد ذكرى الحكاية في مدينة لا تحتاج إلى من يذكّرها بعمل هو اكثر ما تجيد وهو القصّ والكلام.

Twitter: @ketab_n

الذين أكملوا دراستهم وعادوا، لهم روايات.

كان الذاهب إلى الدراسة يعامل مثل الذاهب للحرب، قد يعود وقد لايعود، وإذا عاد فهي عودة واحدة، بعد أن ينتهي من دراسته. هذه الفترة الطويلة قد تتخلّلها (وهذا أمر نادر الحدوث) زيارة من الأهل إلى بلد الاغتراب إذا كانوا من الميسورين. عدا ذلك لا أحد يعرف من أمر المسافر شيئاً إلّا عبر رسائل متقاربة في سنة السفر الأولى ثم ما تلبث أن تتباعد، وربّما تختفي نهائياً بمرور السنين.

السنوات تمرّ والمدينة ترسم صورة المسافر مضيفة عليها التغييرات التي فعلتها فيه البلاد التي يعيش فيها، وهي صورة تميل دائماً إلى تحويله لشخص آخر غير الذي سافر قبل سنين، حتى أن البعض يذهب بعيداً فيتوقّع من العائد نسيان العربية.

خالي فؤاد الطائي قال عن ابن اخيه العائد من المانيا إنّه سينسى مكان بيتهم، وإنّه سيستوقّف مارّاً ليسأله:

- وين بيت (فرخته) الطائي؟

صديقي عادل الشكرجي سافر أخوه عبد المنعم لدراسة التصوير الفوتوغرافي في ألمانيا أيضاً، وبعد سبع سنوات قرّر العودة إلى الحلّة.

لأكثر من شهرين استمرّت محاولات الوصول إلى

Twitter: @ketab_n

التوقّع الأقرب لصورته المتغيّرة. لا بدّ أنّه أطال شعره وأنزله على كتفيه وربّما يلبس حذاءً بكعب علوّه شبر، وما دام الحذاء هكذا لا بدّ من قبّعة وبنطلون رعاة البقر (الكاوبوي) مضافاً إليهما القميص المزركش.

حين توقّفت طائرة (اللوفتهانزا) في مطار بغداد، اصطفت العائلة على شرفة المستقبلين منتظرة ظهور (الألماني)، وحين تيقّنت أن من يلوّح بيديه هو منعم وليس غيره، تبخّرت التوقّعات وذهبت ادراج الريح.

كان العائد يرتدي عقالاً ويشماغاً ودشداشة وعباءة !

البعض لم يحتج إلى سنين ولا حتى أسابيع لينسى اللهجة بل نساها في ثمانية وأربعين ساعة فقط. وهذا ما حدث مع نائب العريف حسين السلمان من قرية العتايج الملاصقة للحلة، حين أبلغ بأنّ فرقته ستتحرّك إلى سوريا للقتال في الحرب ضدّ إسرائيل عام ١٩٧٣.

لم تصل الفرقة الحدود واستدارت راجعة من الرمادي ليعود نائب العريف إلى أهله بعد ليلتين.سخّنت له أمّه صفيحتي ماء ليستحمّ وفركت له ظهره وهو يتقرفص في الطشت النحاسي، ثم أخرجت له دشداشة الأعراس والمآتم والنعال الذي جلبته من مكّة ولم يدشّنه بعد ومعه المسبحة المضيئة في الظلام.

بعد القبل والعناق، أنزل رِجلاً ورفع أخرى على مقعد

Twitter: @ketab_n

المقهى. كان التلفزيون بأعلى صوته ونجاة الصغيرة تنشد قبل آذان المغرب (إلهي ما أعظمك)، التفت حسين السلمان، سحب نفساً عميقاً من سيجارة الروثمان التي جاء بها من بغداد. التفت إلى الحلقة من حوله، وبأنف مرفوع سألهم:

- هذي مين........ نگاتي؟

كاظم الحجي علوان، تاجر الدهن، لم يثق بأطباء الحلّة وبغداد فسافر إلى لندن، عاد بعد شهر ونصف ليفتح بيته للمهنّئين بسلامة العودة، وكان السؤال الدائم:

- شگالگ الطبيب ابو حافظ؟

- الحمد لله.. ماكو شي يخوّف.

- إنطاك دواء؟

- لا.. بس كلي ابتعد عن الحليب و(منشقاته).

الحلاويون لم يقفوا عند (منشقات) الحليب فزيارة لندن كافية لتحويلهم إلى مغردين بالإنكليزية حتّى كأنّهم لم يعودوا يتذكّرون غيرها.

المقاول عبد الرزّاق الرهيمي، بعد عودته من رحلة استمرت شهراً في لندن، أجاب أحد مهنّئيه بسلامة العودة عن موعد عودته إلى العمل:

Twitter: @ketab_n

- مو توميرا.. ولا هفتر توميرا.. هفتر هفتر توميرا.

(مآثر) الحلاويين في الخارج ليست أقل من مآثرهم بعد عودتهم إلى الحلّة.

حسين عزيز السرحان الذي درس الهندسة في لندن، أقلق شرطتها وهي تلاحقه بعد أن وصلها بلاغ من ساكن في الشارع الذي كان قد استأجر غرفة في أحد بيوته:

«مجنون يسوق درّاجة هوائية وهو يرتدي بيجاما مخطّطة ويعلّق في مقود الدراجة سلّة بلاستيكية».

لم يفرّق السرحان بين جلب الفطور في لندن الخمسينات والذهاب إلى سوق القيمر في الحلّة.

ما لم تنسه الحلّة هو زوجة السرحان الإنگليزية التي عاد بها إلى بيت أهله في (الوردية)، هذه الزوجة لم يمض على وصولها أكثر من شهر حتى خلعت ثوبها الإنگليزي المزركش وقبّعتها ذات الأشرطة الحريرية، لترتدي جلباب الحلاويات الأسود، متحزّمة بالعباءة، ماضية إلى الشطّ لتغسل الصحون بتراب الحنطة وماء الشطّ الذي لم يكن قد وصل إلى البيوت في حينها.

في يوم من أيام حمّى السفر التي اجتاحت العراق في النصف الثاني من السبعينات، ضاع حليم المرعب (المرعب اسم العائلة وليس صفة لحليم) في العاصمة التشيكية براغ.

Twitter: @ketab_n

ولأنّه حسب حساب كلّ شيء مثل أي مسافر مزمن، سجّل في ورقة طواها ودسّها في جيب الصدر، اسم الفندق الذي ينزل فيه، راسماً الحروف حرفا بعد حرف وهي ذات الحروف الهائلة الحجم المنصوبة على سطح الفندق والمضاءة ليلاً بالنيون الأحمر.

استغرب المرعب ردّة فعل سائقي الأجرة بعد أن كان يعطيهم الورقة التي كتب عليها العنوان، فقد كانوا يعبسون بوجهه أوّلاً ثم يردّدوا كلمات غاضبة ويتركوه بحيرته واقفاً على الرصيف.

بقي على هذا الحال حتى وقعت عيناه الباحثتان عن منجد يخرجه من ورطته، على وجهٍ أسمر لشاب يتأبّط ذراع صديقته فدنى منه، ومن دون مقدمات سأله:

- الأخ عربي؟

- نعم...

- يا أخي آني تايه وعندي عنوان كلما انطيه لسايق تكسي يدير وجهه ويعيفني...

مدّ يده بالورقة للشاب الذي مدّت صديقته بدورها رأسها لتقرأ معه. انفجرا بضحك متواصل. بعد أن استعاد الشاب أنفاسه، قال للمرعب الذي وقف مشدوها:

- هذي مكتوب بيها (يا عمال العالم اتحدوا).

Twitter: @ketab_n

ينتمي المرعب إلى شريحة من المسافرين استفادت من زيادة الرواتب نتيجة الطفرة النفطية في منتصف السبعينات. فبعد أن كان السفر حكراً على النخبة العراقية دخلت الطبقة المتوسّطة على الخطّ فصارت سلفة على الراتب تصل بالمعلّم الحلاوي إلى أعماق أوروبا.

بحثاً عن الرخص الاشتراكي وخوفاً من الغلاء والفلتان الأمني الرأسمالي (هكذا كانت تردّد وسائل إعلام الاتجاه الواحد)، استبعد المسافرون أوروبا الغربية مكتفين بالشرقية منها، فصارت صوفيا بالنسبة لهم مثل (الجامعين) وبودابست مثل (المحاويل) و وارسو مثل (گريطعة).

لم يكن السفر وشراء تذكرة وحزم امتعة فحسب، بل كان طقوساً وتحضيرات قد تبدأ قبل سنة من موعد الطائرة أو السيّارة أو من في حكمهما.

في غرفة المعلّمين، وفي الفرصة الكبيرة (أم الربع ساعة) يطلق المعلم سهمه بينما ينفض بقايا الطباشير من على بدلته الحائلة:

- هذا الصيف راح نخلّي البنكات (المراوح) إلكم.

- ....

يذهب السهم حيث أراد صاحبه، فيرشق قلب كلّ السامعين وهو يقول متصنّعاً عدم الاهتمام:

Twitter: @ketab_n

- بحيل الله.. على جبال التاترا.

يتبرّع أحد المعلّمين المصدومين من زملاء المسافر:

- وين هاي الجبال؟

- فوگ بلغاريا بميتين كيلو.

- يعني راح تروح للخارج؟

- طبعاً للخارج لعد شگالولك بلغاريا بالسماوة؟

مثل النار في الهشيم، ينتشر خبر سفر المعلّم، فتنهال الأسئلة عليه لتصبح الاجابات متعته اليومية حتى انتهاء السنة الدراسية ودخول العطلة الكبيرة.

غالبا ما يكون المدير أوّل السائلين، محاولاً أن يخفي حسده لهذا المعلّم الذي (لا ولد ولا تلد) و (لا وراه ولا گدامه)، فيوجّه له سؤالاً حمّال أوجه عسى أن يفهم (هذا القندرة) ويعود بصوغة بيها خير:

- بيش مشهورة بلغاريا؟

- بالحلقوم.

يجيب المعلم المسافر بثقة بينما يردّد المدير مع نفسه: يريد يخصمها بقوطية حلقوم.... النذل.

- هاي بلغاريا أم القوط والقنادر وصلت للقمر، وتالي تطلع ما مشهورة إلّا بالحلقوم؟

Twitter: @ketab_n

- سألتني وجاوبتك.

بعد هذا، قد يأخذ المعلّم بالتلميح أو لا يأخذ، فالأمر خاضع لقوّة المدير وما إذا كان المعلّم لديه واسطة في التربية أم لا، لكن الأمر لن يزيد على قوطية الحلقوم التي قد تتحوّل إلى كيس (مصّاصّات) يرميه المعلّم لمديره قائلاً:

- صوغة للجهال.

يحدث هذا والمعلّم مبعداً عينيه عن نظرات المدير، متحجّجاً بتسوية قميصه (البلغاري) المليئ بالجيوب والأزرار المعدنية.

بعد ختم الجواز بموافقة السفر وشراء تذكرة الطائرة من فرع الخطوط العراقية في شارع السعدون ببغداد، ينتشر خبر موعد السفر ومعه موعد (الگعدة).

الگعدة هي استقبال يفتح فيه المسافر الباب للمودّعين، موعده عادة ليلة السفر، وغالباً ما يحضره مسافرون قدماء يشبعون صاحب الگعدة نصحاً وتذكيراً:

- دير بالك تصرّف بالمحطة، أكو واحد أگرع طويل يتمشّى بصفّ محلات التصريف.. صّرف عنده.

- يفرقلك عشرين زلوتي بالدولار.

- مو أوّل ما توصل بوجهك للملهى..

Twitter: @ketab_n

- الثكل زين.. سوي روحك مثقّف.

- بابا يا لغة يا بطيخ.. قابل راح يوقّع معاهدة.. هي شهرين (...) وكان الله يحب المحسنين.(النقاط بين القوسين لاحدى الكلمات الحلاوية الدالة على العملية الجنسية).

ما أن ينتهي سيل النصائح هذا، حتّى يبدأ سيل آخر من القبل والأحضان للمسافر مع التمنّي بسلامة العودة. تصحب عناقات الوداع عادة بالغمز والگرص، تذكيراً له بواجباته الفحولية.

ينسحب الجميع ويبقى مودّعو المطار، وهم عادة من الحلقة المقرّبة من المسافر، إمّا بسبب الصداقة أو القربى أو امتلاك سيارة تتحمل المتاع والطريق إلى بغداد من دون أن (تفور) المكينة أو ينقطع (القايش) فتطير الطائرة تاركة المسافر ليعيد دورة التوديع والأحضان والقبل وباقي المراسم الطويلة.

حين رافق بيت عجام مسافرهم الذاهب إلى يوغسلافيا، صادف أن دخل الصالة الممثّل حمودي الحارثي الشهير بعبوسي. ولأنّ مسافرهم اجتاز الصالة ودخل الجوازات، وحتى لا تفوته فرصة رؤية عبوسي على الهواء مباشرة. رمى أحدهم، وبسرعة غير متوقّعة نفسه بين ساقي الممثل من الخلف ثم نهض رافعاً إيّاه على كتفيه بينما تولى البقية التلويح

Twitter: @ketab_n

والتأشير إلى جهة عبوسي المحتجّ بأعلى صوته على عدم احترام الفنّان في العراق. كلّ هذا من أجل أن لا تفوت على المسافر رؤية عبوسي و(تظلّ بنفسه).

بعد أن نزل عبوسي من على الأكتاف، لم يدع كلمة سباب إلّا وقالها، ولم يكتف بذلك بل جلب لهم الشرطة التي سحبت ثلاثة منهم إلى الضابط.

الأخير نجح في إنهاء الأشكال حبيّاً بعد محاضرة لبيت عجام عن دور الفنان (من أجل الشعب) وأنّ الأخير (أي الشعب) عليه احترامه، لأنّ (من يضحك الشعب لا يجب أن يحوّلوه إلى مضحكة).

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الحلّاويون المسافرون وأيضاً المهاجرون لا تخلو سيرتهم حيث يحلّون من غرائب.

صفاء بيعي، لم أكن أعرفه في الاعدادية المركزية التي كنا ندرس فيها، لكنّي عرفته في سوريا، وتحديداً في حلب. كان هذا في منتصف السبعينات، هو جاء إلى دمشق بالطائرة وأنا بسيّارات النيرن الشهيرة.

بينما كنّا جالسين في شقّة عرّابنا، مهدي عبد الرضا الذي كان يحضّر الغداء، قال صفاء إنّه مشتهي (لالنگي) فسأل مهدي:

- أبو صلاح.. شيسمون اللالنگي هنانة؟

- يوسف أفندي.

خرج صفاء ليعود بعد نصف ساعة ومعه الحاج بكري صاحب البقّالة الذي يعرف مهدي منذ سنين. دخلا، فتوجّه الحاج بلحيته البيضاء الوقورة إلى مهدي سائلاً:

Twitter: @ketab_n

- يا استاذ مهدي.. شو هذا (أستاذ يوسف) اللي جاي يسأل عليه الاخ؟

من بين بلدان عديدة، أقمت لفترة قصيرة في بلغراد التي كانت يومها عاصمة يوغوسلافيا. اعتدت أن أستقبل بين فترة وأخرى حلاويين قدموا للدراسة.

أستقبل عادة الحلّاوي في المطار أو في محطة القطار. أضعه في سكن يناسب حالته، لأعود إليه في اليوم التالي.

اتصل بي أحدهم معرّفاً نفسه أنّه صفاء جبارة. في البداية لم أعرفه، ذكّرني بنفسه، عرفته. لقد كان يغنّي في فرقة غربية للشباب، وكان أوّل حلّاوي يرقص وهو يغنّي على المسرح !

التقينا على باب المحطّة، أوصلته إلى سكن رخيص، وعدت إليه في اليوم التالي، لفت نظري أنّه كان يسأل عن أسماء الحاجيات باللغة الصربية:

- ماذا يسمّون الحليب؟

- مليكو.

- والصمون؟

- خليب.

حين عدت له في اليوم التالي، عرضت عليه أن نذهب للفطور فقال إنّه فطر، سألته ماذا فطرت؟

Twitter: @ketab_n

- والله باكيت مليكو وخليبايه!

محمد الجباوي، طبيب أسنان غادر الحلّة إلى إنكلترا، وعلى علمي، لم يعد حتى اليوم (نحن في آخر ٢٠١٠).

ركب قطاراً من أثينا التي قضى فيها ذات صيف أكثر من عشرين يوماً لم يتعلّم فيها من اليونانية غير كلمة (فستوكاتو) أي (فستق).

في المحطة وجد مجلّة (ألف باء)، اشتراها وصعد القطار الذي ما أن تحرّك باتجاه بلغراد، حتى بدأ الدكتور الجباوي بتصفّح المجلة. ومن أجل أن تفتح الفتاة في الكرسي المقابل حديثاً معه، سألته مشيرة إلى صورة صدام على الغلاف، وبالإشارة:

- من هذا؟

حار محمد ماذا يجيبها، فقفزت أمامه الكلمة اليونانية الوحيدة التي يعرفها فرماها بوجه الفتاة:

- هذا (الفستوكاتو) مال العراق.

لأكثر من خمس سنوات دراسية، ترافقت مع جواد الذي اشتهر بلقب (جودي الوجودي).

Twitter: @ketab_n

كان قصيراً، ذا شعر أصفر ولكن ليس أشقر. وهو نوع من الاصفرار الوراثي الغريب.

عرفنا (جودي الوجودي) بحركة يده التي يدخلها في شعره ليزيح خصلات منه إلى جهة رأسه اليمنى، هذه الحركة زادت شخصيته غرابة خصوصاً وأنّها اقترنت بعينين حولاوتين بعض الشيء وبشرة بيضاء فاقعة.

لقب (الوجودي) التصق بجودي بسبب حمله الكتب دائماً واظهاره اهتماماً بالثقافة والسينما منها تحديداً.

لا يحتاج الحلّاويون إلى سبب للسخرية من شخص ما، فكيف بشخص يتهكم على (جهلهم) ويقول إنّه خلق من أجل أن تكون مدينته باريس لا الحلّة، وأنه سيدخلها مثل الفاتحين بمشروع سينمائي سيجعل الفرنسيين يضربون له السلام، وهو يعبر شوارع باريس الحجرية.

أوّل ما فعله المتبرّعون بالحملة المضادّة أن غيّروا اسمه من جواد إلى (جودي) حتى تتناغم وموسيقى السخرية حين تلحقه صفة (الوجودي) على أساس تبجّحه بفرنسا، مهد سارتر والوجودية.

نست المدينة اسمه، وصار جودي الوجودي المادّة المفضلة للذاعة الحلّاوية.

حين يسأل أحدهم عنه، يأتي الجواب جاهزاً:

- ملتهي.. البارحة بايت عنده ريجي دوبريه.

Twitter: @ketab_n

حين كانت السيارات تأخذ أعواماً حتى يستلمها المسجّلون عليها، لم يكن مستغرباً أن يتلقّى سؤالاً مثل:

- عيني جودي.. بلكي تحجي ويه جماعتك يستعجلونه بالـ (رينو ثنعش)...

وإذا انعدمت الأسباب، فلا بأس من سؤال مثل:

- تعرف واحد يسوي باگله ودهن قريب من برج ايفل؟

الغريب أنّ كلّ هذه التعليقات لم تكن تثير غضب الوجودي، بل كان يستقبلها بابتسامة صامتة وهو يكرع الشاي الذي صبّه في (النعلبكي) الصغير، وهي طريقة لا يفعلها غير الشيوخ والمستعجلين، وهو ليس من الاثنين. كان هيبياً قلباً وقالباً.

ذات صيف في منتصف السبعينات، انتشر الخبر في الحلّة. جودي الوجودي وسلام علوش سيشدّان الرحال إلى باريس.

كان الاثنان متلازمان لسنوات طويلة، وليس من الغريب أن يترافقا في السفر. لكن الغريب، وربّما غير المريح، أن يردّ جودي على السخرية التي استمرت لسنين بهذه الطريقة التي وصفها البعض بالضربة القاضية. فانطلقت حملة مضادّة في

Twitter: @ketab_n

محاولة لتسفيه رحلته الفرنسية، إذ أنّه، بمجرّد الوصول إلى باريس سيسجّل هدفاً في مرماهم لا يمكنهم الردّ عليه:

- ياباريس يا معودين.. ذولة راح يختلون بالمحمودية أسبوعين ويرجعون.

- يگولون راح يطلعلهم بومبيدو للمطار.

- بالله جودي صاحب فضل على آلن ديلون.. انت يا ابن علوش شكو مولي لفرنسا؟

- من يوم وصلها الخبر وبرجيت باردو على فد رجل، دوشمت الدواشگ وبدلت وجوه اللحف ويومية ماخذه البيت وجهين بالتايد. گالولها، عمي برجيت شصاربيچ، گالتلهم: «خايفة جودي يطب عليّة غفلة».

جودي الوجودي أذن من طين وأخرى من عجين. حمل أمتعته التي يبدو أنّه قد حضّرها منذ سنين وتوجّه إلى كراج بغداد مشياً على الأقدام ومعه سلام علوش بشعره الأجعد الذي يخضعه لتسريح قسري بتعصيبة يومياً من العاشرة مساءً حتى العاشرة صباحاً.

كانت تتبعهما عربة خشبية فيها أربع حقائب، ثلاث لجودي وواحدة لرفيق السفر، حمّلوها على إحدى سيارات

Twitter: @ketab_n

الـ(١٨ راكب) التي انطلقت وسط تلويح وصفير المودّعين الذين غصّ ثلاثة ارباعهم بضحك السخرية.

كان جودي الوجودي يلوّح متجهّماً من بين الأحرف العملاقة لجملة (محروسة سبع الدجيل) المكتوبة بالأحمر السميك على زجاج السيارة الخلفي.

من علاوي الحلة في بغداد إلى المحطة العالمية، كان المشوار الأخير لجودي على الأرض العراقية ليصعد القطار الذي اختاره لأسباب مادية وسينمائية. أليس هو نفسه قطار الشرق السريع لصاحبته أگاثا كرستي؟

أليست رحلة مثل هذه تحتاج إلى غموض مثل هذا القطار وإن تبدّل شكله وراكبوه؟

بعد ثلاثة أسابيع انتشر خبر عودة سلام علوش، لكن منتظروا عودة جودي الوجودي خاب توقّعهم وبقوا محتفظين بخزين الشماتة حتى اليوم، فقد وصل جودي إلى (مدينته) باريس. لا فاتحاً، ولكن مسافراً متهالكاً أخذه القطار لحماً ورماه في المحطة الفرنسية عظماً.

في عام ألفين وأربعة وفي خبر نشرته صحيفة الحياة، قرأت أن مخرجاً عراقي الأصل فاز بجائزة مهرجان لا أتذكر اسمه، بعد السؤال عرفت أن الفائز هو جودي الوجودي.

بعد أربع سنوات أخرى، شاهدته على إحدى القنوات

Twitter: @ketab_n

الفرنسية يحلّل في السياسة بفرنسية يحكيها مثل أهلها، تحته كتب على مكان التعريف: الدكتور جواد بشارة – سينمائي وكاتب من العراق.

عودة المسافرين، جزء من بين أهم أجزاء حكايات الحلاويين مع السفر والهجرة. موعدها غالباً قبل أن تفتح المدارس بأسبوعين أو عشرة أيام.

ينتشرون في المقاهي ونوادي المعلمين والمهندسين والموظّفين والأطبّاء والعمّال والحقوقيين وباقي النوادي التي وإن اختلفت أسماؤها اجتمعت على رسالة واحدة:

تقديم أكبر كميّة من العرق مصحوبة بأكبر كمية ممكنة من اللبلبي والباقلّاء وباقي محفّزات استهلاك الكحول.

يتوسّط العائد الحلقة حريصاً على أن لا يشاركه فيها عائدٌ آخر من السفر تجنّباً للتخالف في المعلومات ومن ثم حدوث ما لا يحمد عقباه.

يبدأ الحديث بمبادرة من المستمعين الذين يوجّهون أسئلة إلى المحتفى به مثل:

- يگولون الطيارة تظلّ تركّل؟

- صدگ هناك يطبگون زوجين جواريب بتموز؟

Twitter: @ketab_n

- هذا الكوبوي أصلي؟

- مراقب البلدية هناك شگد ياخذ؟

المسافر العائد يجيب باقتضاب حتى يدبّ دبيبها ليفتح السيرة على الآخر.

مع الوقت غالباً ما تدور الحكايات حول مغامرات السفر وغرامياته التي تنقسم إلى قسمين، الأوّل خيال والثاني لم يحدث، اما حديث الصحو الذي يدور في حلقات المقاهي والاندية الرياضية، فغالبا ما يُلقي فيه العائد جملاً تترك المستمعين فاغري الافواه:

- تذب الفلوس بالمكينة منّا... ويطلعلك صيخ التكة منّا.

- يطلع حار؟ (يسأل احدهم)

- نار جهنم، متكدر تحطه بحلگك.

- والصمونة؟ (يعود السؤال)

- والصمونة هم تجي وراه.. أكو تكة بليّة صمون؟

- وإذا مشتهي طماطة شوي؟

هنا يتدخل أحدهم ناهراً السائل:

- شلون يعني.. راح نبات على صيخ التكة؟

Twitter: @ketab_n

المسافر لا يتدخّل حتّى يعود الهدوء إلى المستمعين ليكمل:

- شفت بعيني هذي (يشير بسبابته إلى إحدى عينيه) واحد غابت روحه بالشارع.. مالحگ يوگع بالگاع، لگفته الإسعاف.

- سيارتهم تحمي (يسأل احدهم).

- يا تحمي يابا... ماشية مثل الزبد.

- لعد ليش تحمي عدنا.. موهي نفسها البولسكي هنا وهناك؟

- عمي شد تحجي.. الحرّ عدنا يحمى بيه المطي.

بعد ذلك لا بدّ من حديث الأسعار الذي ينتظره المستمعون بلهفة من أجل المقارنة وربّما أيضاً من أجل التفكير بشدّ الرحال مع الراحلين في الصيف المقبل.. فالسؤال الموجّه عن الأسعار للعائد من بلغاريا، يجيب عليه المسافر بعبارات مشفوعة بالأمثلة:

- دجاجة هالكبرها (يباعد بين يديه دلالة الحجم الكبير) وماعون زلاطة وبطل بيرة وكاسة طرشي.. بليفة ونص.

- شكد الليفة ابو داوود بروحه لأبيـّك؟

- ربع دينار.

Twitter: @ketab_n

هنا تتعالى آهات التعجّب:

- آيا باه...........

يتصنّع أحدهم ذكاء العارف:

- خاف هاي بالعرب مالتهم؟ (أي في الريف).

- يا عرب عمّي.. هاي بساحة ديمتروف (ثم يضع سبابته في منتصف طاولة الخشب).. بنصّ ساحة ديمتروف.. يگلك بالعرب، ليش همّا عندهم عرب؟

لا تنتهي السفرة إلّا بالمرور على السوق الحرّة في بغداد، فلكلّ مسافر الحقّ بشراء بضائع أجنبية بثلاثمائة أو خمسمائة دولار بلا جمارك، ولأنّ السوق العراقي في السبعينات كان، ثم استمر (اشتراكياً)، أي سوقاً من الرفوف الفارغة. أصبحت زيارة المسافر للسوق الحرّة تتمتّع بالأهمية القصوى.

حارس الباب كان يتأكّد من وجود ختم الدخول وأنّه لم يمض عليه أكثر من أسبوع. شرطان إن لم يتوفّر أحدهما تضيع على المسافر فرصة دخول جنة السوق للعودة بقنينة الكحول الإفرنجي و(گلوص) الروثمان.

أم عادل الشكرجي (شقيق عبد المنعم الذي عاد من المانيا لابساً الصاية والعقال) عادت من الحجّ لتغطس بين

Twitter: @ketab_n

مهنآتها بالسعي المشكور والحجّ المبرور. وبينما هي في ذروة حديث الروح، قدح في رأسها موعد السوق الحرّة الذي سينتهي غداً. انتفضت تاركة زائراتها، وما أن أصبحت خارج غرفة (الخطار) حتى صاحت وكأنها فقدت ما لا يعوّض:

- ولك يمه عادل...

من مبلّغ إلى آخر، وصل النداء إلى عادل، وهو آخر عنقود الحجية. نزل مسرعاً وما أن سمعت صوت خطاه حتّى لوّحت بيديها:

- يمه عادل.. باچر آخر يوم السوق الحرّة.

ثم أسرعت إلى الغرفة عائدة بجواز سفرها بيد، والنقود باليد الاخرى:

- بوجهك لبغداد.. هذا الجواز.. وهذي الـ (دونارات).

- اي وشتريدين أجيبلچ؟

- شتجيبلي.. جيب لروحك.

- ....

أدنت رأسها من رأسه حتى لا يسمع أحد:

- شتجيب أكو غيره.. بطل من هذا اللي ما أگدر اگول اسمه وگلوص الجگاير.

Twitter: @ketab_n

أم عادل نفسها حجّت بالطائرة التي ركبتها لأوّل وآخر مرّة في حياتها. جاء لها ابنها مكي (الضابط الذي اعدم لرفضه الحرب في يومها الأوّل) بتذكرة الطائرة. قلبتها مرّة ومرّتين ثم استدارت لابنها عادل متصنّعة الخبرة في أمور الطيران، لتقول وهي تعود لتقليب التذكرة:

- يما يگولون بالطيارة، تخلّص الغدا منا، ومتشوف إلا استكان الچاي صار فوگ راسك منا.

بعد أن سدّت منافذ السفر إلّا منفذي الحرب الإيرانية وحرب الكويت صار (مسافرو) الحلّة يذهبون بصمت ويعودون ملفوفين بالعلم العراقي، ثم بعد ذلك ملفوفين بلا شيء.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

يوم هبط الحَمَر

حركة المرور في شطّ الحلّة، ليست أكثر ازدحاماً من حركة المرور في قرية نائية ليس فيها إلّا أربعة بيوت طينية ومدرسة من صفّ واحد ومسجداً بلا مأذنة.

زورقان للعبور، واحد في الخسروية والثاني في گريطعة و زورق لا يتحرّك من مربطه يعود لمديرية الريّ وسبّاحون صيفيون ينحدر بعضهم من أماكن خارج المدينة، راكبين إطارات السيارات المطاطية، رافعين عقائرهم بغناء تحمل نشازه أمواج النهر لتلقيها في آذان العابرين الممتعضين الذين يعبّرون عن امتعاضهم إمّا بالصمت والتمتمة وإما بالصراخ والسباب، وإن كانوا من ذوي الآذان المرهفة فانهم يلتقطون أقرب حجر ويسدّدوه إلى المغنّي الذي لا يجد مفرّاً من رمي نفسه من (الچوب) متّقياً ثورة الحجارة بدرع الماء.

هذه الحركة الرتيبة، الحركة التي لا تزيد أو تنقص، انقلبت ذات يوم رأساً على عقب، ليجد الحلّاويون أنفسهم أمام

Twitter: @ketab_n

شاطئ في الجنوب الفرنسي وليس شطّهم الوادع المستكين الذي تعوّدهم وتعوّدوه.

في فيلم للمخرج الإيطالي فيلليني اسمه (أنا أتذكّر)، يهبط الثلج في ساحة المدينة الصغيرة التي لا تعرف المطر فكيف بالثلج، وفي وسط الثلج يهبط طاووس. يا للدهشات المركبّة.

مثلما حصل في مدينة فيلليني المنسية، حدث في الحلّة، حين شقّ شطّها يخت أبيض من طابقين يقف في مقدّمته، رجل في أواخر الخمسينات، أسمر، يرتدي قبعة البحّار البيضاء وقميصاً وسروالاً أبيضين، وحذاءً أبيض.

اصطفّ الحلاّويون بالمئات على جسريهم، الجديد والعتيق. دسست رأسي لأرى ما الذي يحدث فذهلت لغرابة المشهد، وقبل أن أسأل، التقطت جزء من حوار بجانبي كان يكفي للإمساك بطرف الخيط:

- منو هذا اللي چنّة قالب طباشير؟

- يقولون هذا ابن الحمر، جاي من أميركا.

كان لبيت الحمر محلّ حدادة كبير، ومن بين أبنائهم مدرّس صامت قليل الاختلاط، أتذكّر درّاجته السوداء التي لا تفارقه و(الاخت) على وجهه الأسمر المدور.

القادم من أميركا هو الأخ الأكبر الذي أخرجته الحلّة من

Twitter: @ketab_n

ذاكرتها ولم يعد يسأل عن أخباره أحد بعد أن غادر في نهاية الخمسينات وعاد متزوّجاً بأميركية وبولدين وبنت أميركيين قلباً وقالباً.

عادوا جميعاً ليتخذوا من الحلّة وطناً في قرار لا رجعة عنه، كما قال الحمر الكبير. قائد اليخت، قالب الطباشير، عاد الحمر بما حمل، مستفيداً من قانون أصدرته الحكومة في منتصف السبعينات أعطته عنواناً عريضاً هو (قانون عودة الكفاءات)، سمحت به للكفوء بإدخال أثاثه المنزلي وكل ما يملكه في بلاد الاغتراب من دون ضرائب ليعود ويقيم في العراق مانحاً الوطن كفاءته بدلاً من الغريب، أليس العراق أولى؟

لا أتذكّر الكفاءة التي هبطت بالحمر في الحلّة، لكني أتذكّر يخته الذي ظهر به في تلك المرة، ثم لم يعد للظهور ثانية.

ولأنّ الشطّ لم يكف العرض الأميركي، جابت شوارع الحلّة، دراجتي هارلي ديفدسون عاليتي المقود يقودهما شابّان لم يبلغا العشرين، مسلّحين بكامل العدّة السينمائية:

الشعر المفلفل، النظارات السوداء، جاكيتات الجلد الأسود، بنطلونات الجينز الحائلة، أحذية الكاتربلر، ثم زئير المحرّكات الذي قام مقام الموسيقى التصويرية لهذا المقطع

Twitter: @ketab_n

من فيلم (قصة الحي الغربي) الذي قفز من سينما الفرات إلى الشارع مستغلاً إغفاءة جبار الأعور، مشغّل الأفلام الشهير.

لأنّ العرض الأميركي لا يكتمل دون كرة السلة، صار لولدي الحمر زيارة يومية لنادي الحلّة، وهو اسم النادي الذي دمج فيه ناديي البلدي والفيحاء.

كان الحمر الأب ينزلهما على الشارع ليخترقا الممرّ المشجّر وهما يتلاقفان كرة السلّة التي جلباها معهما من أميركا (كل هذا تحت بند الكفاءة).

كانا طويلين، متطابقي الحجم بالرغم من الفارق في السنّ، لم يكونا يجيدان اللعب فيتعرّضان غالباً للخسارة من الثنائي الذي انبرى للنزال في لعبة (٢ ضد ٢) والتي يجيدها من ليس لهم نصيب في اللعب ضمن فرق النادي وهم غالباً ما يكونوا عمّال مقاهي استغلّوا قيلولة القهوجي أو سبّاحون مزمنون استبدلوا المدرسة بالشطّ، وتسلّلوا منه إلى النادي الواقع على حافة الماء تماماً، أو من في حكم هؤلاء من الباعة المتجوّلين، حاملي الصواني لا دافعي العربات، الذين يصفّون صواني الدهين والحبّ والعلكة وحب الرمان على المدرج وإلى جانبها نعل الإسفنج لتبقى تحت أنظارهم بينما هم ماضون حفاة في لعبة (التك گول) التي سقطت من القاموس الأميركي، بكرة السلّة والذي لم يضع بالحسبان حفاة الحلّة وباعتها المتجوّلين.

Twitter: @ketab_n

ذات يوم، وبعد أن خسرا نزالهما، شنّ أحدنا عليهما هجوماً (فكريّاً) بعد أن وجد نفسه مدفوعاً بحميّة الاشتراكي، قائلاً:

- المحترفين اللي عندكم ما يسوون فلس... غلبتهم روسيا واخذت الميدالية الذهبية.

بعد أن أوصل لهم الوسيط اللغوي فحوى الهجوم بكلمة من هنا وإشارة من هناك، ردّ أحدهم بما معناه أنّ من خسروا الميدالية هم هواة من طلبة الجامعات، أمّا الأقوياء فلا يضيّعون وقتهم في الألعاب الأولمبية، فما قيمة ميدالية ذهبية أمام ملايين الدولارات التي يربحونها؟

إلى هنا انتهى الحديث وسط اعتراضات حالت الترجمة الفورية من دون إيصالها.

في اليوم التاي وقف بيك آب الآمن وحمل ثلاث من المتحاورين مع الجانب الأميركي بالاضافة إلى حارس النادي وعضو في الهيئة الإدارية قاده حظه العاثر للمجيء إلى النادي مبكرا لأنّ لا مكان آخر يذهب إليه.

أطلق سراح المجموعة في ساعة متأخرة من الليل بعد أن تأكّد الضابط أنّهم لم يتأثّروا بـ(الفكر الإمبريالي) وأنّ دوافع الاشتباك الفكري مع الأميركيين كانت ثورية بحتة.

مثلما هبط الحمر، اختفى فجأة، هو ويخته ودراجاته

Twitter: @ketab_n

النارية وباقي لوازم الكفاءة التي بقيت في الجانب المظلم من الذاكرة الحلّاوية، فنستها ونست صاحبها مع أنّها لم تتعوّد أن تسقط شخصيات بهذا الحجم من على لسانها الطويل بسهولة.

Twitter: @ketab_n

عمارة عبد الرزاق شريف

ما بين البلدية والبناية التي يشغلها مقهى سيد شاكر حيث العمارة الأعلى في الحلّة، عمارة مصرف الرافدين، تتمدّد عمارة عبد الرزاق شريف. طابقان وعشرات المحلّات، مكوّنة واجهة الحلّة للتجارة الحديثة. التجارة خارج الأسواق التقليدية. أسواق الحرف اليدوية والتوابل ومسابك التمر وبزّازين القماش والخردة فروشية وصناع المناجل والسلاسل والفؤوس.

تجارة الحلّة الحديثة لا علاقة لها بالتكنولوجيا المتقدِّمة أو اقتصاد السوق، فهي حديثة مقارنة بما يباع ويشترى في السوقين، الكبير والصغير.

في عمارة عبد الرزاق شريف، لا عطّارين ولا بزّازين ولا صاغة أو باعة شربت رمان، بل واجهات زجاجية ولوحات تبارى في خطّها شناوة والمظفر، الخطاطان الأشهر في الحلّة، اللذان حوّلا كلّ لوحة من لوحات محالّها إلى حلبة منافسة بالفرش والألوان التي استخدمها المتنافسان وكأنّها قبضات العراك.

Twitter: @ketab_n

تبدأ العمارة بمحلّين تعلوهما لوحة واحدة كتب عليها بالرقعة (سيد علي عنبر) وتحتها (وكيل تلفزيونات سيرا) ثم محلّات لفخري جابك، تاجر الملابس الرجالية الأنيق والوسيم، تجاوره (أحذية دجلة) بأحرفها المنحوتة البارزة.

أحرف كتبت بخطّ التعليق الفارسي وطليت بالأحمر الوهاج، ليجلس تحتها صاحبها عبد المجيد القيسي، بوزنه القياسي وتعاليه على من يمر أمام محلّه أو يشتري منه او لا يشتري منه.. تعاليه على كل شيء.

بعده محلّ الحاج مزهر الجنابي، حيث كتب شناوة الخطّاط برشيق الرقعة، واحدة من أجمل لوحات الحلّة: (الحاج مزهر الجنابي الوكيل العام لساعات رومر ووست أند وتلفزيونات متز وراديوات غروندنغ ودراجات امبريال/ تلفون ٤٥٥).

بجانب الحاج مزهر، محل آخر بحجمه يبيع ذات البضاعة، ثم محلّ للتنظيف يحمل اسم (مكوى هادي) بالخطّ الكبير أسفله بخط أصغر (تنظيف الملابس على البخار). واجهة مكوى هادي مقسومة إلى قسمين غير متساويين، الأوّل تحتله ماكنة الكي البخارية التي يحرّك جزءها الأعلى رجل بالفانيلة وسروال البيجاما طوال السنة، لا يختلف عنده الصيف عن الشتاء إلّا بشكل الفانيلا القطنية البيضاء، فهي بلا أكمام

Twitter: @ketab_n

طوال الفصول الثلاثة وبنصف كم في الشتاء الذي غالباً ما يأتي الحلّة قارساً لا يحتمل.

من وراء الرجل يمرّ أنبوب قادم من مرجل البخار الأسطواني حتى يصل إلى حافة المحلّ فينفث البخار على أقدام المارّة.

ما يتكثّف منه يتحوّل إلى نقاط صافية تصنع مجرى رطباً يعبر الرصيف حتى حافّة الشارع.

القسم الثاني من الواجهة هو بقية الفراغ الذي تركته ماكنة الكيّ. هذا الفراغ هو الممرّ المؤدّي إلى الداخل. عرضه أكثر من متر وطوله عشرة امتار تنتهي إلى طاولة خشبية فرشت عليها الأوراق السمراء التي تلفّ بها الملابس النظيفة، جلس وراءها رجل هائل الطول فائض الوزن، إنّه هادي صاحب المكوى.

في عمارة عبد الرزاق شريف مكوى ملابس آخر هو (مكوى الحاج نيني) والأخير لا يجلس وراء طاولة مثل هادي، بل يقف وراء ماكنة الكي لأنّه المالك والعامل في ذات الوقت، رجل ستيني أضلع، يتحرّك بآلية لا تخلو من حيوية بينما يردّ على تحيّات المارّة بجملة شهيرة:

Twitter: @ketab_n

- عيون الحجي... أغات الحجي.. تاج راس الحجي.

ثم يتبعها بضغطة بالقدم اليمنى على دوّاسة البخار فتزأر الماكنة بالصوت العالي الذي يغطّي على ما تبقّى من التحية الطويلة.

هادي أبو المكوى، بقامته الهائلة ومنكبيه العريضين، صرعته جلطة بحجم ظفر من أظافره، فنزل موته المفاجئ، وهو في أواسط الأربعينات، على عمارة عبد الرزاق شريف نزول الصاعقة.

كان غازي الجنابي، صاحب معرض الكماليات الذي يحمل اسمه، الأكثر تأثّراً، فقد كان هادي نديم الكأس وشريك الليل وآخره.

أجهش غازي بالبكاء حين سمع الخبر ثم رفع رأسه إلى السماء:

- ليش ربي.. أخذت هادي.. چان أخذت حجي نيني!!

كان غازي عسكرياً متقاعداً، فارع القامة أسمر، حريصاً على أناقة كاملة.

Twitter: @ketab_n

وجوده في عمارة عبد الرزاق شريف ليس بالقديم، فقد حلّ محلّ عيادة الدكتور غني البيرماني، لكنّه كان على علاقة قديمة بمعظم أصحاب محلّاتها ومعهم هادي أبو المكوى وفخري جابك رفيق الكار والكاس.

الذهاب إلى (الكاولية) أي الغجر، أمر شائع بين طلّاب الفرفشة الذين كان غازي الجنابي واحداً منهم.

ما أن يحلّ الليل حتى تتحرّك سيارته البويك (أو البيوك حسب التسمية الحلّاوية) الحمراء اللامعة، قاطعة الطريق إلى خارج الحلّة، إمّا باتجاه بغداد أو باتجاه الديوانية. بعد عشرين كيلومترا، يميل إلى طريق ترابي يقوده وسط برّ قاحل. وبعد مسافة ليست بالقصيرة، يصل إلى مخيم من بيوت الشعر تلوح أضواء فوانيسه لقاصديه من بعيد.

يصل غازي فيوقف سيارته وينزل بطوله الفارع ومشيته الواثقة، الرأس المرفوع بأنفة وتعال على المكان.الكفّان في جيبي بنطلون البدلة الغامقة اللون دائماً.

يردّ التحيات المرحبة بحركة من رأسه من دون أن ينبس بحرف. ثم يجلس ومعه نديمه متربعاً على الأرض المفروشة بالبسط الملونة، يهرع نحوه صاحب الخيمة حاملاً مخدّات إضافية يدسّها تحت ذراعيه بينما غازي متشاغل بالحديث مع رفيقه الليلي.

Twitter: @ketab_n

من دون سؤال تنزل قنينتا العرق المسيّح (السرمهر) وصحون الفواكه والحب والباقلاء المسلوقة.

إظهاراً لمكانة الضيف ترگع الطبول ويمرّ قوس الربابة على وترها حتى آخر مداه.

تظهر (سوريّة) ثم (سهام) وبعدهما (نجيّة) فلا يقتنع غازي الجنابي إلّا برجاء التي تستدعى خصيصا لتزيح الستار وتدخل هازّة كتفيها فينتثر شعرها الذهبي على وجهها خافياً أسنان الذهب والوشم النازل من تحت شفتها السفلى حتى نهاية رقبتها.

يصعد العرق المسيح في الرأس فيفرقع غازي الإصبعتين حتى تكلّ نجية ويكلّ، هو ومن معه.

يعطى إشارة اكتفائه. يقف واثقاً مع هزّة خفيفة في جسده لا تصل حدّ الترنّح، يسوّي ملابسه نافضاً رماداً تناثر هنا وهناك، وبلا اكتراث يسأل صاحب الخيمة الواقف رهن الاشارة:

- شگد؟

- عشر دنانير عمي.

يصعق غازي، فالأمر عادة لا يصل الثلاثة دنانير فما الذي تبدّل؟

Twitter: @ketab_n

- عشرة...... ليش مأجرين سينما؟

- هذي هيه عمي. عشرة ما تنگص فلس.

- واللي ما ينطيك غير هذي الثلاثة؟

هنا تقدّم أربعة رجال ألقوا طبولهم وربباتهم مستعدّين لتحويل غازي إلى عجينة تسيل بين الأصابع. ولأنّه عتيق في هذا الكار، آثر السلامة فأخرج (ابو العشرة) وأعطاه للرجل الذي بان سنه الذهب حين ابتسم بأعرض ما تكون عليه ابتسامة المبتزّ.

خرج غازي صامتاً بينما جمرة سيجارته تشعّ في الظلام الدامس، قال صديقه:

- هذا راح يشيل الصبح، وإلّا ما يسوي هيچ دگة.

شغّل غازي سيارته وانتظر محركها ليسخن فقد كان الليل قارساً مثل شفرة.

حين سخن المحرّك، نزل بصمت ثم بدأ بفك حبال الخيمة، وصل إلى الحبل الخامس، سحب نهاياتها وربطها باحكام في الدعامية الخلفية للسيارة.

ثواني وانطلقت البويك الحمراء تحت ضوء القمر، مثيرة غبارا لم يره أحد، ماضية بالسرعة القصوى، ساحلة وراءها خيمة الغجر الذين رآهم غازي وهو ينظر مبتسماً في المرآة، خيالات سوداء تتقافز في ظلام بدّده البدر التمام.

Twitter: @ketab_n

حين اختفوا من المرآة، خاطب غازي نفسه متجهّماً:

- عشر دنانير........ ابن الگحبة.

فندق الخيام هو الفندق (الأرقى) في الحلّة، والرقي هنا صفة نسبية لا تتوقّع حين تسمعها أن يكون الفندق من ذوي النجوم الخمس اللامعة وبهو الانتظار الفسيح الذي يتوسّطه موظف الاستعلامات ببدلته السوداء وربطة عنقه الزاهية والوجه المبتسم الحليق.

فالرقيّ في فندق الخيام يعني أنّ لا فئران ستشاركك الفراش وأنّ الغرفة لن تحتوي على أكثر من أربع أسرّةٍ، وأنّ احتمال وجود مرآة في الغرفة قائم وليس بمستبعد تماما.

هذا في الشتاء أمّا في الصيف فتصعد الأسرّة كلّها إلى السطح ليتحوّل الفندق إلى غرفة واحدة بعشرات الأسرّة المصفوفة جنباً إلى جنب وما على النزيل إلّا أن يختار أحدها فيدسّ ما في جيوبه تحت المخدّة ثم يتمدّد ممعناً النظر في نجوم السماء اللامعة.

ما أن تتسلّل برودة الفراش الخفيفة إلى الجسد المتعب ويضرب هواء الشطّ الهموم الدائرة في الرؤوس حتّى تذهب

Twitter: @ketab_n

الصفوف المتراصة في غفوة تنتهي بشروق الشمس. ليتوزع الجمع في شوارع الحلة متحلقين حول مناقل الشواء وباعة الشاي بعد أن دفع كل منهم ربع دينار غير قابل للخصم. اجرة مبيت ليلة واحدة في فندق الحلة الارقى. فندق الخيام.

يتقاسم ملكية الفندق شريكان، عبد الأئمة سعيد وناجي السلمان وهما ايضا يتقاسمان الادارة مابين فترتين، مسائية وصباحية.

عبد الأئمة سعيد، الرجل الأشيب المائل إلى الامتلاء، لا يغيب هو أو عائلته، خصوصاً أولاده عن الذاكرة. فقد أثّروا فينا بطرق لا علاقة لها ببعضها، كل واحد كان مؤثّراً بطريقته، الأكبر واسمه مؤيّد، مدرس اللغة الإنكليزية ذو العالم الخاص.

نراقبه من بعيد وهو يمرّ باتجاه بيتهم حاملاً صحفاً أو مجلات وكتب إنكليزية فنحييه باحترام شديد:

- شلونك أستاذ؟

فيجيب بعض الأحيان بابتسامة وبوجه محايد غالباً:

- أهلاً.

إمعاناً في اختلاف عالمه، سافر مؤيّد عبد الأئمة ولم يعد أبداً لنعرف بعد ذلك أنّه يعيش في أميركا، لكننا لم نعرف بعد ذلك عنه شيئاً.

Twitter: @ketab_n

خالد الأصغر من مؤيّد، أصبح معروفاً بخالد الحلّي، كان صديق اخي الكبير يجمعهما اهتمام بالشعر مثل ثلاثة أرباع العراقيين آنذاك.

خالد ذهب إلى أبعد من الاهتمام فصار (الشاعر خالد الحلّي). أصدر ديواناً عنوانه (عينان بلا لون) طبعه في النجف، ولا أعرف سبب وجود عشرات النسخ منه في بيتنا حتّى اليوم وعلى الرغم من مرور حوالي الأربعين سنة على صدوره.

بالصدفة عرفت أن خالد الحلّي مقيم في أستراليا، مصدراً من هناك أوّل جريدة إلكترونية تهتم بالشعر والأدب العراقي.

ثالث الأولاد، قيس، الذي طالما أبهرنا بطوابعه التي تتركنا سابحين في خيال من أسماء وبلدان نعتقد أنّها وجدت لتصدر الطوابع فقط وأن لا شرطة لها ولا جيش ولا ملوك ولا رؤساء. طوابع فقط.

قيس كان يجمع هذه الطوابع باحتراف وشغف كبيرين. يكتب إلى كل العالم، يتبادل ولا يشتري، ينتظر على باب دائرة بريد الحلّة صباح يوم كلّ مناسبة يصدر فيها طابع ليحصل على ما يعرفه الهواة بطابع يوم الإصدار.

ذات يوم، وعلى غير العادة، نادانا ونحن نلعب الكرة في ساحة تتوسّط مجموعة من البيوت من بينها بيتهم، ليرينا شيئاً.

Twitter: @ketab_n

تحلّقنا حوله، ففتح ألبوماً أسود بعناية وحذر ليتوقّف عند صفحة تتوسّطها أربعة نسخ من طابع واحد.

أذكر من شكل الطابع حروف وصورة مرسومة بلون واحد لتمثال نصفي صاحبه يشبه المحاربين الذين نراهم في الافلام الأميركية. أفلام الحرب الاهلية تحديدا.

نظر الينا قيس، وبثقة المتمرس سألنا:

- شنو الفرق بين هذي الطوابع؟

مددنا رؤوسنا محاولين أن نقول أي شيء، متلهّفين لسماع الإجابة منه لأنّنا نعرف أنّ ثمّة مفاجأة في الامر.

بعد أن قمع محاولات تلمّس الطوابع أو الاقتراب منها أكثر من المسموح قال مشيراً إلى أحدها:

- شوفوا هذا الطابع.

رددنا مثل كورس غير منتظم:

- شبيه؟؟

- شوفو هذي النقطتين هنا.. ما موجودة بهذي الطوابع.

وأشار إلى الطوابع الثلاثة الأخرى.

رددنا كلّنا مرّة أخرى:

Twitter: @ketab_n

- شنو يعني؟

- تظلون مَ تفهمون؟.. هذا يعني طابع نادر يگدر واحد يبدله بألف طابع لأنّ بيه خطأ بالطبع.

هذا الطابع حصل عليه قيس من صديق أميركي قديم. صديق بالمراسلة شقّ له الطريق إلى أميركا التي سافر إليها منتصف السبعينات ولم يعد منها أبداً.

الأخ الصغير، سلام، كان بعمرنا. رافقنا في مباريات الكرة الماراثونية التي تبدأ عصراً ولا تنتهي إلّا بهبوط الظلام.

فجأة تحوّل سلام إلى عدو، فقد شدّ الرحال ليدرّس الثانوية في كلية بغداد، وهي مدرسة للنخبة تديرها الارساليات المسيحية وتدرّس بالإنگليزية فقط.

هذا الامتياز، أثار غضبنا، نحن ضحايا عصي معلمي العدنانية، خوّاضوا برك الأمطار، الجالسون في صفوف لازجاج لنوافذها.

حوّلنا امتياز سلام عبد الأئمة بالثانوية التي تسمّى كلية ومدرستها الداخلية، إلى صيحات استنكار نطلقها كلما رأيناه يوم الخميس قادماً من بغداد وهو يحمل حقيبة صغيرة ليقضي عطلة نهاية الأسبوع في بيت أهله.

شقّ سلام طريقه إلى الجامعة، فغيّبته بغداد في زحامها

Twitter: @ketab_n

الذي لا يرحم، لنسمع أنّه تطوّع فدائيّاً في الجبهة الديمقراطية وقاتل في فلسطين، ومثل كلّ العائدين من هناك ابتلعته السجون ليخرج منها بعد مدّة ليست بالقصيرة فيبتلعه زحام العاصمة مرة أخرى ويأخذه في رحلة بلا عودة.. مات سلام، ولا أحد يدري لماذا وكيف.

مثل معظم فنادق المدن العراقية الصغيرة. تصل الخيّام بعد صعود درج طويل. هذا هو المدخل الذي لم يكن الا باباً ضيّقاً بين محلّات عمارة عبد الرزاق شريف، على يساره محل رسول الصبّاغ صاحب العيون الكبيرة الحولاء والأطوار الغريبة وعلى يساره ستوديو كمال.. كمال المصوّر.

تناقلت الحلّة سيرة المصوّر كمال لسنين على أنّه يصوّر المظاهرات (يوم كانت هناك مظاهرات قبل أن يجعلها نظام صدّام حسين جريمة عقوبتها الإعدام) ثم يسلّم الصور إلى دائرة الأمن التي تلقي بعد ذلك القبض على المتظاهرين في الصورة واحد بعد الآخر من دون عناء السؤال والتحرّي.

لكلّ مصوّر (فاترينة) يعلّق وراء زجاجها أفضل صوره، وكان من المألوف أن يتوقف الحلاوي أمام هذه الصور، يحدق فيها للمرّة المئة، ثم يمضي إلى وجهته.

Twitter: @ketab_n

لكم استوقفتني صورة الطفلة السابحة في السماء بينما يدا أبيها (وهو حميد ابن كمال المصوّر) يفتح يديه بانتظار أن يتلقّفها، مكان الصورة، مصيف صلاح الدين في أربيل الذي تحيط بيوته الصغيرة بحميد وابنته المتجمّدة خوفاً في السماء البعيدة.

كما لكلّ حلّاوي غريم، كان مصطفى المصوّر غريم، كمال، والآخر كان معروفاً بأمر غير التصوير لحساب مديرية الأمن فقد ادّعى أبوه النبوّة بسبب وجود شامة على مؤخّرته وحين تسأل المدّعي عن علاقة الشامة بالنبوة:

- النبي محمد عنده وحدة مثلها.. وبنفس المكان.

ثنائية التنافس الفوتغرافي الحلّاوية، كسرها رستم الهنداوي، المصوّر القادم من قضاء طويريج الواقع على منتصف الطريق بين الحلّة وكربلاء.

شهرة رستم سبقته بسنين، فقد كان الحلّاويون يشدّون الرحال إليه من أجل وجه بلا ندوب أو آثار معارك لأنّ رستم يزيل ما لا تريد ويترك ما تريد، والسرّ في أقلام وفرش الرتوش التي لا يعرف أحد سرّها ولا يدري مصور آخر من أين تجلب، مهما حاول.

Twitter: @ketab_n

استأجر رستم محلاً في عمارة الدكتور غني البيرماني التي لا تبعد عن ستوديو كمال أكثر من ثلاثمئة متر، وأسماه (ستوديو رستم الهنداوي)، معلّقاً لوحة في وسط صور الفاترينة، كتب عليها عبارة بالرقعة، نسبها إلى شكسبير تقول:

(الحياة فقاعة.... فصوّرها قبل أن تنفجر).

في درس العربية في المدرسة المركزية. وحين وجّه المدرس الآثير لدي دائماً، سعدي علوش سؤالاً عمّا اذا كان أحد في الصف يحفظ بيتاً أو أبياتاً لشكسبير. اختار من بين الأصابع المتزاحمة واحداً ليجيب صاحبه على السؤال، فقام خليل النعيمي وهو الأطول والأثقل والأكثر تنطّعاً في الصف ليقول:

- الحياة فقاعة فصوّرها قبل أن تنفجر.

ارتفع حاجبا سعدي علوش غضباً حتى بانا من وراء نظاراته السوداء، واقترب من خليل:

- ولك مطي، شكسبير يگول فقاعة.. وتنفجر؟؟.. هذي گالها السرسري رستم الهنداوي... اگـ عـ عـ عـ عـ عـ عـ عـ عـ عـ د.......

Twitter: @ketab_n

فعل التقاط الصورة يعبّر عنه في الحلّة بكلمتين، فالبعض يقول (ياخذ صورة) والبعض الآخر يقول (يطگ صورة) وكلاهما يعني نفس الفعل.

ينقسم المصوّرين في المدينة ما بين ثابت وجوّال، ومنير المصوّر وأخيه رشيد من أشهر مصوّري النوع الثاني، يتجوّلان في الملاعب والحدائق العامّة، بين الشذروانات والتماثيل، أمام السينمات والمقاهي، يلتقطان الصور ثم يقتطعا من دفتر أكبر من علبة الكبريت بقليل، إيصالاً يحمل اسم (ستوديو منير) او (ستوديو رشيد) يدسّه صاحب الصورة في جيبه بعد دفعه الثمن، ليستلمها بعد يومين من التاريخ أعلاه.

من المعروف عن عبد الجبار عباس (أحد أفضل النقّاد العراقيين وربّما العرب) غرامه بالممثلة المصرية سهير رمزي. غرام شاع بين كلّ من عرفوه وجالسوه، فمهما كان موضوع حديثه جاداً وشائكاً لا بدّ من توقّفه عند سهير رمزي مذكّراً بأوصافها، بما يصحّ ذكره ولا يصحّ. وكان لا يتردّد حين الحديث عن ساقيها، أن يرفع رجله القصيرة وسط جلّاس مقهى ابو سراج، وبصوته المضخّم، يباعد ذراعيه هاتفاً:

- مو فخذ عندها..... ولاية مال لحم.

Twitter: @ketab_n

في المقهى المقابل لمديرية الأمن القديمة (نفس المقهى الذي عقدنا فيه اجتماعنا الطلّابي سالف الذكر والذي فضّه رجلا أمن بخمس دقائق صاعقة من الصفعات والدفرات) كان عبد الجبار عباس يجلس متأبّطاً كتبه، مأخوذاً بفيلم الظهيرة العربي وببطلته سهير رمزي.

بينما كانت البطلة تعرض ما تعرض، دخل المقهى منير المصوّر من أجل شاي سريع يمضى بعده وراء رزق ترتفع معدّلاته يوم الجمعة. التفاتة بلا سبب من عبد الجبار عبّاس، كانت كافية ليكتشف وجود منير ومعه العدّة الكاملة. عدّة التصوير.

بخطاه القصيرة، وبأقصى ما لديه من قدرة على القفز، انقضّ عبد الجبار على منير ليسحبه غير عابئ باستكان الشاي الساخن بين يديه، طالباً منه، وبالصوت الجهير، أن يلتقط بأسرع ما يمكن، صورة لسهير رمزي وأنّه سيدفع له ضعف السعر العادي (وهو أمر له تأثيره بسبب بخل عبّاس الذائع الصيت)، لينصاع منير الهادئ جدّاً، منفّذاً طلب عبد الجبار بأن يحضّر الكاميرا وأن لا يضغط الزرّ إلّا بأمره من أجل اختيار الوضع الذي يريد أن تكون عليه سهير رمزي بالضبط.

Twitter: @ketab_n

جهّز منير كل شيء وتسمّر أمام شاشة التلفزيون الأبيض والأسود وإلى جانبه عبد الجبار رافعاً يده بانتظار إعطاء إشارة التصوير.

ما أن حانت اللحظة حتى صاح بالصوت العالي:

- طگها منير.........

لم يسمع صوت عدسة تغلق أو يرى وميض فلاش يطلق، فأعاد الصيحة بنفاذ صبر وغضب:

- طگها منير........

وكما في الأولى حدث في الثانية.. لم يفعلها منير، فاحمّر وجّه عبّاس الموجة إلى التلفزيون وصرخ وهو يكاد ينفجر:

- ولك طگها...

وحين لم يسمع صوت الكاميرا التفت ليجد أن مصوّره قد أطلق ساقيه للريح فيتضح بعد التحقيق مع متابعي الفيلم، ان أحدهم قد همس بأذن منير، أن سهير رمزي ملك الحكومة ما دامت تظهر في تلفزيونها، وأن الأمن بانتظار ضوء الفلاش ليسحلوه من رجليه عابرين به الشارع إلى مديريتهم.

هناك لن تشفع له سهير رمزي ولا عفاريت السماء حتّى.

أحذية دجلة التي تحتلّ محلّين من محلات عمارة عبد

Twitter: @ketab_n

الرزاق شريف هي مورد الرزق الوحيد لصاحبها عبد المجيد القيسي. لكن تعامله مع طالبي أحذيته كان يوحي بأنّه يعمل من أجل تمضية الوقت لا من أجل كسب عيشه.

مثل كلّ المحلّات الواسعة (نسبياً)، يمرّ الداخل إلى (أحذية دجلة) بعد أن يجتاز جامخانتين (فاترينتين) واحدة على اليمين واخرى على اليسار، تعرضان الأحذية الرجّالية والنسائية والولّادية (كما تقول يافطة المحلّ) بعدها يدخل إلى المحلّ حيث يجلس صاحبه ومعه (الصانع) ليطلب الحذاء الذي اختاره فيجلب له بعد أن يجلس على أحد مقاعد الفورمايكا المخصّصة لجلسات القياس.

هذا في الحال العادي، أمّا في أحذية دجلة فإنّ القيسي يجلس على كرسي ضخم اختار أن يضعه في نهاية المساحة التي تشغلها جامخانات العرض، ممسكاً بمهفّته في الصيف، أو بكيس كعك أو حلاوة جزرية أو شكرية في الشتاء.

بسبب سمنته المفرطة، لا يستطيع القيسي أن يرتدي غير الدشداشة الواسعة وفوقها السترة التي تكفي لدخول ثلاثة أشخاص بأحجام متفاوتة. بعد ذلك العقال واليشماغ الذي غالبا ما يرفعه فوق العقال ليترك للهواء فرصة تبريد أوداجه الضخمة وخدوده الحمراء المترعة بدماء العافية.

يجلس القيسي على المدخل فيشكّل حاجزاً أو (سيطرة) لا يعبرها الزبون إلّا بعد المرور عليه، لأنّه، وببساطة، لا

Twitter: @ketab_n

يسمح بالدخول لمن لا يعجبه من الزبائن، بل إنّ الأمر يصل في أحيان كثيرة إلى تقريعه وذمّه، لا لشيء، إلّا لأنّه فكّر بشراء حذاء وهو برأي القيسي لا يستحقه.

بعد أن يتفحّص القيسي الزبون سيئ الحظّ، ويتخذ القرار، ليمنعه من دخول جنة الأحذية، يصبّ عليه عبارات التعنيف والاستعلاء المتلاحقة:

- أنت شفت رجليك قبل ما تجي؟.... هذا إصبع لو إيد هاون... إبهامك وحده ينرادله قندرة.. فطر رجلك تنام بيه عگربة.. روح روح حجّر رجليك (نظّفهم بالحجر القاسي) وحطّهن بالشمس يومين وارجع.. أوّل شي البس نعال فد سنة زمان وبعدين اشتري قندرة.. منو دلّاك عليّه؟.........

ضحايا القيسى غالباً ممن يأتون من القرى المحيطة بالحلّة، أو من المناطق البعيدة عن عمارة عبد الرزاق شريف، تلك البناية المستطيلة الممتدّة بمحاذاة الشطّ، الذي يجري ليذوب في الرمال البعيدة، بينما هي تذوب في مكانها الأثير... مكان القلب من الحلّة.

Twitter: @ketab_n

لا شيء فيه يختلف، لكنه مختلف في كل شيء، هو جزء مما يحيطه لكنه الجزء الذي يحولّه محيطاً حين يريد.

موفق محمد، أو موفق أبو خمرة، الرجل الذي اختصر الحلّة في ورقة اقتطعها من دفتر (أبو الميّة)، ودسّها في جيب الصدر من الجهة اليسرى ثم قال لها:

- اذهبي بسلام..

فذهبت ونامت في قلبه حتى اليوم.

لم يتركها تكابد وحدها. شال عنها وشالت عنه. لأنّه يعرف، بل أكثر من يعرف، أنّ لا قصيدة له بغيرها ولا شعر.

لا قصيدة مثل قصيدة موفق، قد تقرأ أكثر من قصيدته شعرية وجمالاً وقد تقرأ أقل لكن الأكيد أنّك لن تقرأ مثلها.

يطحن موفق الأحرف بيده العارية، أو بحجر التقطه من طريق فرشت فيها الحلّة عباءتها السوداء الحائلة، حتّى تصير الحروف طحيناً يديفه بلوعة الفقدان والضحك المرّ وعدوانية

Twitter: @ketab_n

يفجّرها فجأة لتخمد حين ينكشف الليل فيرى أحبّته. ضحايا براكينه، وهم يسوّون آثار ثوراته على قمصانهم الرخيصة الحانية.. هكذا يصنع موفّق خبز اللّغة.

« يا طفل الورد

اتهجى كلّ الأنهار ولا أسمع اسمك

يا أيها الولد الفرات

يا نهر الروح الطلق الأخّاذ »

لا يلبس موفّق جلباب الشاعر. فللشاعر جلباب صنعه غير الشعراء، أصحاب القصيدة الواحدة التي ضلّت الطريق إلى (ألف باء) أو (طريق الشعب) أو (الجمهورية). يتأبّطها (الشاعر) دهراً تتفتّت فيه الصحيفة التي ابتلت بنشرها من عرق الإبط والعرض الإجباري على ذوي القربى وأبناء السبيل.

هؤلاء صنعوا لأنفسهم جلباباً من العبوس الدائم وكتم الضحك.

موفق لم يلبس يوماً هذا الجلباب. بل كان الأخير، أي

Twitter: @ketab_n

الجلباب الشاعر، يتبعه مثل غيمة يمطّرها أينما شاء وحينما شاء.

موفق لايبرّد نهايات الكلمات ولا يصقل أوجهها أو يشذّب زوائدها، بل يخرجها من بيت النار آجرّة أو گرصة خبز خارجة من فرن حجري. قد تسلخ جوفك لكنّها تدفّئك وتمنحك غفوة الشبعان.

لا أعرف إن كان موفق أبو خمرة معلّمي أم مدرّسي أم صديقي أم أنّه كلّ هذه الأشياء، وربّما لا يكونها جميعاً. لكنّه يقين متجدّد أخذ لنفسه زاوية الذاكرة وجلس على حجرها..

هو من جيل أخي الكبير، وصديقه. ولأنّ بيني وبينه عشر سنين، انتظرني لأكبر فنصير صديقين.

ذات يوم ممطر، وثقيل المطر. اكتظّت فيه قاعة المعارف التي صار اسمها بعد ذلك قاعة التربية، بالناس، حتى الدرج بين الكراسي افترشوه. وفي الصف الأوّل جلس حزب السلطة ومسؤلو الحلّة.

المناسبة، مسابقة الشعر السنوية لثانويات الحلّة، وأنا كنت المتسابق عن الإعدادية المركزية، مدرستي.

سقف القاعة الخشبي لم يمنع المطر من النزول حبالاً

Twitter: @ketab_n

على رؤوس الحشد الذي لم يتحرّك من مكانه..... كان المطر يسقط في كلّ مكان في القاعة، حتّى على رؤوسنا نحن (الشعراء) المرصوصين على المسرح مثل منتظري قطار، إلّا على الصف الأوّل، صفّ مسؤول الحزب ومدير التربية عبد عاصم أبو ناصرية.

في تلك الليلة، كانت تجلس إلى جانبي (شاعرة) سمراء مثل الحنطة، ينسدل على وجهها شعر فاحم مثل حبر الخطّاطين.

ما بين شاعر وآخر، كانت تهمس لي بشيء لا أفهمه، لكنّي اجيب عليه بهزّة رأس تعني مرّة (نعم) وتعني مرّة (لا) من دون أن أعرف عن ماذا (نعم) وعن ماذا (لا).

غير هذا، لم تكن هنا قوّة تجعلني ألتفت إليها، كيف التفت لفتاة، حتّى ولو كانت تشبه القمر في اكتماله وأنا (الشاعر) الذي حمّلتني الإنسانية عذاباتها فامتلأت ثورية حتّى كاد المعذّبون في الأرض يخرجون من أذني بعد أن طفح بهم قلبي.

حين نودي على اسمي اهتزّت القاعة وارتجّت، فأثار الأمر انتباه مسؤول الحزب كوني من عائلة محكومين بالإعدام، لكن ما عاد هناك ما يمكن أن يفعله مدير التربية فقد بدأت القراءة بتضمين لشاعر مصري اسمه فرانسوا باسيللي:

« اليوم أستعيض عن فداحة

الحكمة بالبراءة

Twitter: @ketab_n

وأستعيض عن دموعنا

براحة الشجن

تهلّلي تهلّلي

فاليوم لا ثياب لي ولا وطن »

لم يبق دفتر في القاعة إلّا وطار في الهواء. صفّق أو هتف من سمع ومن لم يسمع، فهم أو لم يفهم. فالتصفيق كان جاهزاً حتى من دون قصيدة لأنّه في مكان ما سيحسب تصفيقاً ضدّ السلطة من دون أن تستطيع الاأخيرة أن تفعل شيئاً.

كان اليوم الأهم في حياتي ربّما. قرأت وانتشيت وأنا الذي لم اعتد قراءة ما أكتب حتّى لنفسي.

ما أن انتهيت حتى أعلن عريف الحفل أنّ القصيدة ليست ضمن المسابقة لأنّ صاحبها لم يخض التصفيات التمهيدية.

انفضّ السامر والدنيا تمطر. وحتّى أستطيع استيعاب ما حصل. ودّعت المحتشدين في باب القاعة ثم مضيت عابراً أرصفة (حي بابل) الممطرة.

الساعة تجاوزت العاشرة وبلّل المطر وصل إلى ركبتيّ، وأنا ماضٍ في محاولتي لتحديد ما الذي حصل بالضبط.

أكان من طار فوق سحابة التهليل والهتاف هو أنا؟

Twitter: @ketab_n

أكان من داس على انطوائه وانزوائه هو أنا؟

كلّ السلطة جالسة ومن كان يشتمها صراحة هو أنا؟

وسط هذه الأسئلة التي أردت لها أن تبقى أسئلة إلى ما شاء الله، وصلت أمام المكتبة العامّة بعد أن عبرت بيت المحافظ هاشم قدّوري، ومن بين ظلام مقهى (الهلالي) الذي لم يكن إلّا بستاناً سويت أرضه ونشرت بين نخلاته الباسقات كنبات الخشب والحصير. خرجت ثلاثة ظلال لرجال يقفزون متحاشين برك المطر الصغيرة حتّى وصلوا الرصيف.

ارتبكت أوّل الأمر حتى صرخ أحدهم من بعيد:

- هاي شسويت اليوم.. ميرابو ما دگ دگتگ.

ما أن سمعت الصوت حتّى نزل قلبي برداً وسلاماً، فقد كان صوت موفق محمد، ثم عرفت بعد أنْ اقترب أنّ معه قاسم محمد حمزة، صديقي الناقد الذي أعدم في نهاية السبعينات، وحسن عمران، المدرّس والمترجم الذي ضاقت به الدنيا وكاد الفقر أن يميته حيّاً حين فصل من التدريس لميوله غير البعثية، مما اضطرّه للهجرة إلى اليمن فيكتب فيه موفق إحدى قصائده التي اجتاح نارها هشيم العراق الطاوي على ضيم الجوع والتسلّط:

« لا تيأسن يا حسن

Twitter: @ketab_n

اشما يجور الزمن

وتعيث بينا المحن

لا تيأسن يا حسن

....

ما صارت ولا جرت

ويا ريت عيني عمت

ما أنصفت من صفت

ندوّر خبز باليمن

لا تيأسن يا حسن »

لا يتخيّر موفق محمد لغته. لا يتعالى عليها، فهو مثل عجوز عراقية كل شيء لديها نعمة، حتى الشهيق.

فالقاعدة العراقية هي الموت والفقدان أما الحياة فهي الاستثناء الذي قد يأتي وقد لا يأتي.

لأنه عراقي صميم. حوّل اللغة إلى نعمة ينبغي أن لا نتبطّر عليها.وإلّا عبس الله في وجوهنا (أكثر مما هو عابس وصادرها غاضباً، وكأنّه لم يصادرها أصلاً.

Twitter: @ketab_n

مثل خزاف أعمى، يمدّ يده في ظلام الأيّام، مغترفاً أقرب الصلصال إلى أصابعه التي تشبهه، ويملأ كفّه الثخين، ثم يثبّتها على دولابه الدائر دائماً.

الطينة عند موفق حرّة، موطنها شطّ الحلّة. هو لا يسأل إن كانت فصيحة أم بالحلاوية المحكية، أليس التخيّر بطراً تزول به النعم؟

« أسمعت عن هذا القصاص؟

شعب يسعّر في جهنم

ثم يطفأ بالرصاص

أسمعت عن هذا إله الكون؟

جرّب مرة واهبط

وكن فرداً عراقياً

سترى جهنمك المهولة

جنّة مثلى

وتطلب من أسافلها اللجوء

ستقول لا تبت يداك أبي لهب

Twitter: @ketab_n

وتقول ما هذي القيامات

التي تعلو وتعلو ثم تعلو

ثم يقتلك الغضب»

لست هنا في موقع التقييم النقدي لشعر موفق، فليس لي مثل هكذا موقع. لكن من يعنيني هو موفق نفسه، صديقي ومدرسّي وشريكي مثلما هو شريك ثلاثة أرباع العراقيين في لوعة الفقدان التي لا أعرف من خصّنا بها وأدخلنا في تنورها.. ونسانا.

لم يستسلم موفق لنار التنّور وحاول أن يخمدها بالضحك، وإن كان ضحكا أسود كالليل، لكنّه الضحك. مجذافه الذي طالما ضرب به الماء عميقا وهو يعبر بقاربه البابلي من (هذا الصوب) إلى (ذاك الصوب).

في منتصف السبعينات، جاء سعدي يوسف إلى الحلّة. وفي قاعة مكتبتها العامّة التي انتقلت آنذاك لتتاخم إعدادية الحلّة للبنين، قرأ سعدي أجمل قصائده التي سبقها بمقدّمة قال فيها إنّه يخجل من الأضواء في « بابل الخمرة والقانون والألسن المشتبكة».

ولأنّ الحلّة لم تعتد أن ترى دائماً شاعراً يخصّها بأمسية، كانت دائماً تحاول أن تظهر أقصى ما يسمح به ليلها من احتفال.

Twitter: @ketab_n

سعدي لم يكن (آنذاك) من محبي الاحتفاء به. كان غالباً ما يغتنم الفرصة ليهرب من المحتفين ليجالس من يحب. في تلك الليلة كانت حديقة بيت موفق المستأجر مكاناً لحلقة جمعته بسعدي وعبد الجبار عبّاس.

ربّما كانت الواحدة بعد منتصف الليل. كنّا نجلس متأخّرين في مقهى (سبعة نيسان) الذي لم يكن يفصله عن بيت موفق غير شارع عبّده بطل العراق في كمال الاجسام على الگيّار.

لم يحتج البطل العالمي إلّا إلى يديه العاريتين وشيبك من الحجم العملاق ليمدّ بالقوّة البشريّة المجرّدة، أكبر عجينة قار عرفتها الحلّة منذ أن بلّط بابلي بمواصفات الگيار، شارع (الموكب) البابلي أمام معبد مردوخ الذي مازال القار فيه حيّاً يرزق.

لأنّ مقرّ الحزب لم يكن يبعد سوى أمتار عن بيت موفق، كان الكلّ حذراً، لا يأتي من الحركة إلّا أقلّها، ومن الصوت غير الهمس، إلّا الثلاثة الذين خرجوا من ظلام الشارع الفرعي ليصبحوا في وسط الشارع العريض.. شارع الحزب وحرّاسه المتربّصون.

الثلاثة هم سعدي يوسف وموفق محمد وعبد الجبار عباس الذي كان ممسكاً بمقود درّاجته الخضراء التي اشتهرت باسم (العراق).

Twitter: @ketab_n

لم يكن المشهد مألوفاً، أو متوقعاً.

سعدي يحاول أن يركب دراجة عبد الجبار عبّاس وموفق ممسك بـ (اللّشة)، أمّا عبد الجبّار، فكان يضع يده اليمنى تحت السرج (المقعد) ليوازن (العراق) حتى يضمن انطلاق سعدي الغشيم من دون أن تطيح به الدرّاجة.

مال سعدي يميناً ثم مال شمالاً فصرخ به موفق:

- لك أبو حيدر لتباوع عالسكان...

استمع سعدي إلى النصيحة فتوازن (العراق). حينها جاءت دفعة عبد الجبار الخبيرة من تحت المقعد، ليبدأ سعدي (بضرب البايدر) أي بدفع الدواسات بينما الريح تعبّئ سترته الخضراء الفاتحة.

حين تمادى سعدي في مواجهة الريح، احمّرت أوداج عبد الجبار البيضاء وزمّ فمه ومعه شاربه الأشقر الكثّ وصرخ وهو يمسك بطنه ضاحكاً:

- ولك سعدي.. ولك خبل.. راح يلطشك العراق على وجهك....

لا أدري إن كان العراق قد كفأ سعدي على وجهه أم لم يفعل. لكن ما أنا متأكّد منه، هو (زحف) حرس الحزب الذين ما أن وصلوا حتّى جمع عبد الجبار عبّاس كلّ نصيبه في

Twitter: @ketab_n

الحياة من الجرأة التي ضاعفها العرق أربع مرّات على الأقل، ليصرخ ناهراً الحرس:

- ديرو بالكم تلمسوني، تره باچر صحافة بيروت عن بكرة ابيها تطلع بمانشيت اسود مثل وجوهكم يگلب الدنيا على روسكم:

« اعتقال الناقد العربي الكبير عبد الجبار عبّاس ».

حلقة موفق التي اعتادت أن تجلس حتّى الغروب في مقهى الجندول ثم تتفرّق إلى نوادي المدينة، تضمّ بالإضافة إليه، يحيى أبو زكي وحسن عمران وجعفر الزرگاني وقاسم محمد حمزة وعبد الرحمن اطيمش.

حسن عمران، مدرّس الإنكليزية الذي يخبّئ أسى لا يحتمل وراء نظّارته الطبية السميكة، أمّا جعفر الزرگاني فكان يردم الهوّة مع من حوله بالحنقبازيات والتصنيف الذي غالباً ما ينتهي بـ (زيگ) من عفطته الشهيرة.

قاسم محمد حمزة، الدمث ذو الضحكة الخافتة الذي كان يتحمّل سوط موفق وهو ينزل ويصعد على ظهر الحزب الشيوعي العراقي (المذعن) للبعثيين، والذي اتضح بعد ذلك أنّه كان على حقّ.

Twitter: @ketab_n

عبد الرحمن اطميش الهارب من مدينته الناصرية ومن بعثيته القديمة إلى الشعر، إلى يوميات مالك بن الريب ليوسف الصائغ تحديداً، كان غالباً ما يقطع الحديث وهو يصيح:

- استحلفكن نساء أبي.........

اطميش كان يفعل ما لا يمكن أن يخطر في البال. كان لا يتوقّف عن إرسال البرقيات إلى أحمد حسن البكر وصدام حسين يسأل فيها عن مصير نصيبه من ثروات العراق الطبيعية. آخر برقية كتب فيها:

«أطالب بحصتي من كبريت المشراق»

تعوّد عبد الرحمن إرسال هذه البرقيات متّكئاً على كونه بعثي قديم جداً. ولأنّ لصبر بغداد حدود، أخرسته برقية من القصر الجمهوري بسطر واحد:

« كف عن مخاطبة المسؤولين، وإلّا... »

كانت هذه الـ (إلّا) كافية لمسح ملكة من أي أنواع ملكات الكتابة لديه. كفّ عبد الرحمن وحوّل طاقته في الحفظ والرواية، وبكامل قوتها، نحو الشعر ليصبح الإنصات إليه متعة، وإنصاته متعة.

يحيي أبو زكي هو الشيوعي الأكثر تعرّضاً للتعذيب بين الموجودين. كان منتميا إلى ما عرف بجماعة عزيز الحاج (القيادة المركزية) التي اختارت أهوار العراق منطلقا لعمليات

Twitter: @ketab_n

عسكرية لم تنجح ضدّ النظام، فوقع من وقع بيد ناظم گزار، مدير الأمن العام الذي عرف باستمتاعه بتعذيب المعتقلين بنفسه.

كان نصيب يحيي مكواة في درجة التسخين القصوى، ألصقت على طول الجهة اليسرى من وجهه، فذهبت بعينه وخدّه وجزءاً من حنكه. تاركة أثراً لا يمحى على رقبته.

الشعر الكثّ المجعّد والنظّارة السوداء الدائرية الكبيرة أصبحتا العلامتان الأبرز لأبي زكي، الجالس دوماً على إحدى كنبات (الجندول)، مديراً وجهه للشارع، منتظراً مرور مدرسات المتوسّطة والثانوية علّ وعسى.

ذات يوم، وصل موفق إلى الجندول ليجد أبو زكي قبله على غير العادة:

- شجايبك بهالظهرية؟

- ....

- شبيك خرسيت؟

- لگيتهه.

- شلگيت؟

- الخطيبة.

- يعني خطبت؟

Twitter: @ketab_n

- لا.. راح أخطب.

- لعد المن لـگيت يمة؟

- مدرّسة من أهل القاضّية اسمها (جنان).

- هاي اللي تدّرس انگليزي بابن حيان؟

- تعرفها؟

- هاي صديقة أم عدي. (زوجة موفق)

- هلو عيني.. ثلثرباع المشكلة انحلت.

- ....

وقف أبو زكي على طوله وفرقع إصبعيه ثلاث مرّات في الهواء، ولأنّ المشهد غريب برمّته شده موفق من ذيل قميصه واجلسه في مكانه:

- يا مشكلة اللي انحلت؟

- الخطبة

- يا خطبة؟

- باچر أم عدي تروح تخطبلياها.

- ....

Twitter: @ketab_n

بعد أربعة أيام كان أبو زكي يجلس على نار الانتظار مثبتاً نظره باتجاه بيت موفق الذي سيحمل له نتيجة زيارة أم عدي الأولية (للخطيبة). كانت الزيارة من أجل جسّ نبضها في ما إذا كانت توافق على الخطبة أم أنّها ستئدها في مهدها.

بعد أن كادت روح أبو زكي أن تصل أنفه الذي أخذ نصيبه من موقعة المكواة في معتقل قصر النهاية، بأنّ موفق وهو (يلولح) بالجريدة كما تعوّد، وقبل أن يصل المقهى، صاح أبو زكي:

- هاااااااااا؟

- اوكَف خل آخذ نفس.

- يا نفس يا موفق هي (إي) لو (لا).

- لا.

- صخام وجهك ابو زكي، ليش لا؟

- سألت أوّل سؤال: شعره سبل لو مو سبل (ناعم ام خشن)، بس كَالتلها أم عدي مو سبل، كَالت لعد ماكو نصيب.

هنا ضرب أبو زكي كفّاً بكفّ وهو يتحسّر بحرقة:

- ليش يا أم عدي.. كَوليلها (شبل).......

(كان يلفظ السين شيناً بسبب المكواة إيّاها)....

Twitter: @ketab_n

هنا لم يتحمّل موفّق الموقف فانفتح على الآخر:

- افرض گالتلها (شبل).. اي مو المرة أكيد راح تنزل شوية شوية، شراح نگللهه عالعين الطايرة لو الشفة المشروگة بالنص لو الحاجب النازل جوه العين لو الحنچ اللي مثل يدّة المنشار لو الرگبة المصموطة؟

أبو زكي احمد ربك الخطبة انتهت يم الشعر.. لا يابه (ليش ما گلتلولها شبل).......

قال جملته الأخيرة ثم ارتمى على ظهر الكنبة بينما أبو زكي المذهول يخفي كلّ أنواع انفعلاته وراء نظّارته السوداء.. السوداء جدّاً.

لم يعرف موفق محمد أن يهادن أحد. حتّى أنّه صاحب براءة اختراع تحويل المشاكسة إلى وظيفة سياسية واجتماعية وأدبية.

حين أعدم البعثيون المدرّس الشيوعي حميد الصگر، وبالرغم من أنّ القمع بلغ يومها ذروته، كتب موفق قصيدته الشهيرة التي أهداها في امسية شعرية عامّة إلى الصگر:

« يا قطاراً صاعداً نحو شمال الوطن

يا قطاراً نازلاً نحو جنوب الوطن

قف على بابي وخذ من شجني

Twitter: @ketab_n

عربات وانطلق في الزمن »

هذا الحزن الذي يمشي مع موفق. يأكل ويشرب معه. يسخر معه. يشتم معه ويحمل معه كيس الباذنجان وخبز المعمل. هذا الحزن يتحوّل إلى ضحك بمفعول لا ينتهي.

أيّام الحصارات. حصار النظام السابق وحصار القدر. دفعت الحلّة ثمناً غير قليل بعد أن صنفتها حكومة (الزبيدي) التي أعقبت انتفاضة ١٩٩١ على أنّها محافظة (قذرة) كونها من المحافظات التي أطاحت بالنظام بساعات. الأمر الذي بقي في نفس صدام شخصيا، وهو أساساً يعتبر الحلّة مدينة لا تحبّه.

بعد أن وصل حال الناس إلى بيع شبابيك بيوتهم وقدور طعامهم وتحولت المروحة وباب البيت إلى (كماليات)، صار شراء ملابس داخلية جديدة ترفاً ما بعده ترف، فالقاعدة هي أن ترقّع ثم ترقّع حتى لا تبقى غير الرقعة.

وسط هذا الضنك المميت. هبطت على موفق محمد إرسالية من تاجر القطنيات باسم علوش تحوي طقماً من الملابس الداخلية. الإرسالية وقعت على قريحة موفق وقع الغيمة الماطرة فأرسل لباسم قصيدة بالكاد خرجت منها بهذه الأبيات، أمّا الباقيات فلا مجال لنشرها إطلاقاً:

Twitter: @ketab_n

« وردة باسم طيزي بس يدعيله

والخصاوي مريّعة تغنيلة

بس اله تغني سترها باللباس

ابعينه ماحط (اولچي) وجاب القياس

غني طيزي وكال دگلنه اساس

وبعد يوم يربعّه بفانيلة »

هذه القصيدة التي امتدت إلى خمسين بيتاً لم يدعها باسم علوش تمرّ بسلام، فتربّص لموفق حتى أمن ودخل السوق. فسحب مسدسه الـ (نمرة تسعة)، الجاهز للإطلاق، وقفز من وراء الواجهة الخشبية لمحلّه، حينها وصلت موفق صرخة التحذير (القصيدة وقضيتها كانت قد صارت على كلّ لسان)، ليرمي ما بيده وينطلق راكضاً بأوسع خطوات عرفها في حياته، بينما باسم يركض وراءه مطلقاً النار في الهواء ليزيد توتياء سقف السوق ثقوباً على ثقوب. لم يفلح باسم في الانتقام بعد أن اختفى موفّق وذاب في الزحام.

أسماه عبد الجبار عبّاس (ملك الضيم) فأيّة قدرة على كلّ هذا الضحك مع كلّ هذا الضيم؟

الجواب على سؤال مثل هذا هو الجواب على سؤال

Twitter: @ketab_n

الحلّة. حمّالة الجوع والموت الجماعي الذي طال موفق محمد فاقتطف زهرة روحه، ابنه، الذي لم يهتد إلى قبره حتّى اليوم.

« كل شيء جديد

هل كان ابني حلماً في خاطر

كل شعيرات التسديد؟

أترى يلمس ظلّي ظلّك في ثقب الإبرة؟

أسمع صوتك في حبّة قمح تنزف

تحت الأرض

وتكاد تضيء »

بلا ابن. يكاد موفق أن يضيء تحت الأرض. مثل الحلّة بلا موفق. تمضي فيها الحياة ولكن بنصف قلب مطفأ.

Twitter: @ketab_n

في الحلّة مجانين. هذا ليس بالأمر الغريب، فهم موجودون في كلّ مدن الدنيا، لكنهم في الحلّة مختلفون.

الاختلاف في شكل الجنون، أي في طريقة توصيل المجنون لجنونه، إن صحّت هنا التسمية.

معظم مجانين الحلة لا ينعكس فقدانهم عقولهم على حركتهم أو على غرابة سلوكهم (إلّا بعض منهم) بل ينعكس على ألسنتهم، وهي في الأساس داء الحلّة ومصدر ابتلاء المدينة وبلائها.

مجنون الحلّة لا تحسّ بجنونه إلّا بعد أن يتكلّم. وفي بعض الأحيان لا يشي أوّل الكلام بحال صاحبه فتحتاج منه أن يسترسل ويتشعب في الموضوع. حينها تتيقّن أنّ روابط الكلام افلتت وطار أوّله ليحطّ في آخره، وأنّ جملاً لا علاقة لها قد مدّت برأسها دون أن تكون لها حاجة أو علاقة بموضوع الحديث الذي غالبا ما يكون ضمن التخصّص الذي عرف به هذا المجنون أو ذاك.

Twitter: @ketab_n

مجانين الحلّة متخصّصون، وغالباً ما يكون موضوع التخصّص هو سبب إخراج صاحبه عن جادة العقل.

هذا الخروج لا يعني التخلّي عن جادة الصواب، بل على العكس من ذلك، إذ تصبح جادة الصواب أكثر وضوحاً وتأكيداً.

في الحلّة مجنون مختصّ بعبد الكريم قاسم وآخر بالتاريخ الإسلامي، وهناك من يحصر عروضه بتقديم وصلات مختلطة من عبد الباسط عبد الصمد وجمال عبد الناصر.

أبو إلياس، رجل تجاوز الخمسين، ممتلئ بعض الشيء، يرتدي غالباً دشداشة حائلة يتحزّم عليها بحزام عريض كان لونه بنيّاً ثم استحال إلى لا لون.

كان يعمل في مقهى على طرف المدينة الجنوبي، تحديداً في منطقة اسمها (الكوكا)، لأنّ معملاً للكوكا كولا يقع على أطرافها.

أبو إلياس يعمل وينام في المقهى، بتعبير أدقّ، ترك ليفعل ما يريد عطفاً على حاله.

كان بلا أهل ولا عقل، والأخير يحضر فقط مع ذكر عبد الكريم قاسم الذي أحبَّه حدّ العبادة، وحين رآه في ذاك اليوم المشؤوم، (التاسع من شباط ١٩٦٣) وهو مكوّم على إحدى ارائك تلفزيون بغداد بعد إعدامه، طار صوابه ولم يعد.

Twitter: @ketab_n

تقول الرواية التي يتناقلها عنه أهل الحلّة، إنه وقف يومها امام الشاشة صامتاً، وحين سحب رئيس العرفاء رأس الزعيم، (هكذا كان يسمى عبد الكريم قاسم)، ثم بصق عليه، التفت أبو ألياس إلى الجالسين، وبصوت واثق قال:

- هذا مو الزعيم.

لا يفعل منذ ذلك اليوم وهو لا يفعل شيئاً غير إثبات ما اشترك به مع كثير من العراقيين، أنّ عبد الكريم قاسم حيّ يرزق وأنّه سيعود ليلقّن البعثيين درساً لن ينسوه.

المجانين المسالمين مثل أبو إلياس، اعتاد الناس مناكفتهم من أجل استفزازهم. فاستثارته لا تحتاج إلّا إلى جملة قصيرة يعرفها الجميع:

- عمي يازعيم.. الزعيم مات.

ما أن يسمع أبو إلياس هذه الجملة حتى يلقي ما بيده مستديرا نحو مستفزه، مجيباً بالصوت العالي واليدين المتراجفتين انفعالاً:

- الزعيم مات.. اجيت وياك.. سيارته وين؟؟

ما أن يتمّ أبو إلياس جملته المفحمة، حتّى يعود منتفخاً ليلمّ ما ألقاه على الأرض غاضباً، عائداً إلى الشاي، ممتلئاً بشعور المنتصر المجهز على خصمه بالجملة القاضية وسط ضحكات الجلاس المتعالية.

Twitter: @ketab_n

حين سطع نجم جيفارا في نهاية الستينات، صار حديثاً يومياً في مقاهي الحلّة، ولأنّ الاسم تردّد كثيراً، استفز أبو الياس أن يأخذ أحد محل الزعيم الذي لا يتخيّل أنّ الناس ستكفّ عن ذكره يوماً. سأل ذات يوم:

- منو هذا جيفارا؟

وحتى لا يدخل الجالسون في إشكالية ونزاع مع أبو إلياس عمّا إذا كان الزعيم أهم أم لا. أجابه أحدهم:

- هذا صديق عبد الكريم قاسم.. من نفس الدورة.

لم يعلّق أبو إلياس.. وأدخل جيفارا في رأسه من دون أن ينتبه أحد.

حين مات صديق الزعيم الذي ظهر فجأة، صار همّ أبو إلياس همّين، هم الزعيم وهم صديقه. ولأنّ الزعيم حيّ فلا بدّ أنّ موت صديقه كذبة يروّجها البعثيون وأنّه حيّ كذلك.

هنا الاستنتاج أكّدته صورة جيفارا التي نشرها الأميركيّون بعد مقتله. الصورة التي أيقظت ذكرى صورة الزعيم بعد إعدامه في مبنى تلفزيون بغداد.

مضت الأيام، وصار الثائر الأرجنتيني ذكرى. ذات مساء، أرسل (الچايچي) أبو إلياس، ليرمي (بثل) الشاي في الشطّ.

Twitter: @ketab_n

حين عاد، سأله أحدهم متحرشاً:

- شو تأخرت أبو إلياس؟

- والله اخرني صديق.

- صديق؟.. منين طلعلك هذا الصديق؟

- ليش، بس انتو عندكم اصدقاء.. احنه هم.

- اي ادري.. هذا صديقك ماله اسم؟

- جيفارا.

- ....

- طلعلي من الشط. گعد يمي على المسنّاية، سولفنا على عبد الكريم، وگبل ما يروح، انطاني باكيت (تركي) وشخاطة واجازة اسبوعين.

في تلك الأيام، كان قد مضى على انقراض سجائر الـ (تركي) أكثر من عشرين سنة، أمّا الإجازة فهي تعود لأيام عسكرية أبو إلياس، وهي أيّام لا يتذكّرها أحد. بقي خروج جيفارا من الماء في ذاك الشتاء القارس، وهو تساؤل صدر من أحد الجالسين فسمع أكثر من صوت يردّ عليه:

- اي هي ظلّت على هاي... يعني باقي السالفة كلّه مضبوط؟!

Twitter: @ketab_n

هذا الخيال المنفلت، كان ينقلب فجأة إلى خيال منضبط فيتحوّل أبو إلياس إلى منتقم من مناكفيه مثيري غضبه، الذين يصرون على تذكيره بأنّ عدم ظهور الزعيم يعني أنّه ليس حيّاً كما يحاول أن يثبت.

عبّاس عاجل (حامي الهدف) ورديفه (جبرداگي)، كانا من الهاربينِ المزمنين من الخدمة العسكرية، وكانت المقهى مخبأهما المفضل، لأنّها ملاذ آمن لهما بسبب معرفتهما بجميع الجلّاس وأيضاً بسبب وجود (طبگة) وهي سقيفة خشبية يمكنهما الصعود إليها والاختباء الآمن بين أغراضها المكدّسة حتّى يزول خطر غارة الانضباط العسكري التي تشنّ على المقهى بين فترة وأخرى.

ذات مساء، وصل الخبر إلى عبّاس وجبر بأنّ هناك اثنين من الانضباط العسكري يقتربان من المقهى. صعدا إلى الطبگة كالعادة، وفي طريقهما، أوصيا أبو إلياس بإبلاغهما حين زوال الخطر ليعودا إلى طاولة الدومنة.

سحب أبو إلياس مقعداً، وجلس عند مدخل المقهى مراقباً رجلي الانضباط العسكري وهما يذهبان ويعودان متأبطين عصاتيهما العسكريتين من دون أن يدخلا المقهى التي لم يقصدانها بل كانا يتمشّيان في (دورية راجلة) حسب التعبير العسكري.

Twitter: @ketab_n

بعد أن ذهبا وعادا ثلاث مرات، تململ أبو إلياس. غيّر جلسته مرتين وثلاث، نفذ صبره فنادى بعالي صوته:

- اخوان...

التفتا نحوه مستغربين !

- شتريد؟

- انتو مو انضباطية؟

- اي انضباطية؟

- اذا انضباطية.. مو شغلتكم تكمشون فرارية؟

- اي.

- لعد اذا عباس عاجل وجبرداگي خاتلين بالطبكة، انتو المن تكمشون.. ريما أم عظام؟

طيران العقول العاشقة كان من بين أكثر حالات الجنون شيوعاً في الحلّة، لكنه جنون مسالم يحدث غالباً نتيجة فشل علاقة غرامية عارمة. ليدخل العاشق بعدها في شبه غيبوبة وانعزال تام يصاحبه اهتراء المظهر والمشي المستمرّ والكلام مع النفس.

هذه الحالة لا يخرج منها العاشق إلّا بفعل فاعل مؤذٍ يمرّ بجانبه مطلقاً اسم الحبيبة الضائعة. يكفي أن تصيح:

Twitter: @ketab_n

- صبـ يـ يـ يـ حـ حـ حـ حـ حـ حة....

فيهبّ العاشق ملتقطاً أقرب حجر (كانوا ماهرين في قذف الحجارة) ليقذفها نحوك.

نادراً ما كانوا يخطئون، لكن المتحرّشين غالباً ما يحتاطون بالاختباء وراء (درع) طبيعي كأن يكون شجرة أو جداراً.

ابن شعابث، لم يكن من مجانين السياسة ولا الحبّ، كان مجنوناً في فقه وتاريخ السيرة النبويّة. لا يكتفي بسردها في جلسته في رأس سوق الحطابات، بل يهتمّ بالتعليق على أحداثها ونصوصها، معترضاً ومصوّباً بالصوت الجهوري العالي.

- أنت يا موسى (يقصد النبي موسى)، الله سألك سؤال واضح محدّد: ماذا بيمناك؟ أنت شلازم تجاوب؟.. كلمة واحدة، تگوله (عصاي) وتسكت. وهو إذا يريد يكمل، راح يگلّك: شتسوي بيها؟ ذيج الساعة تبتدي بالخرط مالتك: أهش بها غنمي ومدري شتسوي بعد، حتى قولك، ولي فيها مآرب أخر.

لكن الله ما سألك، گالك هذي شنو، گلّه عصايتي.. مو تروح خارط كل هالخرط والله گاعد ينتظرك شوكت تخلّص؟

النبي كلما اخذ ثگل، كلما أحسن، لان هذا اللي سويته يسموه (هيلگة)، ونبي مهيلگ محد يمشي وراه.

Twitter: @ketab_n

يلتفت شعابث إلى المتجمّعين حوله، ثم يستدير بحركة مفاجئة:

- وانت يا الله، على اي اساس اخترت هذا يصير كليمك، وانت گبل شوية تگول عليه (يمتمت)، وهو گايلك (اجعل لي أخي هارون وزيراً)، من دون كل هالعالم تروح تحطه كليمك.. على أي اساس؟

تعيف أهل الفصاحة والبلاغة وتعيّن هذا اليمتمت كليمك؟ ترا أنت هم عندك سوالف ما تنجرع مرات..

بعد درس التفسير، لا بدّ أن يعرّج شعابث على موضوعه الأثير. النبي محمد وعلي ابن ابي طالب، ضارباً على وتر المستمعين الحسّاس الذين نادراً ما يعترض منهم أحد، على رفع شعابث الكلفة مع الله وانبيائه.

- أنت يا محمد، طردوك من مكّة وجابوك للمدينة، غير تگعد راحة؟؟.. يا قافلة تفوت تنط عليها.. شنو؟

وبعدين يا مشكلة تطيح بيها تصيح لهذا المسكين علي ابن ابي طالب، وتطلّعه گدامك.. شنو شايفه سايب.. ما عنده أحد؟

هنا تتعالى احتجاجات مستمعين حمي دمهم معترضين على وصف الشيخ شعابث لخروج النبي محمد من مكّة بأنّه خرج مطروداً، فالصحيح أنّه خرج مهاجراً.

Twitter: @ketab_n

هنا، يمتشق الشيخ سيف التفسير اللغوي صارخاً بوجه معارضيه:

- لا انت تفتهم، ولا هذوله يفتهمون (يشير إلى حلقة الواقفين).. لو انت تهاجر من ولاية لولاية، هذي هجرة مؤقتة، طوعية أما عدا ذلك فهذا يسمى (إجلاء)، وعليه يا مطاية، لازم تسمون الهجرة (جلوة).

بعدين شدعوة صرت عصبي، اذا مهاجر واذا مطرود، شنو راح تفرق، تاليها رجعلهم مكة وخلاهم مثل البزازين.

هادي جابك لم يكن مجنوناً ولا (رقماً)، بل كان في حكمهما كونه المدمن الأشهر في الحلّة، يخترق شوارعها وقنينة العرق تمدّ برأسها من جيب سترته التي يرتديها على دشداشة رمادية صيف شتاء.

في فترة فقدان السلع الاستهلاكية التي دشّن فيها البعثيون عودتهم الثانية للحكم في نهاية الستينات وبداية السبعينات، صار من المألوف أن ترى طوابير ممتدّة أمام محلّات البيض ومعجون الطماطم والبطاطا وقائمة طويلة من حاجيات العراقيين اليومية.

تفاجأ هادي جابك وهو يقف أمام محلّ عزيز فرانسوا ليأخذ تموينه اليومي من العرق، بطابور طويل ينتظر الواقفون فيه حصتهم المقنّنة من الكحول.

Twitter: @ketab_n

انتحى هادي جابك جانباً ووقف بمواجهة الطابور. رفع يديه فاستدارت نحوه الرؤوس:

- أهل الحلة.. فد يوم شفتوني واگف بالسرة على البيض.. فد يوم شفتوني منتظر معجون الطماطة.. لو معجون سنون.. فد يوم زاحمتكم على البتيتة.. على القنادر.....؟؟

-...............

- اي لعد ليش لا حقينى عالعرگ؟؟

حين أصبح البعثيون سلطة، وأصبح لحزبهم مقرّات وفروع، عيّنوا حبيب جاسم الشهير بحبيب الأسود، مسؤولاً عن منظمة الحزب في الحلّة.

شاءت الصدف أن يلتقي هادي جابك الماشي بمسؤول الحزب المنتفخ وراء مقود سيارة الهولدن البيضاء. وقف هادي في منتصف الطريق، قاطعاً مسيرة المسؤول في شارع المكتبات المزدحم.

توقّف المسؤول، نزل من سيارته. (كان يعمل في حمل إعلانات السينما والدوران بها في الشوارع للدعاية)، وقبل أن يبادر لفعل أي شيء، ارتفع صوت هادي جابك وهو يقول في حبيب ما قاله المتنبّي في كافور، بتصرّف اقتضاه الموقف:

Twitter: @ketab_n

لا تشتري العبـد إلّا والعصـى معه

إن العبـيـد (منــاويـيچ) منــاكيــد

لم يكن هذا الاعتراض السياسي هو الوحيد له، فقد سبقه بآخر في أيام عبد الكريم قاسم (١٩٥٨ - ١٩٦٣).

في تلك الأيام دأبت اذاعة بغداد في الثانية من ظهر كلّ يوم على بثّ شبه برنامج يبدأ بصوت المذيع حافظ القباني وهو يوسع حنجرته إلى أقصاها قائلاً: من أقوال الزعيم.

ذات يوم، وكما أوقف هادي جابك مسؤول الحزب البعثي، أوقف هذه المرّة جنازة يحملها المشيّعون مخترقين السوق الكبير.

حين وقف الجميع على صوته وهو يطالبهم بالتريّث. اقترب من الجنازة، ثم قال مخاطباً الميت:

- روح ... خلصت من (أقوال الزعيم) !

Twitter: @ketab_n

يوم فُضِحَ الشاعر

عالم النساء في الحلّة، مختلف، مغلق. وهما صفتان مثاليتان لجعله مرتعاً خصباً للنميمة وصناعة حكايات نصفها خيال ونصفها الآخر لم يحدث.

نساء الحلّة يكدن لا يخرجن إلّا إلى المدارس أو إلى السوق، حتى إنّ واحدة من أجمل وأشهر الحدائق اسمها (حديقة النساء) لا أتذكر أنّي رأيت فيها نساءً يوماً.

مع كلّ هذا، يضرب الحلّاويون للحلّاويات مواعيد غرام قد تتحقّق وقد لا تتحقّق.

إذا ما تحقّقت فهي جولة على الأقدام، تفصل بين المتواعدين ثلاثة أو أربعة أمتار، هي في الأمام وهو وراءها أو على جانبها. وجهاهما إلى الامام وشفاههما تتحرّك لكنها تنطبق بمجرّد أن يلوح في الشارع قادم من بعيد.

مع كل هذه الاحتياطات، فإنّ مشواراً مثل هذا، حتى وإن امتدّ لمائة متر فقط، كافٍ لتحويل سمعة المتواعدين إلى علكة لا تسقط من فم المدينة.

Twitter: @ketab_n

في ساحة محاطة بالبيوت اعتدنا أن نلعب فيها الكرة، مرّت امرأة متوسّطة العمر، ترتدي عباءة تتركها للريح غير عابئة بتطاير أردانها.

لم يلتفت أحد منّا إليها حتى مرّت إلى جانبها واحدة من سيارات (تكسي بابل) وهي ثلاثة سيارات أجرة تعمل على الطلب بالهاتف.

أبطأت السيارة حتى أصبحت سرعتها بسرعة المرأة. كانت السيارة شيفروليه ١٩٦٠ أمّا سائقها فكان (مجيد أبو خشم) بعيونه نصف المغلقة وشعره الأبيض والسيجارة المعلّقة بفمه مع عمود الرماد الذي ينتهي إلى السقوط في حضنه.

ما أن أصبح بجانبها، حتّى لمحه أحدنا، فأمسك الكرة موقفاً اللعب مشيراً بسبّابته، دون كلام، إلى الوضع المثير للشك. وضع سيارة الاجرة التي نسي مجيد طالبها وتفرّغ لمواكبة المرأة. هي على قدميها وهو على العجلات.

التفت الجميع نحوهما، لتبدأ أنشودة جماعية:

- اي يابا........... ايـ يـ يـ يـ يـ يـ يه.......

ما أن وصلت الأصوات إلى مجيد حتى أسرع مبتعداً وكأنّه غير معني بالأمر، أمّا المرأة فقد التفتت نحونا، وبصوت محتجّ:

Twitter: @ketab_n

- هاي شبيكم عيني.. گلي اوصلچ گتله لا دادة أشكرك، نزول نزل عليكم.. شگد متستحون.

ادّعاء البراءة هذا لم يحل دون تطيير الخبر ووصوله إلى (سيارات بابل للأجرة) قبل عودة مجيد من طلبيته.

العيون الراصدة والألسن الصاعدة النازلة دفعت بعضهم للقيام بمحاولات لفكّ حصار الغرام لكنّ المحاولة أو المحاولات غالباً ما انتهت إلى نتائج كارثية، وهذا ما حدث لعبد الرزاق عبد الواحد. الشاعر الذي أنزله صدام حسين منزلة الأولياء والقديسين بعد أن منحه لقب (شاعر الرئيس).

أيام الواقعة (أوائل السبعينات) لم يكن هذا الرجل معروفا الا بين الوسط المثقف والمتثاقف. فهو شاعر ممن جايلوا بدر شاكر السياب والبياتي وبلند الحيدري ونازك الملائكة. ولأنه شيوعي، عوقب بالنقل إلى الحلّة ليدرّس العربية في ثانويتها.

مع الحرب العراقية الإيرانية، تحوّل الرجل إلى علَم في تمجيد صدام حسين في رأسه نار أتت على الدفتر الذي كتب فيه ماضيه السياسي وغير السياسي فالتهمت صفحاته التي كان من بينها الصفحة التي تحكي يوم فضح، وعلى رؤوس الاشهاد، في الحلّة.

أتذكره جيداً، لا لأسباب ثقافية أو تعليمية فلم أكن حين كان في الحلّة قد.بلغت الاهتمام بالشعر ولم أكن بعمر التعليم الثانوي ليدرسني، أتذكره جيداً لأسباب كحولية.. صِرفة.

Twitter: @ketab_n

كان نادي المعلّمين، وهو المكان الذي يقدّم الخمور لأفراد الأسرة التعليمية وأصدقائهم، بجانب بيتنا تماماً، ولم يكن يفصلنا عنه غير بيت واحد.

بعد الساعة الحادية عشر ليلاً تبدأ الفرجة التي تقدّمها حلقات المعلّمين الذين أتى العرق على استحيائهم وبقايا تظاهرهم بالكياسة، فانفلتت الخيبات والأوجاع والخسارات قافزة من فوق أسوار أرواحهم المتعبة إلى الشارع مباشرة.

في تلك الفسحة أمام النادي يقدّم المعلمون، بالصوت العالي، كشوفات حساباتهم مع الراتب الذي لا يوصلهم أبعد من منتصف الشهر، والزواج الذي انضّم إلى المستحيلات الأربعة فأصبح خامسها والمدير الجاهل والطلبة أولاد الكلب والدنيا التي ضاقت فأصبحت بحجم سم الإبرة.

عبد الرزاق عبد الواحد، كان من أبطال فرجة نادي المعلّمين في الحلّة، لكن همومه لم تكن مثل هموم معلّميها.

كان أوّل الداخلين إليه، نعرف هذا من سيارته الخضراء الغريبة الشكل، بصندوقها الخلفي الذي ثبتت عليه العجلة الاحتياطية المغطاة بمعدن من لون السيارة.

ما أن تكسر شمس العصر، حتّى تصل السيارة الخضراء ليبدأ الشاعر مشواره الكحولي اليومي الذي ينتهي بعد منتصف الليل بخروجه مع رفاق الطاولة مكمّلين نقاشهم بالأجساد

Twitter: @ketab_n

المترنّحة والأصوات التي تصلنا واضحة ونحن نراقب، من على سطوح الصيف المحيطة بالمكان.

بالسيارة الخضراء نفسها، اخترق عبد الرزاق عبد الواحد بساتين الحلّة ومعه معلمّة دفع بها حظّها العاثر لموعد غرامي لم تكن تتوقّع إلى ماذا سينتهي.

بعد أن أسمعها ما يسحر من كلام الغرام، وأشبعت نظراتها أناقته وربطة عنقه وتشبهه بعبد الحليم حافظ، انحرف بسيارته إلى بستان كثيف، مخططاً للوصال بعيداً عن العيون الراصدة.

لم يكن يعرف أنّ السيارة الخضراء، جلّابة الأنظار والناظرين، ستلفت إليه انتباه مجموعة فلّاحين تركوه حتّى وصل واستقرّ ليبدأ هجومه الغرامي فيبدأون هجومهم ملقين عليه القبض بالجرم المشهود والملموس.

تلقّى الشاعر الشهير احتجاج فلاحي الحلّة على مسه شرفهم على دفعتين.

الدفعة الأولى كانت موجات من اللطم والكفخ والرفسات في مسرح الجريمة والثانية ابتدأت بجرّه من ربطة عنقه ثم حملة وقذفه في بيك آب أحمر تكسوه رقع بنية اللون، (معجون التصليح الذي يوضع عادة من أجل الصبغ الذي اعتبره صاحب البيك آب ضرباً من ضروب التبذير، فترك اللطخات بلا صبغ).

Twitter: @ketab_n

صعد مع الشاعر أربعة من ذوي الأذرع المفتولة. وما أن تحرّكت السيارة باتجاه الحلّة تحيط بها جمهرة من الدراجات الهوائية حتى بدأ الأربعة شغلهم، محوّلين (الأسير) بقبضاتهم إلى عجينة من الشِعر المداف بالشرف الرفيع.

دار البيك آب شوارع الحلّة كلّها، الشاعر يضرب في الخلف والمعلّمة بقرب السائق تحاول تغطية فضيحتها بالعباءة التي رماها لها أحد الفلاحين.

الجزء السيئ من ذكرى فضيحة الشاعر، أنّ شقيق المعلمة الضحية، كان شريكي في نفس الرحلة المدرسية.

لم أكن أحسده على تلك الأيّام.. فُصلت أخته من التدريس ونُقل الشاعر إلى ريف الحلّة، لكنّه لم يغيّر ما اعتاده في فترة ما قبل النقل. السيارة الخضراء تصل نادي المعلّمين بعد انكسار شمس العصر يوقفها في المكان المعتاد ليعود فيقودها مترنّحاً بعد منتصف الليل عائداً إلى بيته، حيث المرآة التي يقف أمامها محاولاً إقناع نفسه أنّ الكدمات ستزول وأن تعاظم حجم أنفه سببه أورام الانتقام وليس أنفه الكبير الذي طالما سبّب له عقدة في النفس ونقطة سوداء في صفحة دونجوانيته غير البيضاء.

وسط هذا الطوق الحديدي هبط في الحلّة رجل اسمه بهجت منصور.

Twitter: @ketab_n

كان موظّفاً حكومياً ساقته الأقدار من بغداد المنفتحة ليحطّ في مدينة ذكورية اعتادت أن تفعل كل شئ ولكن من خلف عباءات النساء التي كانت تضفي على جمال البنات غموضا تفرّغ بعض الرجال لاختراقه فرهنوا الحياة من أجل بلوغ أعتاب هذا الجمال أو حتى الوقوف على بابه.

مثل كلّ الموظفين، نزل بهجت منصور ومعه عائلته. وفي عائلته أصل الحكاية وفصلها، فقد كانت الحجر الثقيل الذي سقط في بحيرة الحلّة، لتتطاير منها الأسماك والسلاحف والأشنات والضفادع وأفاعي الماء.

(حَجَر) بهجت منصور كان يتألّف بالإضافة له، من زوجة وثلاث بنات وفتى.

قوّة الحجر الكامنة كانت البنات الثلاث.

كن يخترقن شوارع حيّ بابل (حيث حطّت العائلة رحالها) وهنّ بكامل الطغيان الأنثوي الذي نقلنه من منطقة (المسبح) ببغداد كما هو. بتحرره الذي اضافت له مسيحية العائلة بُعداً آخر أسقط (تبّـاعي) البنات في الحلّة بالضربة القاضية، فصارت سحابات الخيال التي تطلقها رؤوسهم تملأ سماء الحلّة وتعبرها إلى الأقاصي البعيدة حيث لا عيون ترصد ولا ألسنة تطحنِ الحجر.

بنات بهجت منصور استسغن اللعبة على ما يبدو

Twitter: @ketab_n

فأصبحت جولتهن اليومية طقساً ثابتاً حفظه الحلّاويون على ظهر قلب، فمن لا يتبعهن يراقبهن من بعيد ومن لا يفعل الاثنين يكتفي بالرصد من سطح المنزل.

الشبابيك المتوارية وراء صدأ الشبكة المعدنية مانعة الحشرات، سترت الراصدين من سمعة الترصّد التي يدّعي كلّ الحلّاويين تقريباً أنّه أكبر منها وأرفع.

التبّاعون (وهم مجموعة شباب متفرّغة للمشي بخيلاء خلف النساء) لم يتوقّعوا الثورة التي أحدثتها بنات بهجت. فقد كانوا قانعين بما توَفّر وتيَسّر من بنات الحلّة الذاهبات إلى المدارس والعائدات منها. ونظرة من بعيد أكثر من كافية، أمّا إذا حدث ورافقتها ابتسامة فذلك يوم غير كلّ الأيام، يزداد فيه بيع أغاني عبد الحليم حافظ مع التركيز على اغنية (موعود) التي يعيد سماعها متلقّي الابتسامة أربع مرات لينام وهو يغالب السهاد في منتصف المرّة الخامسة، ثم يستيقظ فجراً كالسائر في نومه على الرغم من أن لا شيء يثبت أنّ الابتسامة كانت له وليست لأحد منافسيه الماشيين على نفس الرصيف، الرافعين مثله ياقات قمصانهم البيضاء الملمّعين مثله، أحذيتهم ذات المقدّمات المدببة، الكاوين مثله بنطلوناتهم الرفيعة المستدقة النهايات ليبدوا مثل أنابيب مياه رُكّبت على عجل.

هؤلاء التبّاعون الذين يحملون اسماً محليّاً وهو

Twitter: @ketab_n

(الصرمبارية) نقلوا مراكز انطلاقهم من ثانويات البنات ومتوسّطاتهن إلى الشارع الفرعي المقابل لمتنزه الفيحاء.

هناك كان بيت بهجت منصور، حيث تنطلق المسيرة اليومية لبناته الثلاث، متّجهات إلى لا مكان، مرتديات ما يفتح النفس المسدودة ويبهج القلب الحزين.

بينما يتحرّك (موكبهن)، تتحوّل الشوارع الصامتة إلى سيرك صاخب، فهناك من يركب دراجته بالمقلوب ومن يجلب اخوته الصغار ليراوغهم بالكرة الشهيرة (أم ثلاثة دراهم) وبمهارة لا يملكها، وهناك ومن يتأبّط ديكاً اختطفه من وراء أهله ومن يتصنع اللامبالاة خافياً نظرات الملهوف وراء نظّارات أبيه السوداء التي تغطّي نصف وجهه.

هذا عن الشوارع، أمّا المقاهي فتصمت الأصوات العابثة وتتوقّف قرقعة الدومينو وتشرأبّ الأعناق.. تستمرّ غيبوبة السابلة والسيرك المنصوب حتى ينتهي الموكب من جولته عائداً إلى بيت بهجت منصور الواقع في شارع ضيّق في حيّ بابل، في الحلّة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

للحلّة أجانب

بعد حرب أيلول الشهيرة بين الفلسطينين والأردنيين، وانتهائها بإجلاء الفلسطينيين إلى لبنان في النصف الأوّل من السبعينات. كان نصيب الحلّة (فدائيّا) فلسطينياً، يبدو أنّه اختار المدينة لمعرفةٍ جمعته بحلّاويين تطوّعوا في العمل الفدائي.

كان ينظر اليه بإحترام يصل حدّ التقديس.

الفدائي الفلسطيني بلهجته الغريبة. تعاملت معه الحلّة على أنه (فرجة)، وأنّ مكانه السينما وليس رصيف شارع المكتبات، منتظراً، شأنه شأن أهل الحلّة، السيارة التي تحمل الصحف من بغداد. والتي تصل عادة بعد الثانية عشر ظهراً.

البعض كان يقترب منه بأيّة طريقة متحجّجاً بأيّة حجة كي يلقي عليه جملة بالمصري استجمعها من تردّده على سينمات الحلّة أو اقتنصها بعد أن كمن لها أمام التلفزيون ليشاهد مسلسل زهرة العلا وصلاح قابيل (بنت الحتة) الذي قلب الحلّة رأساً على عقب.

البعض الآخر، وخصوصاً الأطفال، كانوا يحاولون

Twitter: @ketab_n

توجيه أي سؤال إليه من أجل أن يدخلوا قائمة محدّثيه الأمر الذي يمنحهم حقّ الاستخدام الشخصي للحدث، وتحويله إلى ما شاؤوا من قصص ومسلسلات.

هذه الأسئلة لم تكن تبتعد كثيراً عن سؤال مثل:

- عندكم واحد يعبر الشط غطة وحدة مثل حاتم الاخرس؟

- ....

- عندكم أسد بابل؟

- ....

- بيش عندكم بطل الفانتا وبسكت الجميلي.. الزغير مو الچبير؟

- ....

- تاكلون سمچ أبو الزمّير (نوع سمك ذو شوارب طويلة لا يؤكل في الحلّة)؟

- ....

- عندكم لو اعيب مثلنا؟

- ....

- أحسن من اسماعيل الدغص؟

Twitter: @ketab_n

- ....

- زين احسن من خالد عليوي؟

- ....

- عندكم واحد يشمر الحجارة ويوصلها لذاك الصوب مثل حمزة ابن كريمة الحبوبة؟

- ....

يحاصر (الأجنبي) بمثل هذه الاستجوابات إذا كان عربياً. أي أنّه قد يردّ على سؤال من هذه الأسئلة. لكنّه حين يكون من أجانب الغرب أو الشرق البعيدين، فإنّ الحوار يجري من طرف واحد. وهو الطرف الحلّاوي الذي لا يبدأ الحوار إلّا بعد أن يدخله مطبخ الخيال ويحوّله إلى عجينة على قياس الفضول والدهشة المتوفّرتان لدى من يريد السماع.

شركة (سكابانيوس) اليونانية التي هبطت مع معدّاتها الثقيلة جدّاً على الحلّة في أوائل السبعينات، كانت المحرّك الأكبر للخيال بعرضها الأسبوعي لصيد الخنازير البرية.

هذا العرض كان ينتهي بمشهد سينمائي. مشهد نقل الخنزير إلى معسكر الشركة الضخم على طريق النجف.

Twitter: @ketab_n

مسرح العرض، أحراش القصب العالية على الطريق المؤدّي إلى الحمزة والتي تنبت بعد (گريطعة) بكيلو مترين.. أمّا التوقيت فهو عصر الجمعة أو بعده بقليل.

بينما يدنو الوقت من الغروب، يعبر الجسر الجديد (لم يكن حينها جسر الهنود قد أنشئ بعد) موكب من عشر سيارات أو أكثر بقليل، قاطعاً الخسروية ثم الوردية فالگلج وبعدها گريطعة.

هنا يصبح الطريق ترابيّاً محاذياً لحافة الشط، الامر الذي يجبر السيارات على التمهل، ما يسمح للجمهور المنتظر بإلقاء نظرة فاحصة على (الحمولة) اليونانية التي ستخوض معركة (خليج الخنازير) بنسخته الحلّاوية.

الشمس الماضية في طريقها إلى الغروب، ملقية بقايا ضوئها الذابل على أنابيب البنادق اللامعة التي يرتكز جزؤها الخشبي في حضن الصياد اليوناني بينما ينتهي انبوباها المتلاصقان خارج نافذة السيارة التي أنزل زجاجها.

كانت السيارات تتنوّع ما بين اللاندروفر واللاندگروزر الصغيرتان المتوثّبتان بخفة الأرانب البرية، وبثقل الجمال حين يحتاج الأمر إلى الثبات التام أمام الخنزير البري، بأنيابه الماضية كالشفرات، وحوافره التي تغوص في الجسم البشري مثلما السكين في الزبدة، مستعينة (أي الحوافر)، بالثقل غير

Twitter: @ketab_n

المعقول للخنزير الذي لم يعتد الخطر ولم يواجه يوماً صيادين بكامل عدّة القتل.

اعتادت خنازير الحلّة البرية أن تخرج ليلاً من مخابئها لتهاجم القرويين من راكبي دراجات وهم في طريق عودتهم من عملهم في الحلّة إلى بيوتهم. هذا الأمر يحدث ليلاً. هؤلاء كانوا أعدائها العزّل الذين نادراً ما يحمل أحدهم مسدساً. أما الأكثرية فليس أمامها إلا إطلاق دراجاتها للريح حتى يتعب الخنزير الثقيل وييأس من فريسته.. فيعود من حيث أتى.. من أحراش القصب.

لم يكن قطر دائرة مستنقع القصب يزيد على المئتي متر أو أكثر قليلاً، الأمر الذي سهّل مهمّة الصيادين الذين يتقسّمون حال نزولهم إلى قسمين. الأوّل يدخل الأحراش ليهيّج الخنازير بإطلاق النار ودقّ الصفيح. والثاني ينتظر على المرتفعات المحيطة بالسواقي الخارجة من النهر إلى البساتين البعيدة.

المتأهّبون يقفون متنكّبين بنادقهم واضعين سبّاباتهم على الزناد، منتظرين الخنازير الهاربة لينهالوا عليها بالرصاص الذي يقول الحلاّويون إنّه (مفصّل تفصيل) على قياس الخنزير.

مترجم الصيّادين (كان مصرياً)، يواجهه المتجمهرون بأمطار من الأسئلة التي يكتفي بالإجابة عليها بابتسامة مستكينة من دون أن ينبس ببنت شفة، إلّا في ظروف الاضطرار

Twitter: @ketab_n

القصوى، ومنها إصرار أحدهم على أنّ رصاصة طائشة كادت أن تطيّر أذنه مدعيّاً أنّه سمع أزيزها وهي تمرّ بجانبها، ذاهباً في الادّعاء بعيداً مصرّاً على أنّها لامستها وأنّ على (آكلي الخنازير) أن يلاقوا جزاء فعلتهم.

طبعاً لا رصاصة مرّت ولا أذن طارت، أما الادّعاء الذي ينتهي مع المترجم فليس وراءه إلّا رغبة ملحّة بمدّ الجسور مع اليونانيين، علّ مدّعي الإصابة يحظى بزيارة مخيم (سكابانيوس) فيرى الفصل الثاني من رواية الخنزير البرّي.

الفصل الذي يحدث وراء أسوار المخيّم، والذي بقي سرّاً غامضاً لم تعتد الحلّة على إبقائه بعيداً عن التداول اليومي للمدينة.

ينتهي عرض الصيد اليوناني بعد الغروب. الحصيلة ما بين خنزيرين إلى ثلاثة تشترك في لون وبرها المائل إلى السواد وتختلف في الأحجام. ينسحب الصيادون بقبعاتهم السينمائية وبناطيلهم البلاستيكية التي يصل خصر الواحد منها إلى أعلى الصدر، وأمامهم كلابهم التي تهزّ ذيولها بسرعة تجعلها تبدو وكأنّها صعقت بالكهرباء.

يقول الحلاويون، إنّ بناطيل اليونانيين مصنوعة من إطارات السيارات المذابة. لم يفصح مروّجوا هذه المعلومة عن مصدرها.

Twitter: @ketab_n

بعد تحميل السيارات بالغنائم، يعود الرتل عبر ذات الطريق التي قدم منها. يعبر الجسر الجديد مجتازاً مقهى الجندول الممتلئ حتى آخره بالجلّاس الذين يتركون ما بأيديهم ليراقبوا الموكب حتى يختفي في زحام (باب الحسين).

يونس أبو القيمر، المعروف بحبّه لإدخال كلمات فصحى بين جملة العامّية. هزّ زهري الطاولة، وقبل أن يرميهما التفت إلى الجالسين، ساحبا الحسرة من قاع صدره معلّقاً على مرور اليونانيين بغنائمهم:

- الرعاع.. خلصوا خنازير الحلّة.

استغرب أحدهم:

- واذا خلصوها؟

- شلون واذا خلصوها، لا بد يجي يوم ونحتاجها.

- شتسوي بيها.. تشريب خنازير؟

- يا أخي آني ما قاهرني إلّا هذا الرع المصري.. شفته شلون حاط الشفقة على اساس الاخ من لبّة أثينا.

يطلق على الروس الذين يعملون في معمل النسيج الناعم في الحلّة (هكذا اسمه) لقب (الخبراء).

في البداية كان يقال (الخبراء الروس) لتختفي الكلمة الثانية بعد ذلك وتبقى (الخبراء) فقط.

Twitter: @ketab_n

هؤلاء كانوا خليطاً من الشباب ومتوسّطي العمر، فارعي الأطوال، أقوياء البنية، ورياضيون من العيار الثقيل. الأمر الذي جعل من النوادي الرياضية المكان المفضّل لهم. فما أن ينتهي العمل في المعمل حتى ينتشروا في هذه الأندية.

رياضيو الحلّة، وخصوصاً لاعبي كمال الاجسام أيضاً (خبراء) ولكن من نوع آخر فمعظمهم من عمّال البناء والحدادّين والشرطة وباعة الخضار والصباغين، وإذا ما حدث اختراق لهذا التكتّل فيمكن أن يقوم به معلّم ابتدائي.. لا أكثر.

الخبراء الروس اختلطوا بخبراء الحديد الحلّاويين في وحدة عضلاتية حاول الأخيرون الاستفادة منها إلى أبعد حدّ فصار الروس مصدر معلوماتهم الوحيد. كيف لا وهم أبطال العالم في كلّ شيء، وانتصاراتهم كانت تتلقّاها المدينة المزدحمة باليساريين، على أنها هزائم للإمبريالية الأميركية.

حاتم الكبش، كان أحد أبطال كمال الأجسام المشهورين في الحلة، وكان يعمل قصّاباً. اعتاد حاتم أن يصطحب معه ابن أخيه ضمن خطّة طويلة الأمد لتحويله إلى بطل في كمال الأجسام.

ذات يوم، وبينما كان حاتم منبطحاً على مصطبة (الدبني) وهي مصطبة خاصة برفع الحديد من أجل تكبير عضلات

Twitter: @ketab_n

الصدر والأكتاف فقط، اقترب الفتى من عمّه الذي يكاد الدم يخرج من عينيه وهو يعدّ بصوت عالي، مرّات رفعه للثقل:

- صـ.. صـ.. صـ.. بـ.. بـ.. عـ.. عـ.. طـ.. طـ.. ط عـ.. عـ.. شـ.. شـ شـ شـ

- عمّي.. عمّي..

أعاد حاتم الثقل بصعوبة إلى حاملته والتفت صارخاً:

- عمى اسود.. متشوفني صاير كباب.

- ....

- شكو؟

- شو آني ألعب وارجع ليورا.. وهاب ابن ابو زرّة يقول المشكلة بالأكل.. يعني الواحد شياكل؟

التفت الكبش نحو الزاوية البعيدة حيث مهندس روسي يحرّك (الدمبلصات) أمام مرآة طولية مراقباً حركات عضلاته من أقصى رأسه حتى أسفل قدميه.

- روح اسأل ذاك الخبير.

- شنو خبير... انت قصّاب لو مو قصّاب؟

- وإذا قصاب.. الخبير يعرف كل شي.

Twitter: @ketab_n

توجّه الفتى نحو (الخبير)، وحين اقترب منه رفع صوته إلى أعلى ما باستطاعته:

- وهاب ابن ابو زرّة يقول عضلاتي ما راح تكبر بس بالحديد.. ويقول ينرادلها أكل.. يعني شنو لازم آكل؟

لم يلتفت الخبير المنشغل بالدمبلصات حتى جاءه صوت المترجم المضطجع على المصطبة، مثبّتاً السيجارة المشتعلة بين شفتيه. ومن دون أن يرفعها، رطن بالروسية ناقلاً سؤال الكبش الصغير إلى المهندس الذي أجاب راطناً هو الآخر بجملة قصيرة أعادها المترجم إلى السائل وهو ينفث الدخان صانعا سحابة حول رأسه:

- لحوم بيضاء.. يگول أكل لحوم بيضاء.

عاد الصبي إلى عمه الذي كان في استراحة انصرف فيها إلى تأمّل صدره وترقيص ثدييه بتعاقب سريع ليبدوا مثل فأرين محبوسين تحت جلده.

لم يتوقف إلّا حين سمع صوت ابن اخيه:

- عمي.. شنو يعني لحوم بيضاء؟

سكت حاتم الكبش وعاد إلى ترقيص ثدييه مجيباً الفتى بسؤال:

- لحوم بيضاء؟

Twitter: @ketab_n

- اي عمي لحوم بيضاء؟

- يعني گرگطة مال اذن..، عصعوص عجل هرفي.. بيض غنم..

حمزة عبّاس المردان، لاعب نادي الفيحاء الشهير بـ(البوزنگ) لاختراقاته دفاعات الخصوم في كرة السلّة، والتي يشبه فيها نفسه بشاحنة البوزنگ التي لا يوقفها شيء. كان يلعب الحديد لتقوية قدراته بكرة السلة واضعاً لنفسه هدفاً يعلنه كلّما سأله أحد عن اليوم الذي سيوقّف فيه الحديد فيجيب:

- من تصير رمانة جتفي بكد طوبة السلة.

ولأنّ هدفاً مثل هذا ليس بسهل التحقيق. تقاعد حمزة وهو يلعب الحديد. أمّا رمّانة كتفه فلم تبلغ حجم كرة السلّة ولا أية كرة أخرى.

ذات يوم شتائي، كان حمزة واقفاً في الحديقة المحاذية لقاعة الأثقال والتي ينتقل إليها الكملجسمانيون للاستفادة من شمس الشتاء من أجل اكتساب سمرة البشرة، مع أنّ معظمهم لا علاقة لهم بالبياض ولا حتّى بالسمرة الفاتحة.

مرّ الخبير الروسي بجانب حمزة فأراد بعد أن حياه أن يبدي اهتماماً به كبطل رياضي له شعبيته، فألقى عليه سؤالاً للمجاملة:

Twitter: @ketab_n

- وات آر يو بلينغ همزة (حمزة)؟

حين أراد حمزة أن يقول له (ألعب حديد) نسي الكلمة الأخيرة لكنه، وياللعجب، تذكّر رمزها الكيمياوي، فسارع للإجابة وهو يسحب الثقل إلى صدره:

- آي بلي.. (Fe).

هذا الاختلاط بين اللغة الإنكليزية والكيمياء، لا يعطي انطباعاً دقيقاً على مدى اهتمام حمزة عباس المردان بالعلم والتعليم. حادثة ابنه خير شاهد على أنّه يضع العلم في كفّة والحياة كلّها في كفّة ثانية.

ذات شتاء قارس في منتصف التسعينات، انقطع السير في الشارع المحاذي للشطّ من جهة (الصوب الصغير) بعد أن توقّف المارّة، مشاة وركّاب، محاولين أن يتبيّنوا سبب صراخ وعويل أربع نساء يهرولن متعثّرات بعباءاتهن وراء رجل طويل القامة، حاملاً على كتفه كيس من الخيش (گونيّة)، ربطت نهايته بحبل من القنّب المتين.

الرجل لم يكن إلّا حمزة، والنادبات المستصرخات كنّ زوجته وأمه وأختيه. أمّا سبب الضجّة فهي الحمولة التي لم تكن إلّا ابنه البكر الذي وضعه في الگونيّة بعد أن فشل في حلّ مسألة حسابية أثناء درس منزلي أراد الأب أن يقوّي به ابنه الضعيف في الرياضيات.

Twitter: @ketab_n

حمزة قرّر أن يعاقب ابنه على طريقته. شدّ عليه الكيس، وضعه على كتفه، متّجهاً إلى شطّ الحلّة ليرميه هناك غير عابئ بالتوسّل والاستحلاف الذي يطلقه فريق النساء المهرول خلفه، والذي فطر قلوب المتفرّجين فتطوّع مجموعة من مفتولي العضلات ليبطحوا حمزة أرضاً قبل أمتار من حافة الشط،فيثبتوه على الأرض بصعوبة بينما كان يتابع باحباط، ابنه وهو يقفز مثل قطّ من كيس الخيش، مطلقاً رجلاه للريح باتجاه الحياة.

حين أسلم لاعب كرة السلّة الأميركي الأشهر في العالم آنذاك، كريم عبد الجبار، قرّر أن يقوم بجولة على بلاد الإسلام فيلتقي إخوانه في الدين الجديد على الهواء مباشرة فيزداد إسلاماً ويتعمّق إيماناً.

فجأة، وذات نهار خريفي، دخل كريم عبد الجبار إلى نادي الحلّة. اجتاز الباب بطوله الذي كاد أن يبلغ عارضة الباب الخارجي العليا للنادي (ذات النادي الرياضي الذي يتردّد عليه الخبراء الروس).

مشى عبد الجبار إلى حيث المقاعد المخصّصة للمسؤولين، تحيط به مجموعة من المرافقين يهمس أحدهم في أذنه بين دقيقة وأخرى، اتضح بعد ذلك أنّه المترجم.

مناسبة الزيارة كانت حضور مباراة بكرة السلة بين نادي الحلّة ونادي المسيّب على بطولة المحافظة.

Twitter: @ketab_n

لم يكن أحد يعرف بحضور النجم الأميركي المباراة، لكن الخبر الذي (بفلوس) لا ينتظر في الحلّة إلى (بكره) حتى يصبح (ببلاش)، فنصف ساعة كانت كفيلة بوصوله إلى محلة (الكراد) وجارتها (الهيتاويين).

امتلأ الملعب فتسلّق الجمهور السور متحوّلاً بمجموعه إلى عينين تحدّقان بهذا العملاق الذي ارتفعت ركبتاه بعد جلوسه فأصبحتا بمستوى صدره. أمّا يداه، فقد تدلّتا وكأنهما مجذافي مركب نسي صاحبه أن يربطه جيّداً، فدفعته الريح واستلمه التيار ماضياً به إلى حيث لا يدري أحد.

نادي الحلّة، أخرج القمصان المخبّأة للمناسبات الخاصة جدّاً، واللاعبون لم يدعوا طريقاً إلّا ومشوه من أجل الظهور بمستوى المناسبة، ابتداءً بتمليس الشعر المجعّد وانتهاءً بالاستعانة بالخطّاط شناوة من أجل كتابة الأرقام وكلمة الحلّة بالانگليزية، مع دفع مبلغ إضافي لاستخدام (بوية) السيارات سريعة الجفاف حتى لا تضرب الريحة خشم الضيف وهو يصافح الفريق قبل المباراة.

نادي المسيّب لم تكن في حساباته هذه الإشكالات ولا غيرها، حتى أنّهم لم ينتبهوا لوجود النجم الأشهر في العالم لولا دهشتهم من ضخامة عدد الحضور الذي دفع أطولهم وهو فرحان شبيب إلى التساؤل:

Twitter: @ketab_n

- شصاير اليوم.. الناس معصورين مثل خصّافة التمر؟..

- فرحان.. خاف حسبالك هالوادم جايين يشوفونك؟

- ....

- هذولة جايين يشوفون واحد امريكي أبو وهاب يعرف اسمه.

- يا أبو وهاب؟؟

- چم أبو وهاب.. المحاسب.

- رزاق؟

- اي رزاق.. لعد لفتة؟

- لا تفوّر دمي ولك تركي.. مو السايق اللي جابنة هم يصيحولة أبو ضراط.. أبو وهاب؟

- والسايق يعرف لاعب مثل هذا.. هو رزاق المحاسب ظل لازگ عينة بالجريدة نص ساعة يالله عرفه.

- يعني هذا حيل مشهور؟

- ولك فرحان تظل مطي؟.. أگلك أشهر لاعب بالعالم.

سكت فرحان على مضض بينما استطال عمود رماد سيجارته بين أسنانه ليصل إلى طول إصبع. لكنّه بقي ساهماً يقلّب أفكاره يميناً وشمالاً.

Twitter: @ketab_n

- زكي.. ما نقدر نكسره؟

- المن.. للأميركي؟

- اي.

- حتى تشتغل عليك الدونكيات مثل البنكة.. والله أنت وهذا طولك يسوونك مثل صيخ الكباب.

- ....

- بعدين تعال ولك فرحان.. شجابك عليه وتكسره؟

- ليش ما راح يلعب ويّاهم؟

- يلعب ويامن.. ولك هذا ما يلعب إلّا بفلوس، ويقولون اذا انباع يجيب فوق الميت ألف دينار.

- يا يا بـ بـ بـ بة.. مية ألف، دير بالك لا يوقع علينا السقف.

نزل الفريقان غير المتكافئين، فالحلّة هي المركز والمسيّب قضاء تابع لها، والتراتبية الرياضية لا تختلف كثيراً عن الإدارية ممّا حسم النتيجة للحلّة قبل أن تبدأ، لكن هذه المباراة تحديداً لم تمرّ بسلام بعد أن انصرف اللاعبون وغير اللاعبين إلى استعراض حركات تعقب كلّ منها نظرة بطرف العين إلى عبد الجبار لمعرفة ما إذا استحسن الحركة

Twitter: @ketab_n

أو أبدى أيّة ردّة فعل عليها، والأخير ثابت لا يتحرّك بركبتيه المرتفعتين ونظّاراته المعتمة.

بين الشوطين هاج الجمهور هاتفاً باسم كريم عبد الجبار مطالباً إيّاه (بعرض) يشفي الغليل. همس المترجم في أذن عبد الجبار ليقوم الأخير من كرسيه العريض، ماذّاً ذراعيه الطويلتين طالباً الكرة التي رماها له ميقاتي المباراة فيتلقفها متوجّهاً إلى الهدف وسط دوي من التصفيق والصفير، مع أهزوجة هادرة:

- هوك..... هوك......... كرّومي.

أما الهوك فهي رمية بيد واحدة لا يجيدها إلّا المحترفون، وإمّا كرومي فهو اسم التدليع الحلّاوي لكريم.

بملابسه الكاملة، قدم لاعب أميركا الأوّل عرضاً أقام الجمهور ولم يقعده، متجاوزاً عدم استواء أرض الملعب الإسمنتية العامرة بالخسفات وتأثّر لوح السلّة الخشبي بأمطار الليلة الماضية التي خلفت على وجهه الانتفاخات وحولت خشبته إلى مجموعة طبقات ترمي الكرة عليها فلا ترتد إليك ذاهبة في سبات طويل، الأمر الذي أجبر عبد الجبار على عدم التورّط باستخدام المعدّات العاطلة، والاكتفاء بالحلقة الحديدية التي تلقت منه أهدافاً في استراحة الشوطين أكثر مما تلقته خلال بطولتين للدوري.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(زعامة) ضدّ الوجود الأجنبي

لأنّها وريثة بابل، اعتادت الحلّة على زيارات الأجانب المليئة رؤوسهم بتصوّرات رسّامي القرون الوسطى عن برج بابل الذي يتجاوز السحاب طولاً. تاركاً الغيوم لتتناثر حول خصريه، والجنائن المعلقة ببساتينها السابحة في السماء، ومسلّة القانون الأوّل، وباب عشتار، وغيرها من أبواب ذابت تحت وطأة الاف السنين من الريح والصواعق وحرارة الظهيرة التي لا ترحم.

من بين المفتونين ببابل سانجي ساتيش، العجوز الهندي وبرفيسورر الرياضيات الشهير، الذي استقدمته جامعة بغداد استاذاً في كلّية علومها.

سانجي ساتيش، صادف أن تكون ابنة عمّي إحدى طالباته.

حين عرف البروفيسور أنّها من (بابل)، كاد أن يغمى عليه. فهو لم يتصوّر أنّ لبابل سكّان ما زالوا على قيد الوجود

Twitter: @ketab_n

وأنّ المدينة ليست كما تصور. بعض حجارة متروكة للشمس والريح.

لم يتردّد سنجي ساتيش بسؤال طالبته أن تصحبه إلى بابل. فمثل هذه الفرصة لا تأتي مرّتين في الحياة، وخصوصاً وأنه موجود في بغداد لسنة دراسية واحدة لا أكثر.

اتفق الطرفان، طالب الدعوة وملبّيها، على أن يصل البروفيسور بابل القديمة في الحادية عشر من نهار يوم الجمعة ليقضي ثلاث أو أربع ساعات، بعدها يتوجّه إلى الحلّة التي لا تبعد سوى سبعة كيلومترات للغداء المقام على شرفه.

كلّ شيء تمّ حسب المخطّط والمرسوم، زيارة بابل ومحاولة استيعاب الفارق بين المأمول والموجود. ولأنّ الفارق كبير، غسل سنجي ساتيش خيبته في شطّ الحلّة. وهو نفسه نهر بابل الدافق أبداً، منذ فجر الخليقة حتّى اليوم.

قرفص هو وزوجته على الجرف، ومدّ كل منهما ذراعيه النحيلتين ليتحسّسا الماء بعد أن عرفا أنّه نفس الماء المذكور في رقم الطين وملحمة جلجامش وكتب العهد القديم. وحتّى يزيد ابن عمّي بهجتهما، قال لهما وهو يتأمّل النهر والنخيل محاولاً أن يعكس علامات التعود:

- الغداء سيكون على النهر، تأكلان وتتأمّلان الماء، ولولا الشتاء، لسبحتما.

Twitter: @ketab_n

ابن عمي ذو التاريخ الطويل في المبالغة، لم يمارس هوايته هذه المرّة حين أخبرهما بمكان الوليمة. فقد رصّت عشرات الأطباق على سماط أبيض امتد لعشرة أمتار أو أكثر على حافّة الشطّ، وعلى بقعة ممهّدة تحيط بها اشجار (نبق العجم) و (هروش) الباقلّاء الموردة محاطة بمساحات.. من الجت الأخضر (البرسيم).

كان الغداء في بستان لنا على النهر، بحضور أساتذة ومثقّفين تمّت دعوتهم خصيصاً من أجل أن لا يشعر ساتيش بوحشة العالِم.

احتفاءً بالضيف، لم تدع زوجة عمّي نوعاً من الطعام الا وطبخته. مستعينة بفريق إسناد تقدمته (دلال)، الخبّازة المشهورة بأنّها صاحبة أكبر رغيف خبز خرج من تنوّر في تلك المنطقة، ترافقها زهرة السلمان التي لا تكلّف إلّا بالأعمال التحضيرية البسيطة بسبب سجلّها المطبخي الحافل بحرائق المرق وتعجين الأرز، وما إلى ذلك من الحوادث التي تضعها ضمن تصنيف (ذوات السوابق).

تحلّق الجميع حول السفرة التي أشبعت العيون وهيّأت للانقضاض الجمع الذي يتنظر البروفسور وزوجته ليبدأ، لكنهما لم يبدأ.

مرّت الدقائق بطيئة وحين ازداد تلفّت المنتظرين، همس البروفسور لعمّي بحياء وتردّد:

Twitter: @ketab_n

- هل تسمحون لي أن أقطع كمشة أو كمشتين من ذاك الزرع الأخضر؟

- طبعاً... خذ راحتك.

- أكمل عمي جملته ثم التفت إلى المنتظرين:

- الظاهر راح يجيب باكَلة خضرة..

ما كاد عمي يكمل جملته حتى عاد ساتيش رام وهو يحمل كمية من الجت (البرسيم)، وضعها بينه وبين زوجته، ثم سحب رغيفي خبز ليبدأ وليمته الخاصة من البرسيم والخبز ضارباً بالوليمة الاحتفالية وما حوت، عرض الحائط.

لم يحتمل أحد الجالسين ما حصل والتفت إلى عمي:

- حجي.. بس يخلص غداه ويغسّل.. شوفوله مكان يزاكَط بيه.

التمثيل الهندي في الحلّة لم يقتصر على البروفسور سانجي ساتيش بل تعدّاه إلى وجود واضح لا تغفله عين.

المقصود هنا هو الشركة الهندية التي كسرت ثنائية الجسور في الحلّة، حين بنت جسراً ثالثاً أطلقت عليه الحكومة واحداً من أسمائها العقائدية. تسمية لم تستخدمها الحلّة فأسمته (جسر الهنود) وحسم الأمر.

في نهاية السبعينات ظهر أوّل هندي في سوق الحلّة لافتاً

Twitter: @ketab_n

الأنظار إليه بوضعه لفّاف حول رأسه وتحت حنكه، وأيضاً ببنطلونه الأبيض الناصع ذو النهاية الواسعة جداً (شارلستون).

كان كافياً أن يمرّ في السوق لتتصاعد التعليقات من كلّ زاوية فيه:

- أبو ساهرة... اجاك الاخ لابس قالب تباشير.

- أستاذ فلاح..هذا يفيدك بالمدرسة، اگلبه واكتب بيه.

- إذا تريد تكتّله.. اضربه بمساحة.

- شبيه هذا شاد رأسه هالشدة بها الحر، شالع رحاته؟

- شو هذا مايشبه هنود السينما؟

- ياجماعة.. شوفوه شيريد.. هذا هم غريب.

كان يقف وسط حلقة الدكاكين والبسطات وهو يتلفّت يمنة ويسرة، مؤشّراً بيده على كوم من الشِجَر (الكوسة) أبو رگبة. أما الباعة، فكانوا مستمرّين في جلسة (تحليل الشخصية)؛ حتى انتبه إليه صاحب البسطة:

- ها شتريد؟

حين لم تصدر من الهندي أيّة علامة تدلّ على أنّه فهم السؤال. حرّك البائع يديه بإيماءة الاستفهام. حينها أشرّ الزبون

Twitter: @ketab_n

المستفرد به على سلّة (الشِجَر أبو الركَبة)، فأجاب البائع بأعلى الصوت:

- شگد احطلك.. چم كيلو؟

- ....

- عمي وهاب، تعال خلصنا من هذي الورطة بروح ابوك.. حاجيه بالانگليزي باللاوندي.. خلي نفتهم شگد يريد.

اقترب وهاب أبو عصا، وهو طالب في السنة الأولى من معهد المعلّمين وبثقة العائد من لندن بعد أن قضى فيها عشرين عاماً على الأقل:

- خالي... (this is) شِجَر أبو الركَبة (how many)؟

قبل أن ينطق الهندي كلمته الأولى. هزّ رأسه أربع أو خمس هزّات خفيفة ثم رفع سبابته:

- one.

التفت وهاب إلى صاحب البسطة الساهم بانتظار الترجمة، ثم استدار عائداً إلى دكانه وهو يصرخ محاولاً اسماع المنتظرين الآخرين نتيجة الحوار:

- انطيه كيلو؟

ما أن سمع الهندي كلمة كيلو حتى بدأ وكانّ مسّاً أصابه:

Twitter: @ketab_n

- no..no..no..no

- ....

- one..one..

ثم انحنى على السلّة رافعاً واحدة..

- one..one..

من بعيد صرخ وهاب:

- هذا يريد (شجراية) وحدة.. مو كيلو....

صفن البائع بوجه الزبون، فردّ الأخير الابتسامة بأحسن منها. بعد أن تنهّد طويلاً، توجّه له بسؤال بدا أوّل الأمر جادّاً:

- وياك حمّال يشيلها لو اگصها الك نصين، اليوم تشيل نص وباجر تعال اخذ الثاني.. خاف ضهرك يطگ من الثگل.

حسب ما كتب على اللافتة الخشبية التي تثبّت عادة بجانب المشاريع الانشائية فإنّ تاريخ ابتداء التنفيذ هو آب (اغسطس) ١٩٧٨، أمّا تاريخ الانتهاء فهو نفس الشهر في عام ١٩٨٠، أي أنّ الجسر سيأخذ عامين من العمل.

في شهر آب.افتتح الجسر، ولكن عام ١٩٩٠. أيّ بفارق عشرة اعوام فقط، عن الموعد المكتوب على اللافتة التي بقيت

Twitter: @ketab_n

تشير إلى تاريخ الانتهاء القديم حتى اختفت في الانتفاضة التي اعقبت حرب الكويت. اختفت بخشبها وأعمدتها التي لا أحد يعرف على أي رأس من رؤوس الرفاق البعثيين هوى بها المنتفضون.

اثنا عشر عاماً، صار فيها للحلّة (جالية هندية) تعلّمت أن ترطّن بالحلّاوية الدارجة، وعلّمت الحلّاويين بعض كلمات الأوردو وأوّلها (جنجال)، التي تعني العراك أو الحرب، اما لماذا (الجنجال) وليس غيرها، ذلك لأنّ ثمانٍ من السنوات الاثني عشر من عمر الجسر، كانت فيها الحرب العراقية الإيرانية قد احتلت عقول الناس وأبدانهم حتى خرجت من أنوفهم.

ما بين (الگلچ) و (گريطعة) كان مكان الجسر. تحديدا في القسم الجنوبي من المدينة. من جهة الصوب الصغير ينتهي الجسر عند شارع تمتدّ على طوله بيوت عادية، لكنّه ينتهي في الصوب الكبير قريباً من سينما الفرات.

حين طالت بالجسر السنين، صار السؤال عن اليوم الذي سينتهي العمل فيه، لازمة من لوازم حديث الحلّة.

نظر أحد المتحلّقين من المعلّمين حول طاولة الدومنة في مقهى أبو سراج باتجاه الجسر:

- ما تگولولي شوكت يخلص سور الصين العظيم؟

Twitter: @ketab_n

أجابه فاضل الدنگر:

- الله ما راح يخلصه.

- شمعنى؟

- لان سينما الفرات كل يوم حاطة فيلم هندي.

- ويعني؟

- شنو ويعني.. شتريد الهندي يحط عقله بالشغل وشامي كابور يتمرقص بسينما الفرات؟

كلّ يوم الاسعاف شايلة اثنين. لو واحد ضارب ايده بالچاكوچ لو ضارب نكس من فوق ونازل على راسه بخبطة الچمنتو.

اثنا عشر عاماً دخل الهنود الحلّة من بابها الواسع، فأصبحوا جزءاً من حياتها اليومية.

إذا مررت في السوق أو على الرصيف المحاذي للشطّ، أصبح من غير المستغرب أن ترى هندياً متوسّطاً مجموعة من الفتية في درس خصوصي لتعليمه (دگ الاصبعتين وهز الرگبة.

الهنود من جهتهم، وجدوا في العراق ملجأ يدفنون فيه أحزان الفراق وهمّ الجسر الذي لا تبدو له نهاية. ولأنك تفعل في روما ما يفعله الرومان، جعل الهنود من الجرفين المعشبين

Twitter: @ketab_n

على امتداد الشطّ، باراً في الهواء الطلق، تماماً كما يفعل الحلّاويون.

بعض الهنود تطرّف في محاكاة الطقس الحلّاوي فأتى بصحن لبلبي ونصف نارنجة، وأكملها بشريط لسعدي الحلّي.

صعدت الخمرة في الرأس ودبّ دبيبها فرفع الهندي صوت سعدي على آخره ليصيح:

« حبيبي امك متقبل من احاچيگ..

روحي معّلگة بيك »....

لعبت الخمرة برأس الهندي ونديمه فصارا يهتزّان ويصفقان. مرّ بجانبهما علي (ابن مائدة) بقامته الطويلة وذراعه المتدلية مثل مذراة الشعير، فما كان منه إلّا أن قفز من الرصيف إلى حيث يجلس الهنديان. ومن دون سابق إنذار، نزل بهما لكماً ورفساً مشفوعاً بسيل من السباب.

الهنديان اللذان لم يكن وزن كليهما يساوي وزن الفخذ الأيمن لعلي ابن مائدة، ذهبا في غيبوبة لم يقوما منها إلّا بعد أن دلق المنقذون الثلج الذائب في الطاسة المعدنية على رأسيهما.

بعد أن أفلح جزء من المتجمهرين بابعاد علي ابن مائدة، تصاعدت الأصوات تطالبه بأن يهدأ (ويصلّي على النبي). هدأ علي فجاء وقت السؤال عن سبب ثورته على هذين المسكينين، فما كان منه إلّا أن عاد إلى هيجانه صارخاً:

Twitter: @ketab_n

- خوات الگحبة.. عرگ ورارنج ولبلبي و فوگاها سعدي.. شخليتو لأهل الحلّة؟

علي هو الأخّ الكبير لمن عرفوا بـ (أولاد مائدة)، مجموعة أخوة تجمعهم المناكب العريضة والصدور الواسعة والأطوال الفارعة والأكفّ الطويلة.

هذه الأكفّ تتحوّل إلى قبضات برمشة عين حال الحاجة اليها، أمّا الأقدام فلا احذية لها في السوق. والحلّ لدى لفتة مردان. صانع الأحذية الوحيد الذي يفصّلها على كلّ القياسات، ومن بينها قياس (أولاد مائدة) الذين يحتاج كلّ منهما إلى عجل ونصف من الجلد حسبما يقول لفتة مردان.

لفتة هو شقيق الشاعر الشهير حسن مردان.

جارة لمائدة، دخلت عليها فوجدتها تثرد تلاً من الخبز في طشت الغسيل أمامها. سألتها الجارة عما تراه، أجابتها مائدة وهي تواصل الثرد:

- والله الويلاد اليوم مشتهين تشريب.

(الويلاد) عددهم خمسة، كبيرهم (علي) يليه (زعامة) ثم (حسن) و (فالح) فأصغرهم (فاضل).

(زعامة) تطوّع مظلياً في الجيش. في أحد أيام التدريب صعدت بهم الهليكوبتر بنيّة القفز منها. كان كلّ مظلّي يتأكد

Twitter: @ketab_n

من سلامة وضع حبل فتح المظلّة المثبتة في حقيبة على ظهر زميله والذي صادف أن يكون أحد أصدقاء (زعامة). وهو صديق تعوّد أن يتبادل معه المزاح الثقيل.

حين طلب منه زعامة أن يتأكّد من فتح المظلّة، تركها الأخير على وضع يجعلها نصف مفتوحة. مما يعني الهبوط السريع لزعامة ثم الارتطام بالأرض بقوة، فتكون نتيجة هذا (المزاح الخفيف)، الكسور مع القليل من الرضوض.

الصديق الغادر قفز أوّلاً. بعده بقليل قفز زعامة الذي وجد نفسه يهبط بسرعة غير طبيعية، حاول فتح المظلّة كاملة فلم ينجح، حينها أحسّ بأنّه ضحية كمين دبّر متعمدا.

بالرغم من أن الجاني قفز قبل زعامة إلّا أن الأخير لحق به ومرّ بجانبه وهو يهوي إلى الأرض، فوجد الغادر ينظر اليه ويضحك فما كان منه إلّا أن صرخ وهو في كبد السماء:

- منتظرك جوه أخ الگحبة... الله ما راح يخلصك مني اليوم (أمك......).

Twitter: @ketab_n

برهان ونْسَة

أتذكّره كلّما رأيت لوحة الثورة الفرنسية الشهيرة التي رسمها (دي لاكروا). لوحة المرأة التي تتقدّم صفوف الثوار حاملة علم الثورة، وهي تمشي على أشلاء الجنود الذين تساقطت بنادقهم وتناثرت حولهم الخوذ والحراب.

المرأة هذه، كم ذكّرتني ببرهان ونسة وهو يتقدّم مواكب عاشوراء بالزي العراقي الكامل، الصاية والزبون والقميص الأبيض ثم العقال واليشماغ المرقّط بالأسود.

برهان ونسة لا يرتدي الجزء المهم في الزيّ، لا يرتدي الجاكيت. يشمّر عن أردانه ويقاطع أطراف اليشماغ فوق العقال. أمّا طرف الصاية فيدخله في حزامه الجلدي الأسود، تاركاً إحدى ساقي زبونه الأبيض ظاهرة والأخرى ينسدل عليها نصف الصاية الثاني.

هكذا كان برهان ونسة يتقدّم مواكب عاشوراء واطئاً إسفلت شوارع الحلّة بنعاله الزبيري الأسود. تماماً مثلما تطأ امرأة اللوحة أجساد الجنود الهامدة.

Twitter: @ketab_n

جسمه الفارع الممتلئ ووجهه الأبيض المدوّر المترع بدم العافية وشاربيه الأسودين، وعيناه الكبيرتين السوداوتين، مجموعة مؤهّلات وضعت برهان قائداً لموكب العزاء. تقرع الطبول بتلويحة ذراعه وتطلق الأبواق بهزّة رأسه، وفي أحيان كثيرة يعطي برهان الموكب ظهره ويرسل اشاراته من دون أن يلتفت فيتحرّك اللاطمون وترتفع البيارق فتطلق النائحات العويل المقسّم ما بين لوعة ذكرى الحسين الذبيح والإعجاب المكتوم ببرهان ونسة.

برهان يدير بذات الحماس، المكان الوحيد المتاح فيه للحلاويين لعب القمار والفرجة على الغجريات والسحرة ولاعبي الاكروبات الذين لا يتجاوز ارتفاع أكثر ألعابهم خطورة المتر والنصف.

أمام سينما الفرات لصاحبها حسن حجي علي، وعبر الشارع الذي هو امتداد شارع المكتبات، تحتلّ متوسّطة الحلّة للبنين مساحة كافية تؤهّلها أن تؤدي مهمّات أخرى لا علاقة لها بالتعليم.

المبنى هذا كان يتخلّى عن مهامه التربوية والعلمية أيام عيدي الفطر والأضحى، متحوّلاً إلى مركز للهو غير البريء. يحدث هذا حين تؤجّره البلدية إلى متعهّد يستثمره لأيام العيد فقط. ينفضّ بعدها السامر وتختفي الفتاة ذات السروال اللامع مثل الصفيح، هي وتيّار اللهب الخارج من فمها. تاركة المكان

Twitter: @ketab_n

لمدرّس الكيمياء بذقنه غير الحليق وحذائه الحائل اللون وقلبه المقفل على أمل وحيد، وهو إدخال كلّ هذه المعادلات والأسماء في حقل الرؤوس الممتدة أمامه. هذه الرؤوس التي يحلّق نصفها على الأقل في سماء أخرى تسبح فيها كرات اللعب بالية الجلد وأعشاش العصافير اللابدة بين أغصان شجر الكالبتوس والسرو العالية في متنزهات المدينة العامة.

المتعهّد الدائم لهذا الانثلام العلني في جدار الفضيلة في الحلّة هو برهان ونسة الذي يقف أمام طاولة (اللكو) مشمّراً عن أردانه، رافعاً اليشماغ الأسود ليتكوّم أعلى رأسه وكأنّه طائر يمكن أن يطير في أيّة لحظة.

يرجّ برهان بشدّة قدح الفافون (الألمنيوم) المقلوب على وجهه بشدّة ثم يرفعه ليرمي مكعبي النرد اللذان شبعا رجا وهزا ليتقلبا على الطاولة المغطاة بـ (چتري) اللكو الذي رسمت عليه رموز القمار الشهيرة، السنك والماچة واخويهما.

يتقلّب المكعبان تحت عيون فتحت على آخرها. ما أن يستقرّا حتى يضاعف برهان المبالغ الرابحة المطروحة على الطاولة (وهي قليلة) ثم يجمع بكفّ واحدة مبالغ الخاسرين (وهي كثيرة)، وبخفّة الحواة، يعيد مكعبي الزهر الكبيرين إلى قدح الفافون المبعّج، رافعاً صوته بصرخات الدعوة إلى الربح المتاح بلمح البصر (سوّي ربعك نص.. ونصك دينار وديناركـ اثنين.. والعشرة بعشرين)........

Twitter: @ketab_n

مملكة برهان ونسة للميسر وباقي أنواع التسلية غير البرئية، تدخلها بتذكرة سعرها خمسة وعشرون فلساً تشتريها قبل أن تعبر الباب الحديدي الأسود العالي لمتوسّطة الحلّة للبنين.

بعد أن تصبح وسط ساحتها، تقرّر ماذا ستشاهد، فهناك الساحر الموصوف بالعجيب (وهو لا عجيب ولا ساحر) وفتاة النار وفرقة الخطورة الهندية، ورامي السكاكين وفتاته المربوطة على القرص الدوار، والمنوّم المغناطيسي الذي تحوّل بعد أن طرده برهان في اليوم الثاني للعيد، إلى منوّم متجوّل يعرض مواهبه في كشف السرقات وإعادة المطلّقات إلى عشّ الزوجية المهجور وفكّ السحر بأنواعه، الغرامي والتجاري، مقابل ربع دينار فقط لاغير.

بعد العيد بثلاثة أيّام، غادر المنوّم المغناطيسي الحلّة لأسباب غير معروفة، ووجهه مليء بالكدمات. كان أيضاً يمشي مستعيناً بعصى.

البعض قال إنّ الأمر دبّره برهان والبعض الآخر قال إنّ أحد سكنة حي (التعيس) ضبط زوجته وهي تدسّ في جيب سترته الصغير قطعة ورق مطوية على خلطة من رماد (اتضح أنه رماد سيگارته) وضرگ دجاجة، عرف بعد جلسة استنطاق غير سلمية لزوجته، أنّ مصدر الوصفة هو المنوّم المغناطيسي لا غيره.

Twitter: @ketab_n

الساحر العجيب كان يخرج من علبة النيدو الفارغة، أرنباً متكاسلاً وحمامة نصف نائمة، وقبل أن يخرجهما، يدقّ العلبة بالعصى وهو يردد:

- غرغري سمن غرغار غرغري.......

وهذه الجملة السحرية كانت تعمل مرّة وتفشل مرّات، ممّا يدفع الساحر العجيب إلى طلب معونة الجمهور الجالس على الرحل المدرسية التي لم يكن هناك وقتٍ كافٍ لنقلها خارج الصفوف ثم إعادتها بعد أن ينتهي العيد وينفضّ السامر.

هذه العبارة شاعت بين الحلاويين فصارت تتبع الساحر، أينما ذهب، في الشارع أو في السوق أو في المطعم، حيثما يذهب لا يسمع إلّا: غرغري سمن غرغار غرغري....

الساحر الذي ادّعى أنّه هندي وأنّه لا يعرف إلّا القليل من الكلمات العربية، كان يرد بابتسامة مسالمة مع هزّتين من رأسه.

في اليوم الثالث من العيد، ساق الحظّ العاثر الساحر إلى مطعم عيسى فتعرّف عليه حمزة السفرچي بعد أن حدق في وجهه ملياً:

- مو أنت صبري؟

- ....

Twitter: @ketab_n

- لتسوي روحك ما عرفني... آني حمزة اللي حركَت دينه بفوج المشاة براوندوز؟

لم يكمل الساحر يوم العيد الرابع فاختفى هو وعلبة النيدو الفارغة والأرنب الكسول والحمامة نصف النائمة.

Twitter: @ketab_n

تبدأ مواكب العزاء في الحلّة من أوّل محرّم وتستمرّ حتّى ليل العاشر منه، ولأنّ الحلّة خليط من شيعة وسنة ومسيحيين ويهود، ولأنّها أيضاً لا تضمّ مرقداً لإمام معصوم أو إمام مقتول على يد يزيد بن معاوية، احتمل الامر فيها فسحة للضحك في ذات الوقت الذي يعلو فيه البكاء حتّى يصير نحيباً.

احتمل الأمر أيضاً فسحة عريضة للغزل، حتّى أن نصف اللاطمين متهمون بأنّهم يزيدون الضرب حين يلمحون عيناً واسعة أو حاجبين معقودين، أمّا حين يعلو صوت الحشد الناعم المتواري وراء العباءات السوداء بالنواح، فعلى الصدور السلام.

مثل أيادي الغرقى، ترتفع أيادي اللاطمين في الظلام ثم تهوي على ضوء (اللوكسات) على الصدور. تحمرّ الجلود وتبح الحناجر، أمّا العيون فثابتة على سواد العباءات.

مما يروى عن (لطّامة) الحلّة، والرواية هنا غير مثبتة ربّما يكون مصدرها أحد الساخرين. أنّ اللطامة كانوا يردّدون

Twitter: @ketab_n

بحماس وراء قائد الجوقة الذي يعدّد صفات الإمام علي بن أبي طالب وهم يردّون عليه بصوت وكلمة واحدة هي: علي.

الحماس يتصاعد وقائد الجوقة يصرخ:

- علي يا علي.....

فيجيب اللطامة بالصوت الجهوري:

- عليـ يـ يـ يـ يـ يـ يـي...

فيصرخ ثانية:

- يابو طبگ ريش....

فيجيبون والحماس يصل أوجه:

- عليـ يـ يـ يـ يـ يـ يـي....

- سيد الدراويش.......

- عليـ يـ يـ يـ يـ يـ يـي.....

- شمعة بطولك.........

- عليـ يـ يـ يـ يـ يـ يـي

- كلنا نجيلك........

- عليـ يـ يـ يـ يـ يـ يـي....

Twitter: @ketab_n

وهنا قطع الشارع حطّاب حمّل حماره سعفاً وكرب. ولا أحد يعرف سوء حظّ من جعل الحمار يحرن في وسط الشارع ويأبى الحركة. لا باللين ولا بالشدّة التي تبرّع بها (محبّو الحسين) حين انهالوا عليه ضرباً وركلاً.

قائد الجوقة لم يدع صفة أو مديح للامام علي إلّا وقاله، واللطّامة يصرخون وراءه من دون كلل:

- عليـ يـ يـ يـ يـ يـ يـي....

خرج قائد الجوقة حين تورّمت الصدور وبحّت الحناجرعن سلسلة المديح ليصرخ بصاحب الحمار وبنفس النبرة اللطمية:

- وخّر مطيتك........

فما كان من الشباب المنصرفين إلى جمع النساء على الرصيفين إلّا أن ردّوا بذات الحماس:

- عليـ يـ يـ يـ يـ يـ يـي...

محظوظة تلك الطفولة التي يتوقّف الدم في عروقها حين تمرّ المواكب الهادرة بالنشيج وترتفع البيارق ممتدّة حتّى حافات السطوح العالية. ومن أجل أن تعبر أسلاك الكهرباء يعيّن حاملها ثلاثةِ أو أربعة رجال أشدّاء الأذرع، ليجتازوا بالبيرق أسلاك الخطر ثم يرفعون عارضة الخشب الهائلة،

Twitter: @ketab_n

عائدين بنهايتها إلى غمد ثبّت في حزام حامل البيرق، فيمضي بحمله المقدّس والصلوات تتصاعد من الأرصفة والسطوح والنوافذ المشرعة.

(أبو هوسة)، اسم للبيرق الأشهر في مواكب عزاء الحلّة، كان لونه الأخضر يختفي تحت غطاء من آلاف الدنانير التي ثبّتها ناذروها بالدبابيس المتينة حتى لا تطير، فتطير معها بركة (السيد) صاحب البيرق.

ما بين البيرق والطبول المسطّحة والأبواق التي تذهب باوداج نافخيها فيتبادلوها كلّ مئة متر، تمضي سفينة الضوء المقدّس.

هي هيكل من حديد ثقيل يمتدّ طولها من رصيف الشارع إلى رصيفه الآخر. سالئة الفراغ بزورق طويل تتوسّطه قبّة مسجد عالية العنق.

كلّ هذا مصنوع من عوارض حديدية سميكة صلبة تتخلّلها زخارف ناعمة، وعلى هذا الهيكل الهائل تتوزّع مئات المصابيح الكهربائية التي تشغّلها مولّدة يدفعها اثنان على عربة حديدية.

هذه السفينة، بحديدها ومصابيحها وأسمائها الحسنى وأسلاكها والنذور المعلّقة في انحناءات زخرفها، يحملها رجل واحد.

Twitter: @ketab_n

حامل سفينة النور المقدّس يثبّتها في غمد متين يتوسّط حزامه. وعلى الطرفين يمشي معه خطوة بخطوة، شابّان يحمل كلّ منهما مقعدان خشبيان يركّزان عليهما طرفي السفينة حين يتعب حاملها من ثقل المسير فيقف لينزلها.

قد يبدو الأمر عادياً حين يقف عند حملها أو السير بها، لكن المشهد يبلغ ذروة التجلّي حين يرفع يديه من على العارضة ويثبتهما في زخرف الهيكل، مبتدئاً عرضه الذي يحبس الأنفاس في الصدور.

ما أن ترتكز السفينة على ظهره حتى يبدأ بتحريكها ببطء ثم يزيد سرعتها فيدور وتدور معه صانعة سورة من ضوء وعويل ولطم يغور في الصدور كلّما زادت سرعة دوائر النور، صانعة هالة السفينة المقدّسة.

لم أر لتلك السفينة مثيل، ولا للحظة التي تتصاعد فيها سرعة دورانها فتضيع تفاصيل المشهد بالتتابع. يختفي الحديد أوّلاً، ثم العوارض فالزخرف، ليتحوّل رجل السفينة بعد ذلك إلى أسطوانة دائرة حول نفسها بلا تفاصيل.

يختفي كلّ شيء ويصبح المسرح حكراً على بطل وحيد: هالة الضوء المقدّس.

ليس لكلّ موكب عزاء سفينة، لكن السفينة الأشهر كانت تعود لمحلّة (الكراد)، أمّا حاملها فهو محمد، حارس نادي

Twitter: @ketab_n

الفيحاء بقامته المربوعة وقذّاله (گذلته) السميكة النازلة على عينيه.

الهاربون من الخدمة العسكرية. المعروفون بالـ (فرارية)، كانوا يجدون في أيّام محرّم فرصة للخروج من مخابئهم. السبب هو الحشود التي يصعب على جماعة الانضباط العسكري التحرّك بسببها أو ممارسة استعراضاتهم في المطاردة.

بعض الفرارية ذهب إلى أبعد من الاختفاء بين الجمهور المحتشد. فدخل ضمن من يمثّلون الواقعة في شوارع الحلة صانعاً من اللحية الملصقة على عجل وطاسة الماء المحّولة إلى خوذة حرب، ستاراً يقيه الانضباط العسكري المتحيّن لحظة الانقضاض التي لا يمكن أن يحول بينها وبينه، غير معجزة لن تحدث.

علوان جبار، كان أحد أشهر الهاربين. وكانت لجولات الكرّ والفرّ بينه وملاحقيه حكايات تروى. وخصوصا أنّه كان ماهراً في استخدام سطوح البيوت المتلاصقة ميداناً للهروب السريع.

ذات محرّم صعدت في رأس علوان أن يقوم بدور العبّاس في (تشابيه) اليوم الرابع، وفعل.

مرّ محاطاً بالخيّالة، معتمراً الخوذة الطاسة التي ثبتت

Twitter: @ketab_n

فوقها ريشة طويلة، أما شاربه الحقيقي فقد تدلّى على لحيته المستعارة.

ملابس أهل البيت الخضراء التي غالباً ما يتبرّع بها الخياطون، بدت واسعة عليه، وخصوصاً أنّ الحلاويين الشيعة يصرّون على أن قدمي العباس كانتا تسحلان على الأرض وهو راكب على حصانه.

علوان القصير أصلاً، بالكاد تصل قدمه إلى ركاب الحصان الهزيل بارز العظام.

من دون سابق إنذار تحفّز أكثر من عشرة جنود من الانضباط العسكري لينقضّوا على علوان ويسحبوه من ظهر الحصان إلى الأرض، وبسرعة وتمرّس، ضربت الگلبچات معاصم علوان والتفّت الحبال نزولاً من كتفيه حتى قدميه.

استسلم علوان لقدره، فلم يعد لديه ما يغيظ به خصومه الشامتين. وحين أسندوه ليقف على قدميه تمهيداً لرميه في سيارة الجيب الروسي، التفت نحوهم وبصوت حرص على أن يسمعه المتجمهرين:

- مكيفين كمشتوني... اصلا حتى (الحسين) فرار.

حين التفت جنود الكمين نحو الجهة التي أدار رأسه نحوها علوان، كان (الحسين) يطلق العنان لحصانه وسط شماتة الجمهور. وضحكه الذي ردّ لعلوان جزءاً من هيبة الفرارالمزمن، ونغّص على الانضباطية فرحة الصيد الثمين.

Twitter: @ketab_n

قبل أن تشتدّ وطأة القمع باستيلاء البعث على الحكم في ١٩٦٨، كانت (ردّات) العزاء، وهي أشعار بأبيات قليلة يحفظها اللاطمون ويتحرّكون على إيقاعها ملوحين بأيديهم في الهواء، مردّدين البيتين الأولين، ضاربين صدورهم على ايقاع ما تبقّى من أبيات الردّة.

كانت هذه الردات تتحوّل في أحيان كثيرة إلى مناسبة للتحريض السياسي، وهذا الامر عرفت به مواكب لمحلات حلاوية عرفت بميول ساكنيها، أما اليساري أو الناقم على الأوضاع، ومنها (الجامعين) و (التعيس). هذه المحلّات لم يعرف للبعث وجود فيها.

أيّام حكم الاخوين عارف، صار سماع (لطمية) تقول (الله واكبر يا زمن.. اموالنا كلها لمصر) أمراً ليس بالغريب.

هذا اثناء حياة عبد السلام عارف الذي كان الشيعة يرون فيه رئيساً طائفياً لم يتعوّده العراقيون، وحين مات بسقوط طائرته الهليكوبتر في البصرة خرج موكب محلّة (الطاق) بردّة تقول:

يقولون الله يشّمر حجار

من هبت العاصفة

راس المشيـر اختفة

يقولون الله يشّمر حجار

Twitter: @ketab_n

هذا الترف الذي كان ينتهي بيوم حبس في مركز الشرطة وسط المدينة لم يدم كثيراً، فقد جاء البعث وجاءت معه هراوة الدم الغليظة.

شيئاً فشيئاً ضيّقت السلطة على مواكب العزاء. حاولت أن تضع مسؤولين عنها تختارهم بنفسها وتضع من لا تختارهم تحت تهديد ومراقبة دائمين.

مع ذلك، لم يخل الأمر من محاولة هنا وأخرى هناك حين يتوجّه فيها (الرادود) ولو بالتورية والترميز ضدّ السلطة.

أحدهم (كان يعرف بالملّا صبري) ذهب في وصف ما جرى للحسين وأهله بعيداً، وحين سخن اللطم واللاطمين، صرخ:

- الشفرة وصلت للعظم..... گوم يحسين لخواتك.

ما أن انتهت الجملة حتى امتدّت مجموعة من الأذرع الغليظة لتتلاقف أذيال دشداشة الرادود الواقف على المنبر العالي. جرّته بما أوتيت من قوة (وقد أوتيت الكثير) ليهوي يسبقه عقاله ودفتر القصيد الأسود، فيتكوّر مكوّماً على الأرض ويبدأ القسم الثاني من العرض وهو فاصل من الرفس واللكم بأنواعهما، مع جملة واحدة لم يختلف عليها أبطال العرض من منتسبي مديرية أمن الحلّة وهي:

- الشفرة وصلت للعظم؟........ والله اليوم ما راح يظل بيك عظم.. يا أخ الگحبة.

Twitter: @ketab_n

(التشابيه) أو تمثيل واقعة مقتل الحسين، غالباً ما يدخل الجمهور المتفرّج طرفاً فيها. فهو لا يترك جيش يزيد ابن معاوية وعلى رأسه الشمر ابن ذي الجوشن يأخذ راحته في حربه على (أهل البيت)، بل يحاول بما يستطيع من صراخ وبصاق وأحذية أن يعيد صياغة الماضي على مزاجه، فيحول بين النساء والأطفال العزّل وسيوف الأمويين بسيل من النعل الطائرة والحجارة إن توفّرت والأسنان إن كان (العدوّ) قريباً.

مجيد، رجل في الستين، ذو عمامة سوداء تعطيه لقب (سيد) أي المنحدر في العرف الشيعي من سلالة النبي محمد. لم تكن العمامة هي علامته الفارقة فقط، بل جدع في أنفه أطار أرنبته فبانت فتحتا منخريه من دون غطاء.

سيد مجيد ساقه حظّه ليأخذ دور الحسين في تمثيل الواقعة. ركب الحصان متصدّراً مجموعة الخيّالة الذين يمثّلون أنصاره ليشتبك الجمعان كما ورد في الرواية التي يسقط فيها الحسين ويهجم عليه الشمر وهو يهم بقطع رأسه.

ما هي إلّا دقائق حتّى انسحب أعداء الحسين تاركيه وصحبه جثثا مبثوثة على إسفلت الشارع، لتطغى على المشهد صرخة ملتاعة لامرأة من الجمهور:

- يبوووووووووه....... بعد عيني حتى خشمه گصوه...

ما أن سمع السيد الجملة حتى رفع رأسه متخلّياً عن

Twitter: @ketab_n

جلال الشهادة وسكون الموت، وبكلّ ما بصوته الأخنف من قوّة صاح:

- اسكتي ولج بربوگ....

العاشر من محرّم هو ذروة الأحزان، يختفي بعدها الحزانى ومدّعي الحزن والمتاجرون به. تتوارى المواكب حتّى اليوم الثالث عشر، حين تظهر عربة مغطّاة بقماش أحمر عليها تمثال لجسد بلا رأس، يجثم فوقه أسد يحرّك رأسه الكبير بنيّة أن يبدو مدافعاً عن جسد الحسين الذي حُمل رأسه في الطريق إلى دمشق.

الأسد المصنوع من لدائن الطين وخيوط الخيش يتحوّل في صيف الحلّة إلى فرن متنقل، مما يجبر منظّمي الموكب على إدخال العربة إلى مركز الشرطة في وسط الحلّة لإخراج الرجل المتطوّع من أجل أن يسقى أكبر كمية من الماء، مع الاستسلام لثلاثة خراطيم مياه يوجهها عليه ثلاثة من الشرطة المتنافسون على الثواب.

هكذا جرت العادة، حتى أصدر أحمد حسن البكر قراراً يمنع إعادة تمثيل الواقعة أو ما يعرف بالتشابيه. ولأنّ القرارات لم تكن قد بلغت مرحلة التنفيذ القمعي بعد، عرف بها البعض ولم يعرف البعض الآخر.

موكب بني أسد في الحلّة لم يكن من بين البعض العارف فخرج كما كلّ سنة حتى وصل مديرية الأمن فاعترضته

Twitter: @ketab_n

مجموعة من الشرطة السرية مشيرة إلى العربة بدخول ساحتها الداخلية.

الرجل داخل الأسد لم يكن يتوقّع غير الاستراحة المعهودة في مركز الشرطة حيث الماء والانتعاش والمنافسة على تقديم كل ما تستطيعه الشرطة من أجل رفع طاقته لاكمال مهمته المقدّسة.

تفاجأ الأسد بعد أن سحب رأسه بأنّ الوجوه تغيّرت وأنّ الدعاء المعتاد له بالصحة والعافية قد تبدّل إلى أقذع الشتائم وأكثرها بذاءة، أعقبته لكمة هائلة تلقّاها في منتصف الوجه تماما ثم سيل من الصفعات انتهت بإصبع غليظ كاد أن يخترق عينه اليمنى.

من يعرفون بتجار الحلّة يختتمون أيّام الأحزان العشرة بمشهد مهيب يبدأونه بعد أن يهبط الظلام.

يدخلون السوق الكبير من جهة حسينية ابن ادريس. السوق نفق من ظلام دامس تسبح فيه نقاط حمراء هي مصابيح صغيرة علّقت فوق أبواب المحلّات المغلقة.

يمضى الرجال بصفوف متراصّة وراء بعضها البعض تمشي بلا صوت.

أفراد العزاء محتفظون باللباس العراقي الكامل، الصاية والقميص والسترة والعقال واليشماغ. التغيير الوحيد هو إنزال

Twitter: @ketab_n

العقال من أعلى الرأس إلى أسفل العنق، وهي إشارة إلى فجيعة الفقدان في جنوب ووسط العراق.

يمضي الموكب بهمهمة وترديد لقصائد الموت والدم. تقف الحلّة على قدميها منتظرة تجّارها الذين اختاروا حزناً خارج المألوف. حزناً بالنبرة الخافتة. نبرة الماء والنسيم والبكاء المكتوم.

يخترق الموكب السوق، يميل يميناً ثم يذوب في ليل المدينة المطفأة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

صلّوحي

لم أره كثيراً. ربّما مرّتين أو ثلاث، لكن وخلال أكثر من ثلاثين عاماً، كان من النادر أن تستعاد الحلّة ولا يأتي ذكره.

صلّوحي. القامة المربوعة والوجه الأبيض الأحمر دائماً. غالباً ما كان يرتدي الدشداشة وفوقها جاكيت ثم يشماغ وعقال.

كان خليطاً من الإعجاب بالإنكليز وصل حدّ الإيمان المطلق بقدرتهم على جعل (السمك يتعارك في الماء)، وتأييداً من الباب الخلفي لماو تسي تونغ وكراهية غير قابلة للجدل للبعث والبعثيين. الذين يسمّيهم (السحالة).

كلّ هذا المركّب صبّ في خلاط اشتراكي مصنوع من شيوعية أبنائه.

هذه الخلطة غير المتجانسة أدخلت بيت صلّوحي في معارك ونقاشات لم تنته إلّا بهروب قسم من الأبناء خارج العراق وموت البعض الآخر، وموت صلّوحي أيضاً.

النقاشات وإن طالت فموضوعها واحد: الإنكليز أحسن لو الشيوعيين؟

Twitter: @ketab_n

ذات يوم حوصر صلّوحي في الجدل اليومي فلمح ابنه محمد يضحك خفية. انتفض واقفاً بدشداشته البيضاء الواسعة وهو يهدر:

- ولك زنيم.. تضحك على تشرشل، هذا رئيس وزراء بريطانيا العظمى والكومنولث وما وراء البحار، توقيعه طوله نص متر.. إذا شمّره عليك يفشخك.

حين اشتدّت الملاحقات والاعدامات في العام الأخير من السبعينات، صار اختفاء الشيوعيين أمراً يتداوله الحلّاويون بالاشارات والتلميحات المبطنة، فإذا سمعت أن فلان (هبط سالما) أو (طلع من الانعاش) أو (جاب گول تسلل) فاعرف أنه اجتاز الحدود إمّا إلى اليمن الجنوبي (آنذاك) أو إلى سوريا ثم الاتحاد السوفياتي (آنذاك أيضاً) أو إلى باقي الدول الاشتراكية. (آنذاك مرة أخرى).

ذات نهار، تلفّت صلّوحي فلم يجد ابنه ضياء فتذكّر أنّه لم يره منذ أربعة أيّام. التفت إلى ابنه الأصغر محمد:

- وينه هذا الزنيم؟

- يا زنيم منهم بويه؟

- ضياء.

- صار بالاتحاد السوفياتي.

Twitter: @ketab_n

- گلب نهائي.

- اي بويه.

- هذا اخوك صدگ مطي.. جان هنا اذا نكّش سنونه يذب نص كيلو تمن، وين راح على ذولة الفگر كل عشرة ببنطرون.

ما بين باب الحسين وبيته القريب من مدينة الثورة على طريق كربلاء، اعتاد صلّوحي أن يركب (نفرات) تنزله أمام الشارع المؤدّي إلى بيته.

ذات يوم صيفي، شحّت السيارات فقفز في عربة يجرّها حصان تعرف بـ (البرشقة)، وهي نوع أكبر من العربات التي تجرها الحمير أو البغال.

بينما العربة ماضية بصلوحي، أبطأت بجانبه سيارة. مدّ أربعة من أصدقاء ابنه الشيوعيون رؤوسهم صارخين بشماتة:

- ها أبو مهدي..... وصلت بيك الامور للبرشقة؟

بعد أن انتهوا من قهقهتهم، رفع صلوحي سبابته:

- ما عاجبتكم البرشقة.. خشبها من غينيا، مستعمرة بريطانية الإنگليز زرعوها صفصاف تضربة مدفع ما يگول آخ... أشرف بميت قاط من المسكوفيتش.

هذه المماحكة المستمرّة مع الشيوعيين لم تخف إعجابه بهم كونهم (مثقّفين كلّ واحد شهادته أطول منه).

Twitter: @ketab_n

هذا الأمر كان يظهره علناً في بعض الأحيان، فحين استوردت الدولة دجاجاً بلغارياً، وقف في الدور الطويل المعتاد في تلك الأيام، ليحصل على دجاجة حملها إلى مقهى (أبو جمال)، رفعها ثم بدأ خطبة عن مواصفاتها:

- اشتراكية علمية.. عِمَتْ عينك ديمتروف، دجاجة تفوق الكيلوين، حوصلتها تسوي جدر باجة، كل هذا بنص دينار.

ذات يوم دخل صلّوحي البيت فرأى الحال مقلوباً رأساً على عقب. أم مهدي وبناتها متصدّرات على الكنبات، والأبناء يكنسون ويمسحون متنقلين ما بين حمل الجگليت وكؤوس الشربت إلى النساء ومراقبة قدري البامية والتمن على النار.

التفت صلّوحي إلى ضياء وعيناه وصلتا حافّة عقاله:

- انگلبت الدنيا ولك ضياء.. لو آني متوهم؟

- لا بوية ما انگلبت بس اليوم عيد المرأة العالمي.

- شنو يعني.. واذا عيد المرأة العالمي؟

- هذا حق من حقوقها بوية.

- ولك يازنيم هو وين حق الرجل حتى تدورون حق المرأة.

- ....

Twitter: @ketab_n

- زين عيد المرأة اجيت وياك.. مو گبل ما تنطي حق المرأة لازم تنطي حق الرجل. مو اطلبك ٣ دنانير.. وينها؟

العرق وصلّوحي متلازمتان لم يفصل بينهما، لا القدر ولا القانون ولا نصائح المقرّبين التي كانت غالباً ما تنتهي بهزيمة الناصحين الذين يفكّرون بتنفيذ نصيحة صلوحي:

- هو بيك واحد.. وشوف شلون تصير الحياة. حتى هذي وجوهكم اللي مثل قنادر الحكومة تنگلب بقدرة قادر تصير وجوه انگليز.. ومن لندن بالنفس.

طول تاريخه مع العرق. لم يشاهد أهل الحلّة صلّوحي في نادٍ أو مكان عام آخر يقدّم الخمور.

كان الشاطئ مكانه المفضل. وإن تعذّر الشطّ فالرازونة المطلّة من البيت على (الرايح والجاي) هي عزّ الطلب بالنسبة له.

نداماه معرفون. فبالإضافة إليه ينادمه ثلاثة من قدامى خمّارة الحلة:

يوسف چاملغ وحسن طرفة ابو الدجاج واسماعيل كرويتة (الكرويتة هي التسمية المحلية للكنبة المصنوعة من الخشب دون اضافة أي شيء اليه). هؤلاء هم الندامى أمّا ألقابهم فهي في الأغلب تعود لمهنهم أو إلى حوادث تعرّضوا لها.

ذات ليلة، أطال الندامى السهر، وضرب الأبدان هواء

Twitter: @ketab_n

الليل الصيفي الذي زاده ماء الشطّ خدراً. دارت الحلّة برأس حسن طرفة أبو الدجاج فسقط منكفئا.

الثلاثة المتماسكون سحبوه صاعدين درج (المسنّاية) حتّى حافّة الشارع. على الرصيف جرى حوار ثلاثي حول طريقة حمله إلى بيته في (السنية) انتهى باعتماد الحلّ الذي اقترحه حسن جاملغ، وهو عبورالشارع وجلب تابوت من الجامع ليتمدّد فيه حسن ثم ينقل محمولاً إلى بيته.

حمل الثلاثة التابوت ودخلوا الزقاق حيث بيت حسن طرفة. ما أن مدّت امرأة رأسها لترى أنّ الأربعة قد عادوا ثلاثة يحملون تابوتاً، فلا بدّ أن يكون هو الميت.

فعلت ما لا تتأخّر النساء في فعله عادة. أطلقت صرخة نادبة بالحنجرة المدرّبة:

- يبوووووووووووووووووه...

صبية الزقاق تلقّفوا الإشارة فانطلقوا بالأقدام السريعة الحافية إلى بيت حسن طرفة، وبخفّة القطط، صاروا في وسط الحوش صارخين بوجه زوجته سعدية:

- إلحگى......... حسن مات.....

Twitter: @ketab_n

بلا عباءة، خرجت سعدية إلى الزقاق متناسية وجبة البوكسات والراشديات التي تلقّتها من حسن طرفة صباح ذلك اليوم، لتصرخ:

- يبوووووووووووووووه....

كورس الأطفال لم يدعها بمفردها فصار يتبع كلّ ندبة منها بواحدة اخرى:

- يبووووووووووووه....

لم يبقَ شبّاك في الزقاق لم يفتح. ومن كلّ شبّاك مدّت رأسها امرأة، لتتناوب الشبابيك عبارات الاسناد النادبة لسعدية:

- صخام صخم وجهچ ياسعدية.

- يا معزّاية شلون راح تربين كومة السرسرية اللي عافهم ابو العرگ برگبتچ؟

- اويلي عليچ شيظل ورا ابو الدجاج غير الظروگ.

هذه (المؤثّرات) نزلت في قلب سعدية نزول النار في الهشيم فتصاعدت في رأسها صورة الدنيا السوداء بموت حسن فما كان منها إلّا أن اطلقت (يبوووووووه) طويلة.

حين همّت بوضع كفيها على فتحة ثوبها الحائل من كثرة الغسيل. وهي الخطوة الأولى التي تأتي بعدها مباشرة خطوة

Twitter: @ketab_n

شقّ الثوب التي أحسّها صلّوحي فصرخ بما أبقاه له العرق من قوة:

- كافي يا مومس.. هذا رجلج كلشي مابيه.. اخذيه اشبعي بيه لسراج منير.

مثلما ينزل الحمّالون البطيخ من العربة، رمى الثلاثة حسن طرفة من التابوت ليتدحرج حتى قدمي سعدية زوجته، فيصحو جالساً فتحلّ علامات الخيبة على وجه سعدية محلّ علامات اللوعة التي اختفت فجأة.

لمّ صلّوحي يشماغه ولبس فردة نعاله التي أفلتت من قدمه في خضم معمعة إنهاء التباس موت حسن.

أدار ظهره وهو يدردم بصوت مسموع:

- بت القندرة.. اليبوه وصلت لبحر قزوين.. والله لألعن أبوچ على أبوه على أبو اللي يسكر وياه بعد.

في إحدى غرف البيت القديم في السنية، اعتاد صلّوحي أن يضع ربع العرق ونومية حامضة أو علبة لبن رائب، وفي بعض الأحيان صحن باقلاء مسلوقة أو لبلبي، وفي أعلى حالات التجلّي، يعدّ لنفسه طبقاً صغيراً من الجاجيك.

أدوات السكر هذه يضعها في مساحة الشباك العريضة (هكذا كانت البيوت القديمة). مسدلاً عليها ستارة غالباً ما تكون

Twitter: @ketab_n

قطعة قماش يثبتها بمسمارين. وحين يأتي وقت الرشفة يرفع الستارة ليرتشف من البيك (كأس الخمرة)، بعدها يتناول ملعقة صغيرة من المزّة أو (مصّة) من شيف النومية، ثم يسدل الستارة عائداً إلى الحديث أو التعليق على ما يعرضه التلفزيون.

كان يجلس رافعاً دشداشته البيضاء الكودري إلى أعلى ركبتيه للسماح بوصول أكبر كمية من هواء المروحة إلى جسمه المحمرّ بفعل الحرارة وتفاعلات العرق المسّيح.

ذات يوم وبعد أن أنهى صلّوحي تحضيراته وأسدل عليها الستار. أخذ وضعه على الكرويتة. رفع قدميه إلى حافتها مقرفصاً وقبل أن يرفع دشداشته، طرقت الباب.

صعد له ابن أخته عقيل مهرولاً:

- خالي...... ناس غربة يسألون عليك.

- غربة منين.. خاف ذولة من ملطلطين (السنية) جايين بسالفة طايحة حظ؟

- لا خالي يا ملطلطين.. كلهم افندية.

- شنو يعني.. افندية وملطلطين.

- خالي.. بيهم واحد لابس بيمباغ (ربطة عنق).

- بيمباغ بالصيف.. وبالسنية.. فوّتهم خالي.. فوّتهم.

قالها والتذمّر واضح على تعابير وجهه، وخصوصاً

Twitter: @ketab_n

حين رمق الستارة المسدلة على ربع العرق والبيك الذي عمّره بكسرات الثلج.

دخل الضيوف مبادرين إلى مصافحة صلّوحي باحترام بالغ به أبو البيمباغ، الأمر الذي اثار ارتيابه.

بعد (الله بالخير) وكلمات المجاملة المقتضبة، شعر الضيوف أنّ مضيّفهم بدأ (يحوص) فبادر أحدهم:

- عمي ابو مهدي.. احنا بيت الگصاب، جايين من ذاك الصوب.

- ....

- عدنا طلب من جنابكم، وانشاء الله ما تردنا بالفشيلة.

- والله اذا گدرت عليه، من عيني.

- ابو مهدي، احنا جايين نخطب بنتك نبيهة لابنا فاضل.

ثم أشار المتحدّث إلى صاحب البيمباغ الذي أطرق برأسه احتراماً لعم المستقبل، وعمّ المستقبل (يحوص) في مكانه وعينه على الرازونة. حيث بيك العرق وراء الستارة.

هنا دخل ضياء (ابنه) واضعاً منديلاً على فمه محاولاً كتم رائحة البيرة خوفاً من أن يشمها أحد في الغرفة التي عطّت فيها رائحة العرق الهابة من وراء ستارة الرازونة.

Twitter: @ketab_n

ما أن رأى صلّوحي ضياء حتى ناداه فدخل مسلّماً على الضيوف، سائلا أباه:

- ها بوية تريد شي؟

لم يجبه صلّوحي وتوجّه بالحديث للضيوف:

- ما طول هذا إجانه......

التفت إلى ضياء:

- تدري هالثنعش زلمة عابرين الشط بها الدركية، وبها الليل، على موديش؟

- على موديش؟

- على مود اختك نبيهة.. باچر من الصبح تلبسها عباتها وتحطها بالبلم وتسلمها لهذي الوجوه الطيبة..

تفاجأ ضياء وحاول أن يتدارك الموقف بغمزة أو اشارة إصبع. لكن صلّوحي صرخ بسلطة الاب:

- كسرتو وجهي، أعلّمكم الأصول وانتو مثل بول البعير، لي ورة..... لي ورة.

ثم التفت إلى الضيوف:

- يا جماعة اعذرونه.. هيچ تصير الامور لما واحد يخليها بيد هالأرذال.

Twitter: @ketab_n

ورفع يده مشيرا إلى ابنه الذي بدا حرجه واضحا، الأمر الذي دفع المتحدث باسم الخطّابة إلى محاولة القاء حبل الانقاذ من الموقف:

- أبو مهدي.. خلي العائلة تتدانش بالموضوع وننتظر منكم خبر.

- لا خبر ولا هم يحزنون باچر متشوفوها الا عند فاضل.

خرج الخطابة ليقفز صلّوحي إلى بيك العرق ويجره جرة واحدة وسط صدمة ابنه وابن اخته من أسرع خطبة لامرأة تمّت أمام أعينهم.

بعد ساعة وأكثر، دخل ابنه الكبير مهدي وهو يترنّح على أثر نصّ مسيّح. لكن بقي لديه من الوعي ما يكفي للإحساس بأنّ أباه (داگ دگّة):

- شكو بويه... شصاير؟

- شمدريني.. ناس ملطلطة وسرابيت اجت من ذاك الصوب مدري شيريدون.

في تلك الليلة، زوّج صلّوحي ابنته نبيهة بطرفة عين، مستعجلاً العودة إلى ربع العرق المنتظر، لتركب نبيهة البلم بعد أيام ذاهبة إلى بيت الزوجية في الصوب الصغير. البيت الذي لم تعد منه حتّى اليوم بعد أن ملأته أولاداً وبناتاً وأحفاداً أيضاً.

Twitter: @ketab_n

كبر الأحفاد وصاروا يقصدون بيت جدهم أيّام الاستعداد للامتحانات، متحلّقين حول أخوالهم وخالاتهم.

ذات يوم، دخل عليهم صلّوحي وهو المعتدّ بمعلوماته:

- اسألوني.. آني حجة بالسياسة والجغرافيا والعلوم.

ولأنّهم سرّ جدّهم وجدوها فرصة للإيقاع به فسأله أحدهم:

- ما هي (شامي كابور)؟

اجاب صلّوحي واثقاً، ومن دون أن يلتفت:

- حامية بالاناضول.

حين تعالت ضحكاتهم استدار نحوهم منفعلاً:

- لا يا ولد النعل.. اتذكرته هذا واحد سينمائي قُرقُصْ زمبلك.

لم يكن استعراض المعلومات هو مشكلة صلّوحي مع أبنائه وأحفاده، بل أيضاً مع أبناء أخته الذين كانوا قريبين منه دائماً.

حين انتقل من الحي القديم (السنية) إلى بيت جديد في حي الإمام على الطريق المؤدّية إلى كربلاء، انتقل بيت أخته إلى نفس المكان.

Twitter: @ketab_n

كان ابناها عقيل وعماد يرافقونه من باب البيت ليجتازوا الشارع مشياً حتّى الطريق العام فيركبوا ما يوصلهم إلى (السنية) حيث تتكرّر الأيام مثل صفحات متشابهة في كتاب.

ما بين البيت والشارع العام، اعتاد صلّوحي أن يلتفت نحو عماد وعقيل مؤشّراً بهزّة من رأسه إلى بيت من طابقين ثم يقول:

- هذا البيت إيجاره ٢٠٠ دينار.

كان هذا المبلغ ثروة في بداية الثمانينات الأمر الذي جعل صلّوحي يكرّر هذه الجملة يوميا، وما على ابني أخته سوى التعجّب معه كلّ يوم.

ذات ضحى، وقبل أن يصل الثلاثة البيت ذو الطابقين، همس عماد لعقيل:

- هسة راح يقول هذا البيت ايجاره ٢٠٠ دينار.

التقط صلّوحي الهمهمة فعرف أنّه مقصود بها، وأنّ البيت له علاقة بالأمر، وبالتحديد ايجاره.

ما أن وصل أمام البيت حتى أطلق جملته اليومية لكن من دون أن (ينفه) عن عماد، الذي لا يذكره إلّا وصفة (الزنيم) ملحقة باسمه، ومن دون أن يلتفت:

- هذا البيت ايجار الطابق الفوگاني ١٠٠ دينار والطابق الجواني ١٠٠ دينار.

Twitter: @ketab_n

محمد، أصغر أبناء صلّوحي وأكثرهم معاناة من اعتراضات ابيه على ما يفعل ويلبس.

حين أطال شعره، شأنه شأن الكثير ممن في عمره في السبعينات، انتبه له صلّوحي فصار يطوّح بكفّه يميناً وشمالاً، وهي حركة تدلّ على الاستخفاف:

- بالآخرة شراح تسوّي وانت مسجّل عند الله ذكر؟

ما أن انتهى من الشعر حتى انتبه إلى البنطلون الضيق جدّاً:

- وهذا البنطرون..... فهمني شلون راح تضرط ؟

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الملّا محمد علي

الملّا محمد علي. محمد علي القصّاب. محمد علي الأعور. أو الملا فقط. أسماء لشاعر شعبي وقصّاب ارتبط بالمغني الشهير سعدي الحلّي، فهو كاتب لأكثر من ثلاثة أرباع أغانيه التي لا يوجد سائق في العراق أو خمّار لم يكمل الابتدائية إلّا وتحت يده مجموعة منها.

حين كان صلّوحي يمر أمام المقهى الذي يجلس فيه الملّا ويلقي السلام وهو ماشي، يجيبه الملّا بينما يطوّح بمسبحته ثم يلفّها حول إبهامه بحركة سريعة متقنة:

- السلام عيني...هلا بالمتمكن !

على الرغم من أنّ الملّا كتب آلاف القصائد، غنّي قسم كبير منها، إلّا أنّه كان من الشعراء الذين يحترمون الاختصاص. فعلى الرغم من أنّ كلّ ما كتبه في الغزل، لم يوجّه قصيدة أو حتّى بيتاً لامرأة.

فللنساء شعرائهن وللفتيان شعراؤهم، وكان الملّا يقف في صدارة شعراء النوع الأخير، أو هكذا يقال ويتردّد.

Twitter: @ketab_n

منذ أكثر من عشرين سنة، والنكات عن سعدي الحلّي تجاوزت العراق لتصل إلى حيثما وجد العراقيون وحتّى غير العراقيين.

هذه العاصفة من النكات ينطبق عليها القول الشهير: الصيت لنا والفعل لغيرنا.

سعدي الحلّي صار الضحية لأنّه من يردّد الأغاني. أمّا كاتبها وصاحب أبياتها المفخّخة، فهو قابع هناك.. في الحلّة، تاركاً سعدي بوجه المدفع بعد أن اختار أن يبدأ من بغداد رحلة الفنّ التي انتهت به موضوعاً لمسلسل من النكات استمرت حتّى بعد موته.

كان في الحلّة شاب أزرق العينين أحمر الوجه أشقر. وهو شاب عرف برجولته وخشونته، وايضا عرف بميله إلى السلوك الجاد.

مع كلّ هذا، ظلّ الملّا يراقبه من بعيد وهو يجلس في إحدى مقاهي شارع (الري) من دون أن يجرؤ على أن ينبس ببنت شفة. فقد كان يعرف أن هذا الشاب لو شم رائحة نواياه، لأطفأ عينه الوحيدة الباقية.

مع ذلك، لم يستطع أن يكتم ما يكابده، فكتب:

Twitter: @ketab_n

يالـــخدودك شيوعيات		وعيوني أمــن تتحرّة
أبيّـك بالبــحر غوّاص		غاص وطلعـلك درّة
حبـــك من جهـنم نــار		راح احتــرك واتذّرّه
اتصلن بالخدود أسلاك		واعتـلگن على الذرّة

انتشرت القصيدة حتّى وصلت إلى الشاب المقصود. طار صوابه وصار يذرع شوارع الحلّة بحثاً عن الملّا الذي اختبأ في النجف معتقداً أنّ للعاصفة أيّام و تمرّ.

بعد أسبوعين عاد محمد علي القصّاب إلى الحلّة، مطمئناً إلى أنّ النفوس قد هدأت، لكنّه غيّر مقهاه من المهدية إلى (أبو سراج) على الشطّ.

لأن من الصعب أن تكتم سرّاً في الحلّة، أوصل (أهل الخير) الخبر إلى الشاب:

- الأعور يومية يگعد بگهوة ابو سراج من العصر لليل.

ما أن مالت الشمس للغروب حتّى دخل الشاب المقهى والنار تكاد تخرج من عينيه، وبصوت عريض صرخ من الباب:

- ولك.. أعور الكلب.

Twitter: @ketab_n

كان الملّا شبه مضطجع على احدى الكنبات الخشبية وهو بكامل الزي العراقي: الصاية والجاكيت واليشماغ والعقال، أمّا العباءة فقد طواها ووضعها إلى جانبه.

ما أن سمع الصوت حتّى قفز تاركاً نعاله تحت الكنبة ورمى العباءة بعيداً، فقد رأى نصل السكين وهي تلمع من بعيد.

الملا المعروف بخوفه، صار يركض ويقفز أمام الشاب مثل القبّرة. ينطّ من كنبة ويحطّ على أخرى ويده على عقاله خوفاً من أن يطير وهو يصرخ:

- يا جماعة.. الزموه خاف يعوّر نفسه !

سماع محسن الكوفي كان للباحثين عن حزن الأغاني (وهم ثلاثة أرباع العراقيين تقريباً)، حجر الزاوية في استجلاب الآهات وجرّ الحسرات، حتى وإن اختبأت في زاوية قصيّة من الروح.

كان الكوفي بسنواته الثمانية عشر لا يقدر على هذا فقط، بل ويذهب أبعد بكثير حين يصّعد الموال وهو يصيح ملتاعاً:

«أيا حمّال نعشي ويا خياط كفّني..»

ملّا محمد علي كان طرفاً في هذه البكائية التي ما زالت سارية المفعول حتّى اليوم.

Twitter: @ketab_n

علاقته بالكوفي تمتدّ إلى الخمسينات. صار أقرب اليه حين أصيب بالتدرّن (السلّ) ليدخل مستشفى مرجان في الحلّة حيث لا مستشفى خاص بهذا المرض في مدينته الكوفة.

ولأن (الغربة كربة) كما يقول الملّا محمد علي. حرص هو ومن معه من مريديه على زيارة الكوفي ليلا.

كان مستشفى مرجان أشبه بحجر صحّي لمرضى السلّ، فكانت عمليات الملّا ليلية غير شرعية وتتم قفزاً من على السياج، وبتواطؤ مع الحارس ومسؤول القاووش.

المستشفى التي كانت في تلك الأيّام في أقصى شمال الحلّة، اختير لها مكان بعيد عن العمران، فاحتلّت المساحة الممتدّة من الشارع المؤدّي إلى بغداد حتى ضفّة الشطّ. وهي مسافة شاسعة سمحت للأرض المحيطة بالمبنى أن تكون منبتاً للحلفاء والأشواك ومقرّ تجمّع ليلي للكلاب السائبة.

الملّا وتابعوه من مجموعة المتسلّلين، كانوا يصنعون حلقة في هذه الأرض اليباب. ما أن يلمح الحارس خيالاتهم المتحرّكة في الظلام، حتّى يخبر مسؤول القاووش الذي يقود محسن الكوفي من يده الصفراء بعد أن يغطّيه بالبطانية المهترئة من الدعك والتعقيم، ليوصله إلى حيث الملّا ورفقته غير العابئيين بالعدوى، المنتظرين بلهفة المشتاق ابوذيّات محسن بعد أن يكونوا قد أخرجوا (أنصاص) العرق وثبّتوها

Twitter: @ketab_n

أمامهم مع قليل من حب الركي المالح في جيب الجاكيت أو جيب الصفحة في الدشداشة.

في تلك الأرض الموحشة وتحت قمر لا يضيء شيئاً، سجّل محسن الكوفي شريطه الوحيد الذي يغني فيه موته الأقرب إليه من أصابعه الناحلة. يصيح:

« أيا حمّال نعشي ويا خيّاط كفّني »

بينما يتعالى من بعيد نباح الكلاب السائبة، وفرقعة الأصابع التي أخذت محلّ الدفوف والدنابگ الفضّاحة.

مات محسن الكوفي وبكاه الملّا بأبوذيّات قال في مطلع إحداها:

(بدليلي النار سعّرها ووجها)

مرت أيّام العزاء ليعود الملّا إلى مكانه في المقهى فيرفع عينه الواحدة نحو السماء:

- ليش يا الله تمّوت محسن الكوفي.. مو هذا قدامك محسن حمادي الحسن؟

كان محسن حمادي الحسن مديراً لإدارة الحلّة المحلية. ولا سبب لترشيح الملّا له للموت غير تشابه الأسماء.

على الرغم من أن القصابة مهنته التي يعيش منها، إلّا أنّها نادراً ما تذكر حين يذكر الملّا محمد علي. وحين تسأل كريم

Twitter: @ketab_n

النور (أشهر وأفضل من يروي عن الملّا) يستغرب بدوره الأمر. لكنّه يتذكر أنّه كان يجلس مع الملا خارج دكانه غير منتبه إلى قلق الأخير والتفاتاته المرتبكة، بعد أن أذّن الظهر ولا زبون اقترب من الدكان. إنّه القلق من كساد بضاعته التي لا تحتمل الكساد.

التفت نحو الذبيحة المعلقة:

- ضلي لا تنباعين.. اريد اشوف منو اللي راح يجيف، آني لو انتي؟

ذات ليل ممطر انطفأت فيه الكهرباء. كنّا خارجين من نادي العمال الذي احتلّ مبنى مدرسة قريبة من سينما الفرات. كنّا مجموعة من بينهم جبر داگي الذي ذهبت به شظية ايرانية بحجم علبة الكبريت. اخترقت قلبه لتفجعنا نحن أصدقاؤه المتناثرون في جهات الأرض الأربع.

كنّا نتحسّس موقع أقدامنا بين برك المياه الصغيرة، حين توقّف جبر فجأة والتفت نحو خيالين لشخصين ترتفع ضحكاتهما عالية في الظلام بين فترة صمت وأخرى:

- هذي ضحكة الملا.

أجاب صوت من الظلام:

- اي والله الملا.. انتو منو يا عين الملّا؟

Twitter: @ketab_n

صاح جبر:

- يا عين منهن؟

ارتفعت قهقهة الملا المعروفة:

- هذا جبر.. لو آني غلطان؟

- مو بالحيف انت تغلط ملا؟

- ....

وقف الملا وصاحبه فاقتربنا منه. كنا خمسة فارتفع صوته:

- هلا.. هلا بالشباب الطيبة.

ردّ جبر:

- هلا ملا، گبل السؤال والجواب نريدك تغني.. طالعين من نادي العمال وكل واحد راسه صاير قزان.. يعني ما بيها مجال.. تغني يعني تغني.

مدّ الملّا يده تحت إلى جيب سترته ليخرج علبة ثقاب سحب منها عوداً واشعله.

اقترب وصار يمرّر ضوء عود الثقاب ببطء على الوجوه. وجهاً بعد وجه.

حين تيقّن أنّه لم يكن بين الوجوه أبيض أشقر يفتح

Twitter: @ketab_n

قريحته. نفخ العود فأطفأه، وأدار ظهره مبتعداً وهو يبلغنا قرار ما بعد المعاينة:

- منعرف نغني...

كسدت القصابة فوجد الملّا نفسه غارقاً حتى أذنيه في بطالة لم يتعوّدها. لتبدأ (والرواية أيضاً لكريم النور) رحلة يومية للبحث عن عمل جديد.

بحث الملا محمد علي يختلف عن بحث غيره عن عمل، فهو يخترع مهناً ينوي امتهانها. وغالباً ما تشتغل ماكنة اختراع المهن هذه بعد أو قبل منتصف الليل بقليل. أي حين يكون قد أتمّ نصّ العرق المسيّح.

يصفن الملّا عادة. وبعد صفنة طويلة بعض الشيء، يلتفت بحركة سريعة رافعاً صوته على غير عادته:

- لگيتها.

يجيبه كريم المنشغل بترقيع ثقوب سيجارة (بغداد) من وراء نظّارة سمك زجاجها ثلاثة أرباع السانتمتر. ومن دون أن يلتفت:

- شلگيت؟

Twitter: @ketab_n

- شغلة ذهب.. متلحگ تلم الفلوس.

- شنو هية؟ (مازال يرقّع بسيجارته).

يقترب الملّا من كريم النور ثم يلصق فمه بأذنه صانعاً من كفّه ستاراً حتّى لا يرصد أحد حركة شفاهه فيلتقط حرفاً قد يقوده لمعرفة مهنة الملّا الجديدة.

يفعل هذا على الرغم من أنّ أقرب شخص يبعد خمسين ذراعاً على الأقل عنهما.

يهمس الملّا بصوت أقرب إلى الفحيح:

- حلاقّ........ حلاقّ.

- چا هي هاي الشغلة الذهب؟

- طبعاً ذهب.. راسمالها سكملي ومراية بعشر دنانير ومگص ومشط. هاي بدينار ونص. قنفة نجيبها ببلاش من قهوة فاضل. وبردة (برلون) صفرة اذا كتلت روحها ويا الخياطة دينار ونص.

- والحلاق؟

- هاي شنو منك ابو سليم.... آني طبعا.

- انت الحلاق؟

- ليش خوية كريم.. مو بعينك؟

Twitter: @ketab_n

- بعيني، ما اختلفنا... بس شمعرفك بالحلاقة؟

- ميهم...

- شلون ميهم ملا؟

- منو يسأل اذا علگت البردة البرلون وحطيت گدامها الجامخانة وزرگت بعدين لبغداد؟

- لبغداد؟

- طبعا لبغداد لعد منين تجيب صانع حلو.

- ....

- والله الحلة تنگلب على الملا، العالم تصير لحم، واحدهم لو تطيّر حاجبه ميدري....

- ....

- هو اكو واحد راح يباوع روحه بالمراية، كلها عيونها على سمير.

- منو سمير؟

- البغدادي.

- ليش انت تعرفه؟

- لا

هذا الحوار يتكرّر كلّ ليلة، الملّا يخترع مهناً لا يجيدها

Twitter: @ketab_n

وكريم النور يسمع على مضض. لكن الحوار غالباً ماينتهي بضحكة كريم الشهيرة، والتي لم تكن سوى شهيق طويل بلا صوت، يعقبه بثلاث أو أربع ضربات متلاحقة بكفّه المنبسط على ركبته اليمنى مستعجلاً زفيره الذي تأخّر طويلاً.

ذات ليلة وهما جالسان في حديقة النساء، وعلى طريقة التفاحة التي سقطت على رأس نيوتن، صاح الملا:

- لگيتها.

- شنهيه ؟

- الوظيفة.

- الله اليستر.

- موظف بمعمل الاسكندرية.

- شتشتغل بالاسكندرية، ذولة ميسوون غير كرّابات ولوريات.

- اشتغل جوه ايد المدير.

- فراش يعني؟

- لاعمي يا فراش.. بس اوگف يمه اذا يحتاج غرض، حاجة.. رأساً أنطيهياه.

- شنو هذي الحاجة؟

Twitter: @ketab_n

- يعني يگلي: انطيني سكول سبانة.

- وهي شنو السكول سبانة؟

- .. مثلا.. مثلا.. ابو سليم شگد صاير دهري.

بغير كتابة أغاني سعدي الحلّي، عرف الملّا بتقديم الأشرطة التي تصدر عن تسجيلات أبو عامر في الحلّة وشرهان گاطع في البصرة.

لعلّ شهرته في هذا النوع من التقديم بدأت مع تقديمه الشريط الوحيد لمحسن الكوفي الذي قرأه على خلفية من عواء الكلاب السائبة.

يسبق الملّا، إيقاع رتيب تتخلّله سحبة كمان أو نفخة ناي حتى تسكت الكلاب فيبدأ الملا:

«يمحسن تحت هرش الورد غنّي

وشرّبني واخذ الكاس مني

ميلي للطرب من زغر سني

أحب اسم إلفرح

(هنا يعود النباح...... هَو.. هَو.. هَو..)

Twitter: @ketab_n

واحب رنه القدح

وغير الطرب محبوبك شعنده

محسن خوية غني عالمّودة.. »

أمّا حين قدّم سنية الكاولية المعروفة باجادتها لمقام الدشت، قال:

« حفلة وحضرت الشبان كلها

وحفلات الطرب تحضرها اهلها

واليتعنة للونسة....... يصلها

يجي النوم الي منين

ليالي سهرت العين

مرّ الحب عليّه

غني ياسنية »

قبل هذا التقديم الشعري يكون عريف (الگعدة) قد استعرض مشاهير الحضور بصوت يحاول أن يحاكي فيه مذيعي الراديو:

- تسجيلات شرهان گاطع، بصرة شارع ساحة ام البروم، تقدم لكم بلبلة الريف سورية حسين، وترحب بالضيوف:

Twitter: @ketab_n

أبو عامر صاحب تسجيلات أبو عامر من الحلّة، ومعه الشاعر الكبير الملا محمد علي القصاب وبطل العراق واسيا في كمال الاجسام علي الگيار وملازم أول مرور صاحب الدغاري والحدّاد الفنان شاكر ابو شوارب واخيرا لاعب نادي الميناء بكرة السلة ناشئيين، سلام.

على الرغم من أن الملّا كان يقدّم المطربين والمطربات من (قلب وربّ) وبضمير توقظه فرقعة الأصابع وكرم الضيافة، إلّا أنّ تقديمه لسعدي الحلّي كانت له نكهة مختلفة، كيف لا وهو رفيق الدرب الذي التقاه في الخمسينات وصبر عليه حتى أذاعت له إذاعة بغداد أولى أغنياته وربّما أشهرها:

انا اريدك دوم تـــــدلل حتى ابقى بيك اتوسل
وانت عن الحال ماتسأل انا اريـد دوم تــــدلل

حدث هذا في السبعينات. في بدايتها ربّما. حينها وبسبب حلّاوية محمد سعيد الصحاف الذي كان مديراً للتلفزيون في تلك الفترة، صوّرت الأغنية وبثّها التلفزيون فشاهدت الحلّة مطربها سعدي وهو متسمّر أمام الكاميرا بالبدلة الكاملة وربطة العنق والحذاء اللامع جداً، لا يتحرّك شمالاً أو يميناً حتى ولا لسنتمتر واحد.

سعدي المتجمّد مثل تمثال. كان حديث الحلّة تلك الليلة.

Twitter: @ketab_n

الحلّة التي تعوّدته بالدشداشة البيضاء وتكسي (المسكوفيج) دخلت في جدل عن البدلة والحذاء، وهل اشتراهما له الصحّاف أم أنّه وقع في فخ الديون الذي نصبه له منافسون بغداديون خائفون من حجم حنجرته الذي يصل إلى حجم رأس بصل.

هاشم ابو الدهين، شقيق سعدي، لم يستيقظ في اليوم التالي لأنّ أشقّاء الفنانين مثلهم، لا يصحون قبل أذان الظهر.

لأنّ سعدي يختلف، كان الملّا يقدّمه بروح مختلفة ونبرة خفيّة يعرف خباياها الاثنان:

« هالليلة يا سعدي هذي گمرة
وباوع للسما نجومه مزهرة
وعلينة الگمر يضرب صار بدره
وصد اعلى البساتين
بيها مظلل التين
ريم بوسط بستان
يمشي وجسمه نعسان
تگول يهيج وجدي
من يغني سعدي »

Twitter: @ketab_n

ثم يلتف نحو سعدي، وبصوته الأبح يتوسّل:

- غني ابو خالد.... غني.

ذات ظهيرة صيف، بينما المدينة ذاهبة في قيلولتها، والشوارع خالية إلّا من ريح لفحها مثل لفح النار وصبية يكوّرون دشاديشهم على رؤوسهم الصغيرة وهم في الطريق إلى الشط.

كان الملا يجلس وحيداً في مقهى نوري. محاطاً بالمرايا من كل جانب.

نظر يميناً فرأى وجهه. التفت يساراً فرأى وجهه. التفت وراءه فلم ير إلّا وجهه. تمتم مع نفسه:

- انت اللي خابص الدنية ... تاليها طلعت أعور؟

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

لطيف بربن

كان الملا محمد علي جالساً على الرصيف أمام الإطفائية (قرب الجبل) وبجانبه حزمتي جت (برسيم).

حين رأى لطيف بربن يمرّ على الرصيف المقابل صاح:

- ابو ياسين..... تفضل..

- شتفضل هيّ باگتين يادوب يكفنّك للغدا.

- مو صوجك... آني ابن گحبة.

حين تسمع ما يتناقل الناس عنه، لا تتصوّر حين تراه أنّه المقصود بما يروى.

طويل مثل حكاية لا تنتهي. نحيل مثل زاهد نسي الدنيا. اطار نظارته الأسود واستطالة وجهه تضع من لا يعرفه في حيرة التخمين، أهذا المظهر هو أقصى الجدّ، أم منتهى الهزل؟

الحياة بالنسبة لهذا الحليّ القحّ هي نكتة لم ينته من روايتها بعد، وضحك لاتوقفه لقمة العيش ولا السجن ولا المرض، ولا أشدّ الساعات سوّاداً مهما حلكت واكفهرت.

Twitter: @ketab_n

كان عطّاراً في سوق الصوب الصغير المسقوف. وحتى هذه المهنة التي طالما ارتبطت بالحكمة والجد، حوّلها لطيف بربن إلى نكتة.

كنت صغيراً حين ذهبت إلى دكّانه تلبية لطلب عمّة أمي التي لم تكن تعترف إلّا بالأعشاب دواءً.

- أريد كيلو ورد لسان الثور. (زهور صغيرة جافة، خفيفة جداً ومائة غرام منها تشغل حيزاً كبيراً).

رد حتى من دون أن يلتفت:

- روح جيب عشرين دينار و(بيك آب).

كان يومها راتب الموظف هو هذه العشرين ديناراً التي طلبها لطيف بربن. أما البيك آب فقد كان من أجل تحميل كيلو ورد لسان الثور.

حين كان صبياً يعمل تحت يديّ والده الذي وضعه تحت يده لتوريثه المهنة، جاء بدوي يسأل عن دواء لوجع البطن. يومها لم يكن في محلّ العطارة إلّا لطيف الذي لم تأخذ منه المكيدة إلّا دقائق تفكير ليبدأ بوصف الدواء للمريض.

أعطاه أوّلاً طحين أوراق شجر الكالبتوس. وهو سعوط يستخدم لدفع الأطفال إلى العطاس كي تنظف أنوفهم.

Twitter: @ketab_n

تلّفت بعد ذلك ليطمأن أن أباه لم يعد بعد. جلب دهن (المشگ) أي تشقّق الجلد نتيجة البرد وقال للبدوي:

- گمبّص هنا..

أشار إلى مؤخرة الدكان. طالباً من المريض أن يختبئ وراء أكياس الخيش، ففعل.

- لا تخلي طيزك تدگ بالگاع.

ثم أعطاه دهن (المشگ) ليدهن شرجه، والسعوط ليدسّه في منخريه.

ما أن مرت ثواني حتى بدأت متوالية لا تتوقّف من العطاس والضراط.. عطسة تعقبها ضرطة.. عطسة ثم ضرطة.. عطسة.. ضرطة ... قفز الرجل خارج الدكّان ممسكاً بعقاله وهو يهرول بينما متوالية العطاس والضراط مستمرّة.

اختفى البدوي في الزحام وبقي السوق يضحك من الحادثة التي أكل بسببها لطيف علقة ساخنة من أبيه.

بعد أسبوعين، ظهر البدوي ترافقه متوالية مرعبة. ليست متوالية الضراط والعطاس التي لم ينسها السوق بعد، بل متوالية اطلاق رصاص تصنعهما مسدّسات أبو البكرة.

Twitter: @ketab_n

ومشلح الرصاص المتقاطع على صدر البدوي ينبئ بأنّه عازم على مواصلة الإطلاق ليوم وليلة على الأقل.

نصف السوق أنزل أبوابه الخشبية والنصف الآخر انتظر متجمّداً أن تنتهي غارة البدوي بقتيل. ومن يكون القتيل المنتظر غير لطيف بربن. العطّار الذي فرّط بأمانة الطبّ وحوّله إلى مسخرة.

بخفّة قطّ وسرعة خفّاش، هرب لطيف بربن وضاع بين ازقة (الگلچ) المتاخمة للسوق، تاركاً البدوي المهاجم بمسدّسين، (غير الأسلحة المخبّأة بين الثياب)، لأهل الخير من أهل السوق الذين سحبوه إلى أحد الدكاكين بينما هو لم يتوقّف عن الإطلاق نحو سقف السوق، إلّا بعد أن سمع من ساحبيه الاستحلافات بأغلى ما لديه والتي انتهت بوضع أحدهم يده على شاربه. فصمت الرصاص بعد أن حوّل توتياء السقف إلى منخل.

هنا بدأ الرصاص بالانطلاق من لسان البدوي:

- الچلب ... والله وكلام الله لأذبحو اليوم ذبح نعاج.

- صلي على النبي.. صلي على النبي..

- اللهم صلي وسلم عليه.

- زعطوط وغلط.. انت الچبير..

Twitter: @ketab_n

- بعد ذاك الضراط .... ظل بيها چبير؟

لم يُعد البدوي مسدّسيه إلى غمديهما إلّا بعد أن استعان أبو لطيف بسيّد عودة الأعرجي. اقتاده من يده إلى حيث يجلس البدوي الغاضب لتفعل العمامة السوداء فعلها ويوافق المجني عليه على ترك لطيف على قيد الحياة ولكن بشروط.

عزيمة رجال يذبح فيها عشرة خرفان على الأقل وعزيمة نسوان متروك تقديرها لآل بربن، فالمطلوب منها إقناع زوجة المتضرّر بقيمة زوجها وقدره. بعد أن صار بعينها (ما يسوه فلس) على حدّ تعبيره.

بعد الحادث ارتدع لطيف وأصبح يكتفي بنفخ الفلفل الاسود في وجوه الزبائن من وراء ظهر أبيه.

درس لطيف في الكتّاب، وحين فتحت مدرسة (المهدية)، المجاورة لبيت شبيب البغدادي، نقل هو وأخوه إليها.

بعد القرآن والتجويد، صار يدرس الحساب والجغرافيا وسط معارضة شديدة من عمّه الذي كان يصرخ بوجه أخيه كلّما رأى لطيف عائداً أو ذاهباً إلى المدرسة:

- ياللي ما تخاف الله ... المدارس حرام ...

أمّا اليوم الذي استلم فيه لطيف ملابس الكشّافة فقد كان (عيداً) للعم. فما أن رآه وهو يضع القبعة الكشفية بمقدّمتها التي تظلّل العيون حتى قفز من مقعده صارخاً:

Twitter: @ketab_n

- هذا اللي تريده ابراهيم .... حاطيلة هذي حتى ما يشوف الله !

بالقبعة الكشفية او من دونها، كبر لطيف بربن ليدخل السجن في ١٩٦٣، عام الظهور الأوّل لحزب البعث، وهو ظهور لم يدم أكثر من ثمانية اشهر انقلب عليهم بعدها عبد السلام عارف منهيا فترة حكمهم القصيرة. الشهور الثمانية التي كانت كافية لتحويل العراق إلى سجنٍ كبير مورست فيه أنواع غير مألوفة من التعذيب خلّفت صوراً من الرعب لا تنسى.

من بين من سجنوا متّهمين بالشيوعية كان لطيف بربن الذي حوّل رعب السجن وأهوال التعذيب إلى مسخرة.

ليالي السجن الطويلة كانت تمرّ بمطاردات شعرية ينبري فيها لطيف لثلاثة من أشهر الشعراء، عبد الرزاق عبد الواحد ويوسف الصائغ ويوسف كركوش.

لم تكن تمرّ ليلة من دون أن ينضب الشعراء الثلاثة وتبقى ماكنة لطيف الشعرية في أعلى دورانها. أمّا كيف، فهذه كذبة صنعها لطيف وأرادهم أن يصدّقوها، ففعلوا وهم زملاء دراسة السياب والبياتي ونازك الملائكة.

كان يقول أبياتاً موزونة مقفّاة. لا يلحن فيها ولا يخطئ، لكن ينقصها جزء مهم في الشعر وفي غير الشعر: المعنى.

Twitter: @ketab_n

لم تكن (قصائده) إلّا حروفاً مركّبة بلا سابق تدبير. لكنك حين تسمعها لاتشك ولو للحظة بأنّها شعر، وشعر محكم، حتى أنّه ذهب إلى أبعد من ذلك حين عرض على عبد الرزاق عبد الواحد عنوان بحث يعتزم أن يكتبه في المعتقل عنوانه:

(تأثير الصحراء في شعر خثير الجهنمي)

وحين سأله عن الفترة التي عاش فيها هذا الشاعر ومن هو، اجابه لطيف وبثقة لا تدع مجالاً للشكّ:

- هذا من الصعاليك.. عنده قصيدة شهيرة تقول:

كم روشن سعد المنثور برقّه
رامي التلاميح بالاوهام اردانا
لا تعجلن اذا مالسلسبيل بدا
بحلة التين هفهافا وريّانا

هذه القريحة التي لا رأس لها ولا أرجل. انفتحت للمرّة الأولى بعد كمين نصبه له أصدقاؤه في ١٩٥٩.

حدث هذا حين سافر وفد من شبيبة الحلّة (إحدى منظّمات الحزب الشيوعي العراقي) إلى ديالى، وكان لطيف يشارك في إحياء حفل من حفلات تلك الأيام (أيام تحالف الشيوعيين مع عبد الكريم قاسم).

Twitter: @ketab_n

اعتلى عريف الحفل المسرح مقدّماً فقرة جديدة:

- مع الشاعر لطيف بربن من شبيبة الحلّة في القصيدة التي كتبها خصيصاً لهذه المناسبة.

تلفت لطيف مصدوماً، فلا قصيدة ولا مناسبة ولا شاعر حتى.

في زاوية القاعة لمح المتآمرين، طالب گمر وقاسم عبس وهادي عيسى، وهم يكادون أن يستلقوا على ظهورهم غارقين في نوبة ضحك متواصل.

همس لطيف لنفسه بعد أن تجلّت أمامه المؤامرة والمتآمرين:

- ما الك غير التصفيط.

اعتلى المسرح بطوله الفارع ونحوله الذي لم يوح إلّا بزهد الشاعر وانصرافه لمعارك الوحي والخيال. ثم ابتدأ باسطاً يديه الطويلتين نحو طرفي القاعة مشيراً إلى الجمهور المنصت:

« هاكم نداماي عصفا من سحاباتي

واستبشروا فالأماني البيض لالاتي

لا تقربوا المخزن المحروق جامته

فالفجر يدنو وأم الصوت ترباتي

Twitter: @ketab_n

وزورق الفجر يبكي فوق قنقرة

وشبّة النور تدنو من جراحاتي

هل تنفري كبدة الصفاق شالعة

او هامي الغرّ في اعماق طاساتي»

لم يعد (الشاعر) يسمع غير التصفيق الذي أعطاه فرصة للنظر إلى (المتآمرين) الذين لمحهم ساهمين ينظر كلّ منهم في وجه الآخر.

مطاردات السجن الشعرية كانت تستمرّ حتى الثالثة صباحاً. تنضب بعدها قرائح الشعراء إلّا لطيف بربن.

ذات يوم اقترب منه يوسف الصائغ في ساعة التنفّس (ساعة يخرج فيها المعتقلون من زنزاناتهم إلى ساحة السجن) وسأله:

- تدري لطيف.. ما عندي مانع أسمع منك كلّ هذا الخرط، بس منين تجيب كل هذي الكميات، ووين تصفطها ؟

اعتاد لطيف بربن في النصف الأخير من السبعينات وبداية الثمانينات أن يقضي الليل في نادي الموظّفين في حيّ بابل، حتّى بدأ النادي بطلب الهويّات من الداخلين، فطرد لطيف ومن معه.

Twitter: @ketab_n

أحد الجلّاس كان لديه محل لا يستخدمه فعرضه على رفاق الكأس ليحوّلوه إلى وكر للخمر ونادٍ بلا هويات.

على عجل، جمّع المطرودون (أثاث) مقرّهم الجديد. قدور وصحون وطباخ بعين واحدة. والأهم من هذا كله.. الأقداح.

عدا أيام الاسبوع، يلتمّ كلّ خميس الشمل المؤسّس مع ضيوف قد يأتون بصحبة أحد أفراد المجموعة.

من بين هؤلاء كان هناك ضيف (منگول)، أي أنّه لا يدفع بل يتقاسم الآخرون تكاليف وجوده، لا لسبب ولكن لأنّه مدير زراعة الحلّة.

المدير كان شقيق جعفر الزرگاني. المدرّس الحلّاوي الذي يعود لمجموعة الشاعر موفق محمد الذي اعتدنا مناداته آنذاك بموفق أبو خمرة (اسم عائلته).

جعفر كان مشهوراً بأنّه صاحب أقوى (زيگ) في الحلّة فان عفط في هذا الصوب لا بدّ أن يسمع هذاك الصوب.

الغريب أنّي لا أتذكّر جعفر (يضرب زيگ) إلّا وهو بالبدلة الكاملة وربطة العنق الفاخرة.

يقول لطيف بربن، إنّ جفعر لم يكن يدفع واعتبر نفسه (منگول) كونه أخو المدير العام. الأمر الذي دفعه (أي لطيف) إلى تحويله هدفا لتعليقاته اللاذعة.

Twitter: @ketab_n

ولأنّ جعفر ليس قليل شرّ، لم يسكت، وصار يردّ التعليق بتعليق.

حين زادت المناكفات عن حدّها، اقترح أحد الموجودين نزالاً في اللذاعة يجري على الشطّ في كويرش (قرية متاخمة لبابل القديمة)، وتمّ تعيين المدير العام الزراعي حكماً، فوافق الجميع.

كان رهان النزال على خروف يسدح على صينية من أرز العنبر الخضراوي، والخاسر هو الذي سيدفع ثمن الخروف وما يسبقه من خمور ولوازمها.

وصل لطيف بربن يحيط به مناصروه، طالب گمر ومحيي عبيس الحجي وفريد مرجان وعبّاس البياتي وباقي الأنصار الذين أدخلوه البستان (ساحة النزال) بما يشبه الزفة. ما أن وصل إلى حيث يجلس خصمه الزرگاني حتى فوجئ به منتفخا مثل ديك هراتي، لا لثقته بالنتيحة ولكن لأنّه جاء ومعه موفق أبو خمرة، الشاعر بكلّ الطرق واللهجات واللسان السليط الذي لا فرق بينه وبين الساطور الثقيل سوى أنّ للأخير يداً أما لسان موفق فيعمل من دون الحاجة إلى يد أو إلى أيّة قوة مساعدة ففيه من القوّة ما يكفي ويفيض.

جعفر وموفق جلس على يمينهما ويسارهما يحيى أبو زكي وحسن عمران وحمدي أبو خمرة (شقيق موفق) وآخرون.

Twitter: @ketab_n

ابتلع لطيف بربن المفاجأة ولم يشر إلى الخروج عن شروط القتال اذ رأى أنّ في الشكوى من موقف ضعف لا يليق به.

بعد تعليقات الإحماء تربّع لطيف على الحصير وأمامه كأس عارمة من العرق المسيّح، استعداداً للهجوم وابتدأ بعد أن صعد بخار الكحول إلى قحف رأسه، أضاف بيتاً ارتجله مشيراً إلى وجود موفق:

«هم زمان الخلا جعفر يطلع لسانه عليّه

وهذا منهو اللاخ فايق خوش زمرة سرسرية

يا جماعة شلون دنيا جعفر وفايق هجوني

خنفسانة تمد رجلها تكول يالله نعلّوني

حصان أصيل نعرفك أنت شراك تالي عربنچي

الأوخ ماخذ صفحة منك صاعد ونازل القمچي»

ما بين بيت وآخر، كان جماعة لطيف يرفعون الكؤوس والهتاف وسط صمت متفق عليه من فريق الزرگاني. أما الحكم، مدير الحلّة الزراعي، فقد كان يوزع الابتسامات بين الفريقين بصمت وعدالة كما ينبغي للحكم أن يفعل.

Twitter: @ketab_n

انتهى لطيف من هجومه الذي لم يكن لأحد أن يتوقّع إلّا أن يكون بهذه القوّة التي ملأته بشعور المنتصر، فانبطح مستنداً على مخدّة من المخدّات التي بثّها منظّمو المبارزة.

دبّت الحركة في صف الزركاني، وما أن انتهى لطيف وجماعته من القهقهة المتواصلة، حتى انتفض جعفر واقفاً بالبدلة الزرقاء وهو يصرخ:

يا أتعس الناس يا أكذوبة القدر

ويا أخ القرد محسوبا على البشر

قال هذا البيت المباغت فقط ثم جلس ليعطي فرصة لتعالي صرخات الاستحسان وتوجيه السبّابات نحو لطيف الذي لم يتوقّع هذه البداية الشكسبيرية.

ما أن خرج لسان موفّق من مخبئه، حتّى تحوّل إلى سوط من نار صاعداً نازلاً على ظهر لطيف وظهور مجموعة مسانديه.

الزركاني مثل من أخرج من عبّه صقراً ناطقاً يجود بالأبيات القاتلة ويكتفي هو بالتأشير إليه بكلتي يديه وهو يلتفت نحو الخصوم ويصيح:

Twitter: @ketab_n

- اللي جاي أضرط من اللي راح......... والله لا نصلخ جلودكم ونفصلّها نعل.

موفق سخنت ماكنته فراح يرعد بالفصاحة وطول اللسان:

رث الجيوب خبيثاً دونما سببٍ

يمشي على عثر كالكلب في أثر

استفسر الناس عن شخصٍ بـ(حلّتنا)

بادي التشابه بين القرد والهررِ

يمشي على أربع في الليل منتعلاً

ما يشبه الضلف منحوتاً على كسرِ

فـحـولـوك إلــى طــب ببيطرةٍ

وقـيّـدوك بأغصان من الشجر

فاقنع بما كنت لا تقفز على أسدٍ

يريك ما لم تراه الأرض من عبر

لا يقبل القرد صحباناً لحضرتكم

ولا ابن آدم أو من عاش في البحر

Twitter: @ketab_n

فاقذف بنفسك يا مگرود في النهر

البعض قال إنّ لطيف بربن بكى يومها. والبعض الآخر قال إنّه توارى عن الأنظار لشهر، لكنه نفى كل ذلك حين سألته واستغرب القول إنّه انهزم أمام موفق والزرگاني:

- كان أخوه الحكم فاعطاه الافضلية.. هذا اللي صار لا أكثر ولا أقل.

انهزم ام لم ينهزم، بقي لطيف لساناً حادّاً مثل سكين وبديهة حاضرة.

ذات يوم، قال له ابنه معاتباً:

- بوية..... كل الحكومة جماعتك. يوم تترّيگ يم المحافظ، ويوم تتعشى يم مدير الشرطة، يوم تتغدى يم آمر الموقع. كلهم يريدون خاطرك وانت ما فد يوم اجا ببالك تتوسطلي وتنقلني من الجبهة... والله بوية الحرب دمرتني صار لي خمس سنين.

صاح لطيف بوجه ابنه متذمرا:

- وآني أشتّم گفا ايدي ... غير تنطيني اسمك الثلاثي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

السَنية..سينما المقهى

ما بينها والشطّ، مئة متر أو أقلّ. هي إحدى أقدم محلّات الحلّة. لا أحد يهتم بسبب تسميتها بـ (السنية)، لكن الكثيرين يهتمون بتفاصيل يومها وما دار بين جدران بيوتها المتداعية، وعبر نوافذها الخشبية المتشقّقة بفعل الفقر والزمن.

كلّ ما في هذه الزاوية من الحلّة يتحرّش بكلّها، ناخزاً أهلها في خاصراتهم ليخرجوا من صمتهم (هذا إذا صمتوا)، مطلقين حصان الكلام الذي لا يتوقّف عن الطراد إلّا بعد أن يدوس جهات المدينة الأربع.

في السنية سينما الفرات، ومقهى أبو جمال، وحجي مهدي صاحب أشهر محلّ للمخلمة وسوق الحلّة للهرج وبيت سيّئ السمعة ومدرسة متوسّطة، تتحوّل في العيد إلى مقرّ تؤجّره الحكومة للعب القمار، وعروض الغجر وأيضاً لسيرك من الدرجة العاشرة طليت حيواناته المريضة بألوان فاقعة، لتبدو وكأنّها جلبت من أعماق الأمازون، على الرغم من أنّها لا تختلف كثيراً عن الحيوانات السائبة التي تجوب شوارع الحلة، عدا القرد الذي لا يجيد إلّا التدخين.

Twitter: @ketab_n

بما أنّ الحلّة مثلما باقي العراق، تعيش أزمة سجائر دائمة، لم يكن لدى اي من زائري السيرك الاستعداد للتضحية بسيجارة حصل على علبتها بشقّ الأنفس من أجل تحريض القرد على اظهار مهاراته.

صاحب القرد كان يحاول تدارك المشكلة باعطاء قرده قلما بطول سيجارة، ولكن من يأبه بقرد يدخّن أقلاماً؟

من السنية، خرج صلّوحي الذي احتل فصلاً كاملاً من هذا الكتاب. صلّوحي لم يكن سوى قمّة جبل الجليد، أمّا باقية الغاطس فتتزاحم عليه مئات الشخصيات التي تفرّقها الأزقّة الضيقة وتجمعها اللمحة الحادّة والسخرية المرّة من كل ما تفعله الحياة وما لا تفعله.

سامي وعامر وكامل شندل، أخوة ثلاثة. الأوّل جابي في مصلحة نقل الركاب، والثاني حامي هدف، أمّا الثالث فكان مفوّض شرطة مفتول العضلات ومدافع يمين في نادي التحرير يعتبر كلّ المهاجمين خصوما شخصيين يُعدُّ اختراقهم خطّ الدفاع جنحة مخلّة بالشرف لا بد من منع حدوثها بأيّة طريقة كانت، مشروعة أو غير مشروعة.

عرف سامي شندل (وهو الأخ الأكبر) بخطبته الشهيرة التي تبدأ مع تحرّك باص المصلحة في ظهيرة كلّ خميس من علّاوي الحلّة في بغداد متجهاً إلى الحلّة، حاملاً أكبر عدد تسمح به كمية الأوكسجين في الباص.

Twitter: @ketab_n

يوم الخميس هو ذروة الزحام إذ يتوجّه الحلّاويون، موظفين وطلاباً وجنوداً وعمالاً ومتسكعين، من بغداد ليمضوا الجمعة في الحلة.

ما أن يتحرّك الباص، حتى يعلو صوت سامي شندل وهو يدقّ على الأنبوب المعدني الممتدّ على طول سقف الباص:

- اخواني... اخواتي.

يواصل الدق:

- اخواني اخواتي ارجو الانتباه.

يواصل الدق حتى يصمت الجميع:

- أكو ٣ مشاكل تهدد السلام العالمي.

يشيح البعض بوجوههم لسماعهم الخطبة للمرّة المئة:

- أوّل مشكلة، أزمة خليج الخنازير اللي الله مشاها على خير وسحب جون كندي الصواريخ وبقيت كوبا حرة مستقلة تصدر لنا الشكر واحنه نشرب چاي.

- ....

- المشكلة الثانية، فيتنام، و الجنرال جياب قايم بالواجب وعليه ارجو عدم القلق فالامر مسيطر عليه والسلام العالمي من ذيچ الصفحة لا خوف عليه..

Twitter: @ketab_n

......

- المشكلة الثالثة، وهي الاخطر، مشكلة الخردة يوم الخميس.. يعني اليوم.

- ......

- طبعاً كلّما راح أجي يم واحد أريد أگصلة بطاقة، راح يطلّعلي نص دينار. وإذا جان شعوره الإنساني صاحي راح يطلعلي ربع. واذا طلعولي أربعة من هاي النمونة، راح تخلص الخردة وراح أبدي أصيّح. والصياح راح يجيب الغلط، والغلط يجيب مسبّات اللي لازم تجي وراها البوكسات... ذيچ الساعة راح تصير خليج الخنازير وفيتنام مشاكل من الدرجة ثانية اذا اشتغلت البوكسات في هذا الباص الذي يحمل رقم ٥٧ والمتجه إلى مدينة الحلة الفيحاء.... وعليه...

(هنا تعلو نبرة الصوت الاخنف إلى آخرها)..

- كل واحد يطلع ٩٠ فلس لا تزيد ولا تنگص حفاظا على الصداقة والقربى والاخوة.. و السلام العالمي.

الاخوان الآخران، كامل وعامر، عرفا بجلسات التناحر في مقهى أبوجمال، المقرّ الرسمي لجلسات النميمة والتعليقات المبطنة لأهل السنية.

يجلس كامل فيتبعه عامر جالساً في مواجهته وكأنه

Twitter: @ketab_n

مكلّف بهذه المهمة، تكليفاً نافذاً لا يحتمل التهرّب والالتفاف أو التحايل.

الجلوس في مواجهة كامل هو نصف المهمة التي يؤدّيها عامر. أمّا النصف الثاني، والذي يؤدّيه بكفاءة نادرة، فهو معارضة أخيه في كل ما يقوله وماسيقوله.

إذا قال كامل إنّ سينما الفرات تعرض اليوم (الشعلة والسهم)، فإنّ عامر يسارع، وقبل أن يكمل أخيه جملته إلى الاعتراض:

- لا... بعدهم (داگين) سنگام.

يصرُّ عامر على اعتراضه بالرغم من أنّ إعلان فيلم (الشعلة والسهم) يسدّ بحجمه العملاق عين الشمس، معلّقاً على جدار متوسّطة الحلّة التي لا تبعد أكثر من عشرة أمتار عن القنفة التي يجلس عليها، والذي لا يحتاج منه حتّى إلى الالتفاف ليراه، فهو في مواجهته تماماً. أمّا إذا قال كامل إنّ الدنيا أمطرت اليوم في المحاويل فإنّ عامر ينطّ وكأنّه يجلس على نابض مربوط بصوت أخيه، فيصيح حتى من دون أن يشعر:

- لا.. بالمحمودية.

هنا يستشيط كامل الذي أتى من بغداد صباح ذلك اليوم بحكم عمله مفوضاً في الشرطة هناك بينما لم يغادر عامر السنية ولا حتى الفراش، فيصيح مستنجداً بمن حولهما:

Twitter: @ketab_n

- يا جماعة، هو منو اللي جاي من بغداد وشاف المطر اليوم.. آني لو هو؟

مرة اخرى يقطع عامر الطريق:

- واذا جاي من بغداد.. آني جماعة گالولي !

ذات يوم جلس كامل وتبعه عامر كما هي العادة. التفت الاول إلى الجالسين حولهما ثم توجه إلى اخيه:

- عامر... عندي سالفة.

- اي وشنو يعني.

- اذا ناوي تعاندني، گلي من هسة حتى ما أحچيها !

عبد أعور الذي قضى حياته في سكر متواصل بلا استراحة، كان يكره معلماً اسمه إبراهيم.

المعلّم، كان أحد أفراد حلقة دومنة تضمّ بالإضافة إليه، مهدي صلّوحي وياسين أبو كرويتة (مدير مدرسة ألحقت الكرويتة باسمه لأنّه يجلس عليها على باب الحمام، مراقبا الذاهبين والراجعين عصراً، أي قبل أن يتوجّه إلى المقهى)، ومسجّل النزالات، شاب اسمه عدنان وهو ابن أخت المعلّم إبراهيم ما غيره.

Twitter: @ketab_n

وصل عبد أعور المقهى ورائحة العرق تمشي أمامه.
لأنّه ناوي على إبراهيم، جلس على القنفة التي بظهره مباشرة.
قبل أن يصله استكان الشاي ابتدأ بالبث:

- طاح حظ كل معلم ما محترم. (كلهم معلمين)

لم يجبه احد.

- طاح حظ كل معلم أسمر وأگرع، حقير وما محترم نفسه.

لم يحبه أحد.. لكن عدنان ابن اخته لإبراهيم همس بأذنه:

- خالي.. اسمع.

تصنّع إبراهيم التعمّق في التفكير باللعبة القادمة فلم يجب.

عاد عبد اعور:

- طاح حظ كل معلم اسمر واقرع وما محترم واسمه ابراهيم.

هنا، فاض صبر عدنان، غيرة على إهانة خاله، فجّره من كتفه:

- خالي هذا يقصدك.

أجاب إبراهيم وهو يخلط الدومنة لجولة جديدة:

- خالي لا تتسرع.. خليه يشخّص.

Twitter: @ketab_n

الجنوح إلى السلم في السنية، لم ينفرد به المعلم إبراهيم، فهناك أيضاً صادق أبو جعفر أبو صماخ (هكذا يكنّى)، فقد كان من جماعة الحلول اللاحربية أيضاً.

بعد أن أوصل حملاً جاء به من الموصل (يعمل سائق على شاحنة سكس ويل)، رمى ببدنه الثقيل على أوّل قنفة فارغة صادفته في مقهى أبو جمال. قبل الرشفة الأولى من استكان الشاي، اخترق المقهى صالح الأعرج (لم يكن أعرجاً)، وكأنّه يطير ليهبط أمام صادق السايق صارخاً:

- عمي الحگ.. ابنك كتلوه ولد خيرية.

لم يتحرّك، ولم يجب على استغاثة الصبى الذي سارع للعودة طائراً من أجل أن لا يفوته جزء من معركة أولاد خيرية.

استمرّ صادق بارتشاف شايه، حتى هبط عليه الأعرج مرّة أخرى وهو يصرخ:

- عمي گوم.. ولد خيرية ذبحوا ابنك كتل، راسه انشگ وعفته سابح بدمه.

- روح جاي وراك.

اكتفى صادق بهذه الجملة وبقي جالساً، هنا لم يحتمل أبو جمال (صاحب المقهى) فصرخ:

- ولك هادي گوم.. ابنك راح يموت وانت حاط رجل على رجل؟

Twitter: @ketab_n

التفت نحوه صادق وهو يشير إلى انتهائه من استكان الشاي، أي أنّه يريد الثاني، مخاطباً أبو جمال ببرود الخبير الواثق:

- اصبر يا ابو جمال... غير تجينا معلومات؟

يطلق الحلّاويون اسم الـ (رقم)، وهو يعني الشخص الذي يقف في البرزخ الواصل بين العقل والجنون.

هؤلاء يتمتّعون بمظهر العقلاء وعملهم في بعض الأحيان كذلك، لكن ما لا يعول عليه هو كلامهم، فالكلمات لديهم سابحة في فضاء واسع لا روابط بينها ولا ضوابط.

حمزة هلال ورفيقه خنياب كانا من هؤلاء، الأخير كان سائقاً لدي سيد محمد علي القزويني، مالك البناية التي حوّلها المحامي حسن الحاج علي إلى سينما الفرات. أمّا حمزة فكان يعمل مصلّحاً للخناجر.

يوم افتتاح سينما الفرات بفيلم القرصان الأحمر، كان الزحام على أشدّه. سأل حمزة خنياب بصفته عارفاً بالشأن السينمائي كونه سائق صاحب العمارة التي استأجرها شخص آخر وحوّلها إلى سينما:

- شتگول، چم واحد بالسينما؟

رفع خنياب رأسه إلى الأعلى والأسفل أربع مرّات:

Twitter: @ketab_n

- والله حمزة شاگلگ.. بين المية وخمسين والعشرين الف.

Twitter: @ketab_n

مزرعة عمّودي وجريدته

إذا عطست إنكلترا، أصاب أوروبا الزكام.. من يشرح هذه الجملة؟

سؤال وجّهه مدرّس التاريخ في متوسّطة الحلّة المركزية أحمد سعيد الذي عرف بمثل هذه الأسئلة. طلّاب الصف الثالث (ب) يصمتون ويسهمون بعد سماعها وكأنّ على رؤوسهم الطير.

تحرّك أحمد سعيد يمنةً ثم يسرة. حين لم يرَ يداً مرفوعة. رفع صوته الجهوري الذي نادراً ما يرتفع:

ـ ها.... ايتها الخُشُبْ المسنّدة؟

سَرَت أوّلاً همهمات مكتومة ثم تصاعدت فتحوّلت إلى لغط، بعد أن أدار المدرّس ظهره إلى السبّورة.

في آخر رحلتين، جلس سعيد سيمون وفيصل أبو الغاز وعدنان طه الشهير .بعمودي. بدأ الثلاثة حواراً حول (الخشب المسنّدة) التي وصف بها المدرّس الطلّاب.

Twitter: @ketab_n

قال عمودي لفيصل:

ـ آني (معاكس) ..

أجاب فيصل وهو يكتم ضحكته بصعوبة بالغة:

ـ وأني (جاوي)..

ـ اذا انت (جاوي) لعد سعد سيمون شنو؟

سأل عمّودي فيصل الذي يكاد أن ينفجر بالضحك المكتوم، وحين لم يجب، استطرد عمودي:

ـ سعد سيمون مو خشب.

ـ لعد شنو... فلّز؟

ـ لا .... غضروف.

سعد سيمون برأسه المدوّر وخدوده المنتفخة، سمع اسمه يتردّد جاهلاً بما يدور، لكنه أحسّ أنّ هناك سجادة ضحك بدأت تحاك وراء ظهره. ومن دون أن يلتفت، دفع برأسه إلى الوراء هامساً ووجهه نحو السبّورة:

ـ هذا الضحك عليّ يا ولد النعل؟

ما أن سمع عمودي وفيصل السؤال حتى انفجرا بالضحك المسموع الذي انتهى إلى طردهما من الدرس ليلحق بهما سعد سيمون من دون أن يطلب منه أحد الخروج.

Twitter: @ketab_n

عدنان طه غاندي، الشهير بعمودي، ذو القامة المائلة إلى القصر والعينان الصغيرتان اللتان تتحرّكان في محجريهما مثل عيني طائر قلق.

عدنان هذا أو عمودي، يرقد بسلام في وجدان الحلّة بعد أن دخله من كلّ باب ممكن.

امتلك نواصي أمور كثيرة، لو امتلك غيره القليل من احداها لملأ الدنيا ضجيجاً وصخباً. مع ذلك لم يخلّف عمودي بحياته القصيرة، غير خطوات قصيرة لها لون النسيم وإطراقات يستدعي بها السحاب والودّ القديم و (عيشة المرطة).. المغنية الكويتية العمياء التي أحب.

امتلك عمودي ثقافة سياسية نادرة، فدأب على القراءة من دون كلل، حتى أنّ أمّه فاجأتنا وهي تقدّم لنا الشاي حين زرناه بعد استئصال كليته:

- يمة أروحلكم فدوة.. ما تقنعون عدنان يجوز من هذا أبو كفشة، چلوته گصوها، وعيونه راح تعمى.

- خالة منو أبو كفشة؟

سألها محمود خليفة:

- هذا خالة.. أكو غيره، من ساعة السودة اللي شفناه.

أشارت إلى صورة في زاوية الغرفة لكارل ماركس.

Twitter: @ketab_n

حين منعت الحكومة اللحوم بسبب واقعة الحنطة المسمومة الشهيرة (أكل الفلاحون بذور الحنطة الحاوية على الزئبق، وأطعموا مواشيهم فأصيب بالعمى من أكلها أو أكل من لحوم المواشي التي علفت بها). دخلت المعلّبات بيوت الحلّة ومنها السردين.

ذات يوم فتح عدنان العلبة التي حملها معه. تربّع على الأرض ونادى أمّه:

- يمه.. جيبي قرصتين خبز وتعالي أكلي ويّايّة سمچ.

ما أن أكمل جملته حتى خرجت أمه من المطبخ وهي تولول:

- هاي تاليتها عدنان... تريد توكلني لحم خنزير؟!

ثقافته السياسية العالية، انتهت به إلى التروتسكية التي حاول ايصالها إلى أبعد ما يمكن.

امتلك عمودي أصابع دقيقة وقصيرة. يمسك بأي قلم ويبدأ بتخطيط وجوه وأشخاص بعينهم ليضعهم بأوضاع يريدها لهم. المدرّس ثقيل الدم يصبح بائعاً للدهين والرفيق البعثي الحزبي في الهيتاويين، يتحوّل إلى (مدلگچي) منهمك بدعك زبون مسترخ، والزبون غالباً ما يكون سعد سيمون، أمّا المحافظ فهو صاحب التحوّلات الأكثر، وحسب الأحداث التي يصنعها في الحلّة كلّ يوم.

Twitter: @ketab_n

فهو (عربنچي) حين يمنع الربلات من السير في الحلّة. وبيّاع لبلبي حين يضايق الباعة الفقراء. وهو (فولاذ) اذا ما عرضت السينما الفيلم الهندي الذي يحمل نفس الاسم ويحكي عن مصارع أسطوري. وهو أيضاً (أبو جاسم لر)، البطل الإيراني صاحب البدلة المخطّطة والقبعة الغريبة، مطلقاً صوته الجهير وهو يحذّر البطلة الحسناء بلهجة عراقية خالصة:

- ديري بالچ... لا تتمزلگين.

غير هذا، امتلك عمودي مخيّلة وسرعة بديهة نادرة يحوّل فيها كلّ ما تطاله يداه إلى تعليق ساخر حاد كالسوط، يتناقله رواته الذين يجمعون ما يقول ويدسّونه في الجهة اليسرى من الصدر، حيث القلب. كما اللؤلؤة، يستلّونه حين الحاجة، ليطلقوه في الفضاء، وبعد أن يفعل فعله ويشيع بين السامعين ما يشيع من كركرات تخرج من قاع القلب، يعيدون اللؤلؤة إلى حيث كانت.. في جهة الصدر اليسرى.. حيث القلب.

لأنّه عاش بكِليةٍ واحدة، أعفي عمودي من الخدمة العسكرية. فتعلّم سياقة المعدّات الثقيلة واشتغل سائقاً على (كرين) في شركة سكابانيوس اليونانية على الأغلب.

هذه الوظيفة وفّرت له أجراً أعلى من أجور جماعته التي حوّلته إلى (بنك طوارئ). ولأنّ أكثر أفراد هذه المجموعة يشتغلون بأجور لاتكاد تسد حاجة يومهم، تولى عمودي سد

Twitter: @ketab_n

الثغرات اليومية فيما يخص السجائر والعرق و(الچايات) في مقهى حجي عبد.

عمودي لم يكن يتأخّر أيضاً عن تلبية متطلبات الطوارئ من مرض مفاجئ أو سقف بحاجة إلى تدخّل سريع لسدّ ثغرة فتحتها مطرة ثقيلة أو المساهمة بقنفة أو كنتور لتكملة جهاز عرس لم يكتمل لضيق ذات يد العريّس.

هذه الأدوار وغيرها، أدّاها عمودي، من دون أن أسمعه يوماً يتذمّر منها لأي سبب، إلّا إذا أفلس هو وانضم للمجموعة.

لم أنس يوماً أن أسأل عنه طوال خمسة وعشرين عاماً غبت فيها عنه. لكني بقيت على تواصل معه حتى وإن حدث هذا التواصل في كلّ سنة أو سنتين مرّة، فقد كان صديقاً لا يمكن لك إلّا أن تحبّه من أبعد نقطة في أعماقك.

اعتدنا أن نلتقي في مقهى كراج بغداد القريب من الجسر الجديد. كنت غالباً ما أصل قبله فأقرأ ما أحمله معي. متطلّعاً إلى الرصيف المحاذي للجسر. الجهة التي اعتاد أن يأتي منها مائلاً بقامته القصيرة ومشيته التي يزيدها بنطاله الواسع أو دشداشته غرابة.

ذات شتاء قارس، وكان الوقت قد اقترب من الظهيرة، عبر عتبة المقهى وعلى وجهه الصغير ابتسامة عريضة غارت بسببها عيناه الصغيرتان، جلس، ومن دون أن يسلم:

Twitter: @ketab_n

ـ شفت فرهود ابو النفط؟

ـ أي.. فات قبل شوية؟

ـ اني شفته واقف يم مكتبة الرافدين..

لم يستطع أن يكمل وافلت بالضحك:

ـ واقف يدخن وحاط ايده على طيز المطي.

على اساس مرتچي على الچاملغ....

لم أرَ أباه، فقد توفّي قبل أن أعرف عمودي. حين كنا نسخر من طريقة مسكه للجريدة، يقول لنا محسن حامد إنّه يشبه أباه في هذا الأمر تماماً، فقد كان يجلس على فتحة المجاري الدائرية، مدلياً ساقيه النحيلتين في الفراغ، (كان يعمل في فتح المجاري التي تسدّها المخلفات التي تحملها مياه الأمطار) ليقرأ الجريدة من دون أن يترك حرفاً. ولضآلة جسمه وصغر رأسه وبنيانه الضعيف، صار لا يعرف إلّا بـ (طه غاندي).

حين سبح أوّل رجل في الفضاء (كان أميركياً) ثم عاد إلى المركبة. سكت عمودي على غير العادة. لكنه قطع الحديث الدائر حول ما كنا نصفه بالأعجوبة، قائلاً:

ـ رائد الفضاء من رجع دق الباب، صاحبه اللي عافه بالمركبة صاح من جوّة:

Twitter: @ketab_n

- منوووووووووو؟

أيّام المتوسطة المركزية (بداية السبعينات) تلبستنا موجة من الصعلكة، مع تطرّف يساري مقوّماته تعلّم التدخين وبهذلة الملابس واستبدال الأحذية بنعل الاسفنج.

عمودي كان مدخناً قديماً، ينظر إلينا بتعالي المجرّب إلى مستجدّي الصنعة. حين كان أحدنا يطلب منه (نفساً) من سيجارته التي أوشكت على الانتهاء، يجيب مشيراً إلى العقب:

- روح عيني روح... اصلا النيكوتين كله مگنبص هنا.

علبة الكبريت (أبو النجمة)، اعتاد أن يكتب على احدى جهتيها (اسحب) وعلى الجهة الأخرى (ادفع).

ذات يوم سألته:

- ما بقة واحد ما لعب طوبة... الا انت؟

- منو گلك.. لعبت، وسويت فريق.

- شوكت؟

- گبل سنتين.

- وين صار الفريق؟

- مباراة وحدة وتطشرنه وراح كل واحد بصفحة؟

Twitter: @ketab_n

- ....

- سويناه ويه جماعة من مدينة الثورة، طبعا فانيلات ما عدنه.. لعبنا بفانيلاتنا البيض، بس المشكلة بالشورتات..

- ....

- بذيچ الايام صادف عيد الجيش. بگنة اللافتات مال الاحتفال وفصلناها شورتات.

- ....

- نزل الفريق وعلى طيز الكابتن مكتوب (يحيى) وعلى طيز الكولجي مكتوب (الجيش).

- ....

بعد ربع ساعة، طبگت سيارة انضباطية مقبطة لعيونها. الحكم جر صافرة النهاية على نفس واحد، واشتغلت المطاردة.. قلب الهجوم يركض ووراه ٣ انضباطية. جان مكتوب على طيزه..... «سور للوطن».

مباريات عمودي لم تقتصر على الكرة، بل وصلت إلى الجانب المعاكس لها. فقد خاض منافسات في الفلسفة والسياسة ساحاتها مقاهي سليم فليبس وأبو سراج والعربنجية ومقاهي أخرى، يتمّ الاتفاق عليها مع الفرق المرسلة لمناقشته، والتي غالباً ما تكون من الشيوعيين الذين يزعجهم (انحراف عمودي، و(طفوليته اليسارية).

Twitter: @ketab_n

حضرت له (مباراة) موضوعها غرامشي وأخرى عن (الصوت والسلعة في رأس المال) و (نفي تروتسكي) وغيرها من المواضيع التي تحتاج إلى تخصّص مركّز لم يدل مظهره على أنه يمتلكه... لكنّه كان كذلك.

اعتاد عمودي أن يجلس لوحده وأمامه اثنان أو ثلاثة من فريق المناقشين. الفريق جاء لأداء مهمة حزبية وليس لنقاش عابر ينتهي فيذهب كل إلى حال سبيله. وهي أيضاً (أي المناقشة) لها جمهور من كلا الطرفين المتناقشين. هذا الجمهور غالباً ما يتولّى نقل المناقشة كخبر أو رواية. وطبعاً كل طرف يرويها على أنّه الذي أسكت الطرف الآخر وأعاده يجرّ أذيال الخيبة من حيث جاء.

أحد المقاولين الصغار ممن وجد نفسه فجأة من أصحاب رؤوس الأموال بعد مقاولة بناء مدرّسة في قرية بستة صفوف وغرفتي مدير ومدرّسين. قصد عمودي معتقداً أنّ بإمكانه أن يفعل كلّ ما يخطر في البال. توجّه إليه في المقهى، وعلى غير العادة سلم عليه بحرارة وجلس إلى جانبه. بعد أن انتهى من استكان الشاي، مال على عمودي برأسه هامساً:

ـ حبيّب عدنان.. محتاجك بخدمة.

ـ آني اخدمك ابو عامر.. شنو تخبلت؟

ـ محتاجلي مهندس زراعي، اريد اسوي مزرعة.

Twitter: @ketab_n

- مزرعتيش؟

- مزرعة.. مزرعة.. حيوانات يعني.

- شنو، زرافات حياية.. حدّد عيني أبو عامر؟

- متجوز من سوالفك.. حيوانات يعني دجاج وطليان..

- يعني تريدني اجيبلك مهندس طليان؟

- لا مهندس زراعي...

- يمعوّد لا تحتاج مهندس ولا هم يحزنون. باچر مثل هالوكت اسويلك مخطط مزرعة من الباب للباب. بس جيب اثنين عمال وانطيهم المخطط. أسبوع وارجعلهم تلكة البيض طالع من السياج.

لأنّ رأسماله (على قده)، ضرب الطمع في رأس أبو عامر فتحمس لاقتراح عمودي. خصوصا وأن ما يعرفه عنه أنه يفعل كل شئ , فلماذا لا يعرف في الزراعة.

- الف رحمة على ذاك الاب حبيبي عدنان، باچر مثل هيچ وكت تلگاني على هالقنفة.

نهض منصرفاً، حين وصل الباب الخارجي، التفت صارخاً:

- چاياتكم واصلة.

Twitter: @ketab_n

على الموعد. وصل أبو عامر في اليوم التالي بكرشه المتدلّي ونظاراته السميكة. ضمّت حلقة عمودي المعتاد، في ذلك اليوم، محمود خليفة وسعد سيمون وخطّاب جهاد وحسن ابو القوة.

ارتسمت على وجه أبو عامر ابتسامة عريضة وهو يرى عمودي رافعاً أنبوباً ملفوفاً من الورق، لم يشكّ أنّه الخريطة التي ستضعه بين تجّار الدواجن والمواشي ليثبت لزوجته الخائفة على الفلوس أنّ (المال يجيب مال)، وأنّ التجارة تسري في دمه.

- تسلم حبيبي عدنان. ما ادري شلون اتشكرك. انشاءالله اول كارتون بيض يطلع من المزرعة بوجهه على بيتكم.. خليني اشوف بالله عليك.

- ليش مستعجل ابو عامر.. اشرب چايك، وبعدين.

من أجل السرعة، برّد أبو عامر الشاي بصبّه في صحنه الصغير (النعلبكي).

خلال دقيقتين، حمل (الخارطة) بعد أن نصحه عمودي بعدم فتحها في المقهى لأنّ (الصنعة أسرار).

- في أمان الله عيوني.. چاياتكم واصلة.

ما أن خرج أبو عامر من المقهى حتى انفجر الجميع

Twitter: @ketab_n

في موجة من الضحك. فقد عرض عليهم عمودي محتويات الخارطة قبل وصول صاحبها، ولم تكن إلّا تصوّره الخاص (لما يجب) أن تكون عليه المزرعة فرسمها على ورقة (معشّر).

المخطّط توسطه عنوان،

مخطّط مزرعة أبو عامر

أقسام المزرعة الحيوانية:

قسم الماعز: يديره علي صخيلة (رئيس عرفاء شرطة)

قسم الحمير: يديره حمزة المطي (بياع كعك)

قسم المواشي: يديره حاتم الكبش (قصاب وبطل كمال اجسام)

قسم الدواجن: يديره سالم الدويچي (محامي)

قسم الأرانب: يديره علي السريع (شقيق حسن ابو القوة)

الأقسام النباتية:

قسم الأعناب: رئيس القسم موسى العنيبي (يعمل في مديرية تربية الحلّة)

Twitter: @ketab_n

ويتفرّع إلى:

شعبة ديس العنز

شعبة بيض الحمام

قسم الخيار: رئيس القسم حليم أبو الطرشي (رافع أثقال ولديه محل طرشي أوّل سوق القيمر)

شعبة التعروزي

شعبة خيار المي

وهكذا تستمرّ الأقسام مع تسمية رؤسائها (وهم شخصيات حقيقية تعرفها الحلّة) حتى تصل الخارطة إلى اللوحات الإرشادية للمزرعة:

أختي النعجة: سارعي لتسجيل ولدك في مؤسسة رعاية القوزي.

أخي الطلي: ضع قرونك في غرفة الأسلحة قبل الدخول.

أخي الخروف: بعررتك في الاماكن المخصصة دليل وعيك.

أخي الأرنب: حثّ زوجتك على مراجعة مؤسسة تنظيم الأسرة.

أختي السمكة: اختلاطك بالجّري إزعاج للاخوة الشيعة

Twitter: @ketab_n

مشاريع عمودي لم تقف عند مخطّطات مزرعة أبو عامر فقد حرّر جريدة (صوت السفلة) التي تصدر بنسخة واحدة يكتبها ويرسمها بنفسه.

معظم قرّاء الجريدة يحتفظون بنسخة لأنفسهم بنقلها يدوياً، حيث لم يكن التصوير مسموحاً لغير الوثائق الرسمية، وإلّا فمصير طالب الصورة وصاحب ماكنة التصوير لن يعرفه أحد.

(صوت السفلة) صدرت باسم رئيس التحرير وصاحب الامتياز عدنان طه المعروف بعمودي (هكذا كتب). أمّا المحتويات والأبواب الثابتة فهي (حسب عددها الثاني):

فرخ اليوم:

ذو لياقة بدنية عالية، مواعيده مظبوطة، لا يأخذ وقتاً في الاقناع، يلتزم بالأجر الذي حدّدته نقابة المهن الجنسية.

مصطلحات:

دلة قلي: كلمة يونانية أصلها ما قلّ ودل.

في ذكرى غازي الشعّار (ضارب طبلة يرافق الراقصات الغجريات في الحلّة ثم تحوّل إلى راقص):

ولد غازي من أبوين مجهولين وترعرع في أحضان القحاب حتى ضاق به الوضع كمساعد كاولي يقدم عروضه

Twitter: @ketab_n

بين أحضان البساتين فأقدم على التحوّل إلى الوضع المتحرّك مظهراً مواهبه في الرقص الشرقي.

نزح إلى مدينة الحلّة وقال خاطباً في حشد من أبناء الكطّانة:

- جئتكم راقصا لا فاتحا.......

فتلاقفه أهل الحلّة بالعفاط والبعابيص.

من مراسلنا في بستان الحلو جاءنا الخبر التالي:

وصل نزار أبو الديچ إلى الحلّة قادماً من بغداد وهو يحمل شهادة في الحقوق من جامعتها. ما إن لامست قدمه اليمنى أرض كراج (حلّة - بغداد) حتى تلقاه الشاعر محمد الرشادي وهو ينشد (داليّة) أعدّها خصيصاً للمناسبة مطلعها:

قد عاد من درس القانون قد عادا

لأرض بـابل سمسيـراً وقــواداً

هذا المطلع دفع نزار أبو الديج إلى القفز على (بنيد) أحد التكسيات (نظرا لقصر قامته) صارخاً:

- أهل المروّة.. سكتوه !!

وهنا ردّ الرشادي صارخاً:

- اسبوعين.. كل يوم نص عرق ونص كباب.

Twitter: @ketab_n

- موافق.. وستر خواتي موافق.

هنا تدخّل أهل الخير وأكّدوا الاتفاق بين الطرفين ليسارع نزار ابو الديج بالشهادة إلى بيت أهله. أمّا الرشادي فقد طوى القصيدة ودسّها في جيب سترته التي لا تفارقه مهدّداً بسحبها السريع وإلقائها كاملة على رأس الجسر العتيق، هذا في حال إحساسه بأنّ هناك تلاعباً أو تأخيراً في تنفيذ اتفاقية العرق والكباب.

اعتاد عمودي أن يقضي كل ليلة في أي نادٍ يسمح له والمجموعة بالدخول لأنّه كان يشرب يومياً.

أبوه الميّال إلى التديّن، اعتاد أن يتنظره سادّاً عليه طريق الدخول إلى البيت:

- ولك عدنان خزيتنه.. المنطقة كلها صارت تعرف قصتك وية العرق.

....

في اليوم التالي يتكرّر نفس المشهد، حتى أتى اليوم الذي نفذ فيه صبر عمودي، فقال لأبيه المصرّ على سدّ طريق الدخول عليه:

- وخّر بوية وانعل الشيطان.

- ما أوخّر ومنا راح انعل الشيطان.. اريد اشوف شراح تسوّي؟

Twitter: @ketab_n

- وخَر لا اقولك (أفٍ)؟

لم تتسلّل الروح الساخرة إلى عمودي من عروقه الحلّاوية فقط بل ومن الهيتاويين. المحلّة القابعة في الصوب الكبير المنطوية على مئات الشخصيات، التي وإن اختلفت، لكنها تجتمع في قدرتها على أن تترك أثراً في من تمرّ عليه.

هذا الأثر ليس خفيفاً على القلب دائماً، فالبعض ثقيل الدم والروح، لكن البعض الآخر من الهيتاويين تكفّل بأمر ثقلائها فحوّلوهم إلى حكايات وحوادث يتوزّع دمهم بين القبائل فتخفّ وطأته حين تأتي سيرة السخرية والساخرين.

حامد الهيتي وهو ابن عم عمودي، شاعر وصحفي ورسّام كان يمكن أن تكون له حياة أخرى لو لم يكن ولد وعاش في العراق. العراق الذي ضيّع قدراته المؤثّرة بعد أن حوّلها إلى قدرات في الهروب من الجيش الشعبي ومن الحروب المتّصلة ومن اللهاث الدائم وراء لقمة عيش عصّية.

قبل الظهر بقليل، دخل حامد مقهى أبو سراج متأبطاً كتاباً او كتابين. توجّه حيث نجلس في آخر المقهى شبه الفارغ في مثل هذا الوقت من أيّام الصيف اللاهبة. سلّم وجلس. كانت آثار النوم ما زالت واضحة على وجهه المنتفخ أصلاً.

- مبين هسة گاعد، أكو واحد ينام ليهسّة؟

سأله أحدنا، أجاب بصوت يخرجه عادة من أسفل رقبته الضائعة بين رأسه وكتفيه:

Twitter: @ketab_n

-يا أخي البارحة شفت شوفة بالليل ما نمت من وراها للصبح.

-...............

-گعدت الساعة ثلاثة... عطشان. نزلت من السطح للثلاجة. ما أدري ليش گلت خلي افتح التلفزيون.. وفتحته.

-.........

-لگيت صدام ذاب راسه ليوره ويشوخر... خخخخخخ..

حامد والإفلاس لا يفترقان. ولأنّه اعتاد كمعلّم أن يشرب كلّ يوم في نادي المعلمين، اعتاد ايضا حين يحين دفع الحساب أن يرسل ورقة إلى خاله محمد الهيتي الموجود في نفس المكان. يحمل النادل الورقة إلى الخال الذي يفتحها فيجد أنّ حامد كتب عليها:

« خالي العزيز.... اريدك جسرا أعبر عليه.. »

يفهم الخال المقصود فيدفع حساب حامد. ذات يوم تشاجرت أم حامد مع زوجة أخيها (الخال) فزعلت الأخيرة وغادرت البيت إلى أهلها.

في ذلك اليوم، تلقّى الخال الورقة المعتادة وهي تحمل عبارة (.. أريدك جسراً..)، فأعادها إلى ابن أخته المنتظر وقد كتب عليها:

اليوم الجسر مسدود....... لو تنام بالنادي، لو تشوفلك

Twitter: @ketab_n

چوب. (الإطار المطاطي لعجلة السيارة والذي يستخدم للسباحة).

كنت أجلس ذات ظهيرة في مقهى أبو سراج . جاء حامد الهيتي ، جلس وهو يلهث، التفت نحوي وهو يمسح عرقه :

- تدري منو مات ؟

- ....

- حسن حجي علي أبو السينما.

- ....

- الفاتحة بحسينية ابن ادريس، جايبين فريد شوقي يصب كهوة.

لم يكن عمودي يترك تفصيلاً مهما كان صغيراً من دون أن يسجّله في أعماق وعيه، ليتركه هناك، من دون أن ينساه. كان يصنع من هذه التفاصيل كائناته الخاصة السابحة بين سماء مرفوعة بالبهجة وأرض تغوص في القسوة والبؤس.

أينما كان يوجد عمودي، كانت تنزّل معه سماؤه الضاجة بالبهجة والأمل. ولأنّه خليط من عوالم لا حدود لها، لم يكن يحتاج إلى جهد ليقنع الجميع أنّ هذه السماء التي تجلس بجانبه على أريكة الخشب والحصير، هي الأرض، أمّا هذه التي تحمل القتلة والمهرجين، وتحمل أيضاً ضحاياهم، فما هي إلّا باطل وقبض ريح.

Twitter: @ketab_n

المثقّفون في الحلّة، لهم نصيب لا يتغيّر في حياتها. لهم أرائك ومقاعد تبقى فارغة في مقاهيها وإن غابوا. ولهم موجة من كلّ ثلاث موجات في نهرها و(خُمْسٌ) في حليبها ورطبها، في خبزها وإدامها. لهم نصف جناح في كلّ طير من طيورها حين يطير. و(حبة عافية) في كلّ رمّانة من رمّانها وغصن في كل شجرة صفصاف من أغصانها المتدلّية في شطّها، لائذة بذؤاباتها في مائه البارد من لفح الصيف وشمسه.

لهم أيضاً سجونها وصفعات شرطتها السرية. لهم الغياب في سراديب عاد بعضهم منها بعد سنين هي مهجة العمر، ولم يعد البعض الاخر منها حتى اليوم. لهم أيضاً جوع صار ملاذاً لمعرفتهم المضيئة. ولهم حرقة الفقدان والعين البصيرة واليد القصيرة وانتظار المرتجى الذي تنقضي الحياة ولا يأتي. لهم قمصانهم الحائلة التي ترفرف مثل أسراب طيور مهاجرة اعتدنا أن نراقبها وهي تعبر سماء الحلّة، شاقّة الخريف، عابرة سماء كابية إلى حيث لا ندري.

عنهم قال موفق محمد:

Twitter: @ketab_n

«أولئك الذين تنظر لهم الحكومات شزراً

وتودّ لو قطفت رؤوسهم

أولئك إخواني.. فجئني بمثلهم

المفلسين الحالمين بوطن يرفرف

في جناح اليمام

ونساء من عسل ونور

وغزل في عتمة

وكوخ على ضفة النهر

وقنينة خمر لا تفرغ أبداً

وندامى من كل بقاع الارض.»

لكن لهم أيضاً الأقنعة، وبدلات (الزيتوني) الحزبية، حيث يغمد القلم في جيب الذراع الأيسر ويغمد المسدّس في الجهة اليمنى من الخصر.

لهم التقارير المؤدّية بـ(أخوّة الكلمة) إلى حيث لا يعلم إلّا الراسخون في علم القمع والمقابر الفردية والجماعية.

لهم ادعّاء الثقافة وادعّاء الشعر، (هل يمكن أن يدّعى الشعر؟)، والوقوف صفوفاً في جوقات مديح الدم واحتفاءات الموت.

Twitter: @ketab_n

هؤلاء (وغيرهم) مثقّفوا الحلّة الذين يشبهونها حدّ التماثل. يشبهون لوعتها وانتظارها، خوفها وجوعها، توقها للحياة، واستلابها الحياة. ويشبهون أيضاً سخريتها ولذاعة لسانها.

عنهم يتناقل الحلاّويون جملاً وعبارات أطلقها لسان انقسم إلى نصفين. نصف للكلمة المثقّفة والمتثاقفة ونصف آخر للغط الشارع والمقهى، للمحكيّ بلسان سواد الحلّة الأعظم.

عبد الجبار عباس، أحد أشهر النقّاد في العراق، من بين الذين تناقلت الحلّة عنهم مآزق ادخلتهم فيها فصاحة استخدموها في غير مكانها.

لعبّاس درّاجة هوائية خضراء كادت أن تصبح جزءاً منه، فلا تراه في الحلّة، إلّا راكباً أو مقتاداً أو موقفاً (العراق)، وهو الاسم الذي أطلقه عليها.

ذات يوم، سرقت الدراجة فوقع الأمر على عبد الجبار عباس وقع الصاعقة. وحين جلس في مقهى أبو سراج يندب (العراق) سأله محمود العطية:

- بلّغت؟

- المن ابلّغ؟

- الشرطة، المن تبلّغ مديرية انحصار التبغ؟

Twitter: @ketab_n

هرول عباس إلى مركز الشرطة القريب إلى المقهى، دخل مباشرة على الضابط رافعاً يديه القصيرتين مثل بنيته:

- دخيلك.. الحگلي.. دراجتي..

- بايسكلك؟

- اي.. سرقت.

استدار الضابط إلى نائب العريف الواقف على الباب:

- اخذ الاستاذ خلي يسجل بلاغ.

اصطحب نائب العريف عبد الجبار عبّاس إلى الغرفة المجاورة وسلمه إلى رئيس عرفاء يجلس خلف منضدة خشبية امتلأت بالخطوط المحفورة والأخاديد. فتح دفتراً أمامه، وضع ورقة كاربون بين ورقتين فيه. استدار نحو عباس:

- احچي عمي.. شنو البلاغ؟

تململ عبد الجبار عباس. فلم يستسغ كلمة (عمي):

- سرقة دراجة هوائية.

كتب رئيس العرفاء ما قاله عبد الجبار عباس، وحين انتهى من الجملة رفع رأسه:

- الأوصاف؟

Twitter: @ketab_n

هنا، استدار عباس نحو الشباك، ونظر نحو السماء محاولاً استحضار أوصاف (العراق):

- خضراء اللون، أو قل خضراء بحبيبات رمادية، على مقودها من الجهة اليسرى جرس منبّه ذو رنين ناعم يبعث على النعاس.

رفع رئيس العرفاء رأسه من الدفتر:

- عمي.. أنت متأكد اللي ضايعلك بايسكل؟

أقام عبد الجبار عباس فترة طويلة في بغداد، وفي السنوات التي سبقت وفاته عاد إلى بيت أهله في الحلة.

حنينه إلى بغداد لم ينقطع. فصارت له زيارات أسبوعية تبدأ بالتحرّك من الحلّة ضحى لتنتهي بالعودة ليلاً.

هذه الزيارات التي كان عبّاس يسميها (غزوات بغداد)، تتوزّع ما بين جولة على مكتبات الباب الشرقي ودخول السينما ثم الانتهاء في بار اتحاد الأدباء، حيث الصحبة القديمة التي استبدلها بصحبة حلّاوية من أدباء وغير أدباء لا شأن لهم بما يدور في بغداد التي يصفونها بأنّها (الاشدّ صخباً والأكثر كذباً).

في مرّات قليلة، يضطر عبد الجبار عباس إلى إدخال تغييرات قسرية على (غزوته) البغدادية ومحطاتها. السبب

Twitter: @ketab_n

هو الاستسلام لرغبة الأكثرية من مرافقي الرحلة الذين قد يضيفون بين حين وآخر رغبة بالذهاب إلى مكان لم يكن في الحسبان، كملعب الشعب مثلاً.

جلس، أو أجلس، على الدكّة المغبّرة في المدرج الكبير ليجد نفسه وسط اكبر حشد رآه في حياته. خمسون ألفاً أو أكثر جاؤوا، لمشاهدة مباراة العراق وألمانيا (الديموقراطية آنذاك).

كان يوماً شتائياً دافئاً على غير العادة. مايعني أنّ بغداد فاتحة ذراعيها إلى أقصى ما يستطيع بانتظاره هو وندامى الخمرة، وها هو محاصر معهم بهدير مجانين الكرة وصيام الفريقين عن التهديف.

احمرّ وجه عبد الجبار عبّاس وانتفخت أوداجه، فلم يكن يتوقّع أنّ الأهداف ستتأخر كل هذا الوقت. ولأنّه كان يعتقد أن هدفاً سينهي المباراة ويذهب بعدها كل إلى حال سبيله. صرخ وهو يمدّ يديه القصيرتين:

- فضّوها يا أخوان.. الملعب ممهد، والگول يقظ وجميل.. شتنتظرون؟

حين ائتلف البعثيون مع الحزب الشيوعي في ما أسموه حينها بالجبهة الوطنية، نشط الشيوعيون في استقطاب شيوعيين قدماء تركوا الحزب (وكان من بينهم عبد الجبار عبّاس) ليعودوا إلى الحزب بعد أن أصبح علنياً ولم يعد مرتبطاً بالسجون والتعذيب.. (هكذا)....

Twitter: @ketab_n

فاتح قاسم محمد حمزة (قاسم دخل سجن البعث منذ نهاية السبعينات ولم يخرج منه حتى اليوم) عبّاس بأمر انضمامه. فاجأه الأمر وأوقعه في حيرة، فهو يرتعش رعباً من البعثيين ولا يأمن لهم فلا (اللبن يروب ولا الگحبة تتوب) على حدّ قوله.

قلّب الأمر يميناً وشمالاً. غطس في عزلة التفكير بالأمر. ثم اتخذ القرار.

كانت اغنية (چذاب) التي يغنيها طالب القره غولي من الاغاني التي يحبها ويردّدها دائماً. عبر هذه الأغنية قرّر أن يبلّغ الشيوعيين ردّه.

تقول الأغنية:

«چذاب روحي تمرمرت من عشرتك

چذاب دولبني الوكت بمبحبتك

مو تدري يهواك الگلب وبعدك يعذب حالي

وتدري اليحب ليله صعب حاير يضل للتالي

وترد أرد، انوب الك لا ما أردّ وانسه المضه

لو صرت بس إنت الدوة لا ما أرد كلشي انگضه

جذاب..»

Twitter: @ketab_n

ليلة الردّ، انزوى عباس ومعه جبر داگي ومحمود العطية وحامد الهيتي في زاوية قصيّة من حديقة نادي المعلمين في باب المشهد. وفي الظلام البعيد عن آذان كتبة التقارير خرج من صمته:

- يا جماعة، قضي الأمر..

التفّ الجميع باهتمام. فهم شركاء في معاناة الأسبوع الذي مضى وهو على غير ما عهدوه، صامتاً، مهموهاً بالجواب الذي فضّله غناءً حين انطلق بمقدمه العود التي عزفها بلسانه ثم دخل في الأغنية:

«خوّاف دمرني الوكت بمحبتك

خوّاف سنوني طقطقت من عشرتك

مو تدري يهواك الگلب ووضعك يعذب حالي

وتدري البعث دومه صعب قاتل يظل للتالي

وتريد أرّد النوب الك لا ما أردّ وانسه المضه

لو صرت بس انت الدوا لا ما أردّ وانسه المضه

خوّاف..»

الاحتياط الوحيد الذي اتخذه عبّاس في أغنيته الموجهة إلى الحزب الشيوعي، تحويل كلمة (البعث) إلى (اللَلَمْ).

Twitter: @ketab_n

لا أحد يدري لماذا لقّب مجيد بالشيخ. فلا شكله يوحي بالمشيخة ولا مضمونه. فهو قصير ممتلئ ذو شارب متدلٍ الطرفين، عيناه غائرتان بين أوداجه الممتلئة، وحين يغمضهما وهو يطلق ضحكته الشهيرة، يختفيان تماماً ولا يبقى منهما غير خطّين كأنهما رسما بالحبر الصيني على كتلة اللحم المدورة.

هذا عن الشكل، أمّا المضمون فهو أبعد بأضعاف، لأنّ الشيخ مجيد ملحد مع سبق الاصرار والترصّد، فهو لم يترك تنظيماً شيوعياً إلّا ودخله من بابه الواسع.

حين كان يقرأ (طريق الشعب) أو أختها الأسبوعية (الفكر الجديد)، يعتقد من يراقبه أنّها، أي الجريدة، قد أدخلت في امتحان البكلوريا. فبعد أن يخرجها الشيخ من جيب معطفه شبه العسكري، يفكّ طويّاتها المتعدّدة ثم يفرشها على الطاولة الخشبية الحائلة في الركن القصي من المقهى. بعدها يذهب في غيبوبة القراءة التي لا يستفيق منها إلّا بعد أن يتأكد من أنّه مرّ على كلّ حرف. من الافتتاحية إلى قصّة الأطفال، مختتماً رحلة الغياب بعمود الصفحة الخيرة (سوالف شمران الياسري) التي يعرف كلّ الجالسون في المقهى أنّه قد وصلها بسبب الكركرات التي يطلقها بين سطر وآخر، ومع كلّ كركرة يسحب ربع أوكسجين المقهى على الأقل، دافعاً بظهره إلى خشب المقعد الطويل بينما ساقيه القصيرتين تتأرجحان في الهواء.

Twitter: @ketab_n

كان الشيخ مجيد من المتلذّذين برطانة المثقّف الممتزجة برصانة الماركسي الذي خصص واحدا من إبطيه لكتب الماركسية اللينينية، وترك الثاني لما تبقّى من الحياة.

ذات ليلة صيف لاهب، التحقت به ومعه عبد الرحمن اطميش إلى نادي المعلمين، حيث اللقاء شبه اليومي لندامى العرق المسيّح. سلّمت ثم سحبت مقعداً قبل أن أجلس، رفع عبد الرحمن علبة روبة مصلحة شؤون الألبان. وبعد أن أخذ منها ملعقة أغمض عينيه متلذّذاً، وبصوت غارق بالمتعة قال وهو يمدّ الكلمات:

- ما هذا الجمال العجيب؟!

هنا، وضع الشيخ مجيد صحن اللبلبي جانباً، وأطلق احتجاجاً أيقظ عبد الرحمن من حلمه الرائب:

- شنو هالركاكة البلاغية، كيف تصف الروبة بالجمال. يا أخي انطيها مذاق لا تنطيها رؤية.

لم يسكت عبد الرحمن للشيخ وأعاد له الصاع البلاغي بصاعين:

- تتذكر هذاك الشتا شگلت على الرارنج؟

- ....

- غمضت عيونك ربع ساعة، ومن فتحتها صحت مثل

Twitter: @ketab_n

المگروص.. (شيف نارنج رهيب)، هاي حساسيتك البلاغية الظاهر تشتغل بس بالصيف؟!

هنا رّد مجيد محتجّاً:

- حچيك هذا، أما ايغالا في التنكيل أو امعانا في السخرية وكلاهما مردود عليك ابو العوف..

عبد الرحمن اطميش من قدامى البعثيين الذين لم يستطيعوا جمع النقيضيين، إنسانيتهم، والوقوف في صفّ السلطة. ترك جمل البعث بما حمل ورمى مجد قدمه البعثى وراءه تاركاً الناصرية، منتقلاً إلى الحلّة موظّفاً صغيراً في رئاسة صحتها.

كان عبد الرحمن يوزّع يومه بين الدوام الذي يقضيه بسلق اللحم على مدفئة المكتب ومقهى أبو سراج ثم شقّته في (الهيتاويين)، حيث ينام وسط زحام ممثلات العالم المعلقات على جدران الشقة شبه الفارغة إلّا من إعلانات فاتنات السينما وسريرين وبضع مقاعد لا تختلف كثيراً عن مقاعد المقاهي.

لأنّه كان يحب طعام البيت ويفتقده، كنت بين فترة وأخرى أوصي أمي أن تخصّه بطبخة يحبّها، لأحملها في قدر أسمته أمي (قدر عبد الرحمن)، عابراً الجسر إلى الصوب الكبير حيث شقته المزدحمة بفاتنات الورق.

ذات يوم حملت له قدرا من الرز الأحمر والدجاج، ولأنّه

Twitter: @ketab_n

يعرف مسبقاً بالطبخة القادمة، دعى الشيخ مجيد لمشاركته الغداء.

في الليل التقيتهما على ذات الطاولة التي شهدت عراكهما البلاغي. ما أن رآني مجيد حتى رفع يديه القصيرتين مباعداً كفيه المفتوحين وهو يرسم القدر في الهواء:

- يا أخي شنو هذا التمن الاحمر.. نثار كما ريش الفاختة الغض.

حين خرجت من العراق، بقيت أسأل عنه الخارجين بعدي. أحدهم قال لي إنّه رآه اثناء حرب إيران، وهو يرتدي الملابس العسكرية الرثّة مثل ثلاثة أرباع العراقيين، يقول إنّه اقترب منه، وبصوت أقرب إلى الهمس قال له:

- من منطلق انساني، راح اشيل خصياني حتى ما أنجب اطفال أرمي بهم حطبا لنار للقادسية الثانية.

حامد الهيتي، الرسام والشاعر والقاص، كان مثقّفاً من نوع مختلف. فهو لم يكن يرطّن بفصحى المثقّفين مثلما كان يفعل عبد الجبار عبّاس والشيخ مجيد وغيرهما. بل كان يختار المقال الخطأ للمقام الخطأ.

من بين اختياراته الخاطئة، ما حصل ذات يوم في الباحة الصغيرة لمقام سلمان الفارسي على الطريق المتاخم للشطّ وسط بساتين جنوب الحلّة الكثيفة.

Twitter: @ketab_n

وقف حامد رافعاً رأسه إلى الرسوم على الجزء العلوي من الجدار. بعد تأمّل استمر لعشر دقائق أو أكثر. قال وهو يكلم نفسه (يفعلها عادة بصوت عالٍ):

- هذا الرسام انطباعي..

حارس المقام الذي كان يراقب هذا الزائر المستغرب، التقط آخر الكلام فاقتحم على المتأمّل عالمه الساكن، رافعاً صوته إلى أعلاه:

- عمي شجاب الطوابع هنا... البريد ورا الجسر بشوية.

كان حامد دائم الإفلاس، وإذا جمع أجرة الباص، فإنّه يتوجّه فوراً إلى بغداد حيث مبنى الاذاعة. وفي المقهى المجاور للمدخل يجلس وسط صراخ الموسيقيين العميان ومؤلّفي الأغاني والمطربين الطامحين إلى دخول الإذاعة وهم يحاولون إسماع اصواتهم لملحنين (ضايجين)، يكتب مقاطع وطنية وفي بعض الأحيان رومانسية ليقدّمها إلى قسم البرامج الذي يدفع له حال استلامه الأوراق، كان سعر المقطع نصف دينار. يعود بعدها حامد وفي جيبه أربعة أو خمسة دنانير تكفيه عرقاً وكباباً لأسبوع على الأقل.

«تحية الصباح» و«عزيزي السائق» و«شكاوي المواطنين»، بعض من البرامج التي كان يخصها حامد الهيتي بمقاطعه النصف دينارية.

Twitter: @ketab_n

ذات يوم، دخل حامد المقهى محتقن الوجه. ومن نقره المتواصل على خشب المقعد، توقّعنا أنّ هناك ما يثير حنقه. سأله جبر داگي فلم يجب. تركه لدقائق ثم عاد إليه بعصبية:

- لو تحچي.. لو تقوم تروح.. ضّوجتنا.

- ....

- ما راح تحچي يعني؟

هنا، أطلق حامد كحته الشهيرة ثم قال:

- تدرون شكد دافعة الجمهورية (يقصد الجريدة) لمحمد الجزائري على ملحق الفرات؟

(كان ملحقاً خاصاً أصدرته الجريدة عن قطع سورية لمياه الفرات عن العراق حسب رواية الحكومة).

- ....

- دافعيله خمسميت دينار..

علّق محمود العطية:

- ملحق شطوله، شعرضه.. هم يالله خمسميت دينار.

- بابا كل عقلك، انطينى خمسين دينار أنشفلك دجلة !

جبر داكي، صديقي وصديق حامد، عزمنا على بامية

Twitter: @ketab_n

وخبز تنور. جلسنا في الحوش مستظلّين بالطارمة من شمس أوّل الصيف.

توالت صحون الباميا ومعها أرغفة الخبز الحار، وبعد نصف ساعة، استسلم الجميع (بما فيهم المضيف) رافعين أيدينا بانتظار الشاي إلّا حامد، فقد استمر بطلب المزيد من أرغفة الخبز الحارة.

جبر المضيف، لم يوقّف الرحلات المكوكية بين تنور أمّه وحامد المتربع أمام صحن الباميا و فحول البصل.

كان جبر يقول لأمّه كلّما طلب المزيد:

- يمه.. خبز للشاعر.

بعد الطلب الخامس، نحّت أم جبر كرم الضيافة بعيداً وسألت ابنها باستغراب:

- يمه هذا غير شاعر.. أكل شجارين خبز.. خايفة ياكلكم.
(الشجار: مقياس نسائي يعني ٧ أرغفة).
هذا عن حامد الشاعر، أمّا الرسّام، فمشكلته عائلية. فقد كان متطرّف الحداثة في كلّ نتاجه، لكن حداثة الرسم كانت الأكثر إشكالاً لأنّه يعلّق لوحاته في البيت.

ذات يوم، وجد أبيه المؤذّن في جامع الهيتاويين، وهو يقف محدقا بأقصى ما تستطيع عيناه الصغيرتان، في لوحة معلّقة أمامه.

Twitter: @ketab_n

كانت اللوحة عبارة عن دائرة سوداء واسعة تتوسّطها دائرة بيضاء صغيرة.

حين أحسّ الأب بوجود حامد إلى جانبه، سأله وهو يعقد يديه خلف ظهره:

- هاي شنو بويه؟

- بويه هذي الثورة.

هنا وضع الأب سبابته على الدائرة البيضاء وسأل:

- وهاي شنو بويه........ نگبك؟

قضى حامد معظم حياته معلّماً. الجزء الأوّل من خدمته التعليمية قضاه في الأرياف المحيطة بالحلّة.

المعلّم في تلك القرى، يعلّم كلّ شيء، من القراءة إلى الرسم مروراً بالحساب والتربية الوطنية. في أحيان كثيرة تعبر المهمة التعليمية سور المدرسة إلى مناطق اخرى في القرية ليجد المعلم نفسه حلّالا للمشاكل مرة وطبيباً مرّة أخرى وخبيراً زراعياً حتّى.

حامد وجد نفسه قارئاً للقرآن في عزاء رجل من القرية اضطر أهله للاستعانة بالمعلّم لقراءة القرآن في المأتم لأن لا أحد غيره يجيد القراءة.

Twitter: @ketab_n

إلى هنا والأمر مقبول، فالقرآن لا يفرّق بين حامد السنّي وأهل القرية الشيعية، لكن ما أن حان وقت الأذان حتّى افترقت الطرق.

اقترب أخو الميت وهمس بأذن (القارئ):

- استاد.. رحم الله والديك.. الوذان..

- يا وذان؟

- وذان الظهر ستاد.. يا وذان..

- ....

- دير بالك استاد لا تنسى (علي ولي الله) لان الجماعة يگلبوها على راس اللي جابونه..

- ما اختلفنا يا أخي.. بس وين احطلك علي.. گبل الله لو وراه؟؟

سيرة حامد، تقود إلى سيرة الهيتاويين. المحلّة التي لكلّ فرد فيها سجلّ من السخرية واللذاعة وطول اللسان.

محمود خليفة، الرياضي المتذمّر من الحياة ومن الناس. لا يوحي إلّا بنفاذ الصبر. وحين يتكلّم، تحسّ لفرط ضجره أنّه ينطق آخر كلماته في الحياة.

تذمّره من كل شيء وصل إلى تثاقله من (سرّ الليل)

Twitter: @ketab_n

وهو الكلمة التي توزّع بين أفراد الحراسة العسكرية من أجل المرور عبر بوابة المعسكر المدجّجة بالأسلحة الرشاشة حتى أذنيها.

محمود خليفة لم يكن يحفظ سرّ الليل بالرغم من أنّه لم يكن إلّا كلمة واحدة قد يؤدّي عدم تذكّرها إلى تلقّيه رشقة من الرصاص يخرّ بعدها صريعاً غير ماسوف على تذمّره.

حين يدخل مقهى حجي عبد، يجول بنظره باحثاً عن وجوه يتحمّل مجالستها وبدورها تتحمّل جملاً يلقيها من دون سابق إنذار.

ذات ضحى، دخل المقهى بالدشداشة البنية والسترة التي يضعها على كتفيه من دون أن يرتديها. بلا سلام، جلس إلى جانبي، بعد أن طلب من حجّي عبد الشاي التفت نحوي:

- شغلتين ما أسويهن. لا أعوف العرگ ولا أحب صلاح حامد.

كان صلاح من بين قلائل في الهيتاويين الذين يجيدون الإنكليزية. كان أيضاً يعمل في الآثار، مما جعله يتكلّم بلهجة العارف ببواطن الأمور مع غير العارفين فيها، وهذا ما أزعج محمود خليفة الذي يعتبر الإنكليزية سدّاً وقف بوجه حياته وحوّله إلى طالب مزمن لم يعبر بكلوريا المتوسطة.

لا أتذكر لماذا اتفقنا على اللقاء في بيته، وكنّا مجموعة

Twitter: @ketab_n

من اصدقائه. طرقنا الباب المفتوح فسمعنا صوته قادماً من غرفة الضيوف الملاصقة للباب الخارجي:

- فوت.. اتفضل....

الداخل عادة، يكحّ قبل أن يرفع الستارة التي توضع عادة على الباب الخارجي. هذه (الكحة) لتنبيه من في البيت من نساء بأن غريباً سيدخل من أجل أن يتوارين أو يضعن العباءة على الرأس.

كان محمود يسكن مع أخته غزالة، آخر من تبقّى له بعد موت والديه.

كانت غزالة حولاء، ذات وجه طويل وأنف أطول. وزنها كلّه، بالرغم من طول قامتها، لا يتجاوز الخمسين كيلوغراماً.

كعادته، نفذ صبر محمود من الاستئذان المتكرّر واضطراره لرفع صوته بـ (فوت) و (تفضل).. ومن السعال الاصطناعي للمستأذنين. انتفض وخرج من الباب وهو يسبّ ويلعن ليعود بعد دقائق وهو يحمل أخته المتكوّرة على صدره وكأنّها مجموعة أغراض صرّت داخل العباءة السوداء. بغضب وانفلات أعصاب، صرخ محمود رامياً أخته التي وجدت نفسها متكوّرة على أرض. الغرفة بينما تحدّق فيها عيون الجالسين.

صرخ محمود:

Twitter: @ketab_n

- دمرتوني.. هذا يكح.. وذاك يصيح سوو درب. هيّ غزالة.. لو فاتن حمامة جان شسويتو ربين الكلب.

محسن حامد، كان شريك محمود خليفة في التذمّر (وهو شقيق صلاح حامد الذي لا يحبه محمود)، لكن تذمّر محسن كان يحوله إلى اغتياب وكفر.

حين مرّ فرّاش المحكمة عبد الاله الشهير بـ (ألّوهي)، وهو شخص طويل اللسان، وجهه مليئ بالرقع، تململ محسن متأوّهاً قبل أن يلتفت إلى خطاب جهاد وعمودي:

- ما أدري الله شلون يرضى.. ألّوهي يحچي والدولفين ميحچي.

كان محسن يبذل جهداً في ابتداع الكفر. وكلّما خرج عن السياق السائد، كلّما نفّس عن تذمّره أكثر.

حين رأى زهر خصمه في الطاولة يشير إلى (دوشيش) بدأت أوداجه بالارتجاف، وبصوت أعلى من الهمس بقليل:

- اشتعل منعم.

سأله خطاب جهاد الجالس بجانبه:

- منو هذا منعم؟

- ضرير چان يعطف عليه الرسول.

Twitter: @ketab_n

من أين أتيت أيّتها الجدّة (جبل علي)؟

بعد أن تحوّلت إلى خطوط واهية، تتزايد صعوبة لملمتها يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام، بعد أن صارت صورة معلّقة على جدار ذاكرة متداعية، متهالكة، قامت الحلّة فجأة من رمادها.

نفضت تراباً أهالته عليها سنوات من الغياب وما خلفّه بنوها القتلى من أحلام تيبّست، وأغانٍ عن غيابهم لم يسمعوها، ونساء عشقوهنّ ثم كرهوهنّ وهنّ لم يعرفن بعشقهم ولا بكراهيتهم حتى اليوم.

فجأة، سقط الجدار الذي وقف متجهّماً، أسود بينها وبين بنيها المتناثرين في جهات الأرض الأربع وسراديب الرعب تحت أرض العراق، السراديب التي لا أبواب لها ولا منافذ، السراديب التي تحوّلت إلى قبور لنداءات الاستغاثة التي تلاشت في ظلام الفراغ، ولدقّات القلوب التي علت ونزلت ثم أبطأت وأبطأت حتى سكتت إلى الأبد.

فجأة هوى الجدار وبدت الحلّة سابحة في أفق مفتوح.

إنّه الطريق المستعاد من غياهب الجبّ التي كادت أن

Twitter: @ketab_n

تصبح غياهب الأبد الذي دخلته الحلّة، فقال يأسُنا: إنّها لن تخرج منه حتّى آخر العمر.

في أيّام ساح فيها الخيال على الواقع الذي لم يزل طرياً وعصياً على التصديق، دبّت الروح في الصورة الفاتنة، فبدأت بلَم خيوطها، خيطاً خيطاً، وبمهارة حائك أعمى أكمل بيده وقلبه مشهد المدينة، فأعاده حارّاً مثل رغيف، واضحاً مثل يقين وأقرب من القميص الحائل الذي أبلاه اليأس إلى الجلد الذي وطئته السنون وأبلته.

لم تعد الحلّة ذكرى.. أصبحت حضوراً كأنّك لم تفارقه لساعة حتى، حضوراً ما استلب منك يوماً ولا استلبت منه.

إذن، ها هي الطريق، وهذا أوان الإياب الذي كاد أن يصبح بلا أوان.

....

حين دِسْتُ على خشب سلّم الباخرة، أحسست بطين الشطّ البعيد يتسرّب من بين أصابعي صلصالاً يتكوّر مع كلّ خطوة، صعوداً إلى (جبل علي) الباخرة التي ستحمل هذا الطين المتدافع اجساداً، في رحلته إلى دولاب الخزّاف البابلي.. إلى الحلّة.

منذ أكثر من ربع قرن لم أر عراقيين أحراراً بهذا العدد في مكان واحد.

Twitter: @ketab_n

بغداديون بشوارب (طيران)، بصراويون بسمرة النُّحاس ودشاديش الأغراب الرخيصة، (بهرة) يتحرّكون بمجاميع مكلّلة بالعرقچينات البيضاء الموشّاة بخيوط الفضة، حلّاويون لا تعرفهم موصليون منكفئون على صمتهم، عمارتليون ذابوا بين الأهوازيين، أبناء العم الذين قُسّم الموت على كليهما بقسطاس القتلة، كرد ملتفون ببهجة لم يألفوها، بهجة تذكّرعراقية نسوها وتَعجُبّ من يومٍ يدخلون فيه العراق من بابه البعيد عن ثلجهم وجبلهم وبلا خوف.

أربعة صينيين فخرت شمس النهار القاسي وجوههم، يحملون أربع صرر كلّ يوم تختفي واحدة منها حتى نزلوا بصرّة حملها أصغرهم.

أمّهات عراقيات بالعباءات اللامعة المخبّأة لجلسات الأحزان اليومية والأفراح المؤجّلة، وبالقلوب الحائرة دوماً، المكلومة أبداً، نوتيون من الهند ومن نيبال سدهارتا، أفارقة من الجنوب البعيد حيث الجلد أحلك من الليل، يصبغون من دون توقّف، أنابيب أثقلها صدأ ملح البحار وهواؤه الثقيل.

مُحجِمون عن الكلام، منتمون إلى الصمت، والصمت ستّار لا ينتهي إلى مكان، فبقوا هكذا، عابرو بحرٍ بلا أسماء ولا أوطان، تجارٌ ومدّعو تجارة، فقراء يخفون فقرهم وأغنياء ينكرون غناهم، شتّامون لأي سبب، متذمّرون من كل شيء.

Twitter: @ketab_n

مستسلمون لدهشة اللقاء الأول بالبحر، متظاهرون بأنّ البحر ليس لهم إلا أرضاً، وأمواجه ليست إلا أغناماً يسوقونها حيثما يرغبون ويهشّونها بعصيّ العمر الذي قضوه مبحرين إلى مدن لا يعرفون إلّا أسماءها.. وهم لم يعرفوا من البحر إلا أزرقه الممتد أمام مصاطب أكلت ظهورهم انتظاراً على ساحله.

مالت شمس الغروب، لامست حافة الماء، فتحرّكت (جبل علي)..

بيننا وبين أم قصر ثلاثة أيام وليلتين.

هبط الظلام، فانسحب المتزاحمون على شرفات السفينة إلى داخلها المقسّم بين مهاجع وصالات يغطي الغبار أيّام فخامة زائلة مرّت عليها.

من أي البحار أتيتِ، وأيّ اسم كنت تحملين يا (جبل علي)؟

من أين أيّتها الجدّة التي تنوء بثقل السنين، وصدأ العزلة في بحار ليست بحارها؟

اقترب موعد العشاء، فتسرّب الهاجعون من مهاجعهم.

دقائق، واكتملت الحلقات حول الطاولات البيضاء، هذه الحلقات بقيت بنفس الوجوه للأيّام الثلاثة والليلتين الاثنتين،

Twitter: @ketab_n

وإن غيّرت مكانها من الطاولة إلى المقهى، من الشرفة إلى غرفة القبطان التي تحولت قبل أن تمرّ الليلة الأولى إلى غرفة للقاءات واستعراض العِلم بالبحار وأسرارها، وتحوّل فيها القبطان اليوناني إلى مستمع ليس بيده أن يفعل شيئاً غير أن يهزّ رأسه موافقاً على كلّ ما يقال وما لا يقال.

بعد سبع وعشرين سنة، كنت أتوقّع عراقيين سَحقت عراقيتَهم الحروب والفقدان والإمتهان المّر لبشريتهم، لم يكن الامر كذلك، كانوا عراقيين كأني تركتهم قبل ساعات، أي قدرة على الإحتمال، وأي معدن صُنعت منه هذه الأرواح؟

ساعة واحدة، دخلوا بعدها في أحاديث عامة. نصف ساعة بعدها، عرف الجميع ماذا يشتغل الجميع، نصف ساعة اخرى عرف الجميع ما الذي يحتويه أسفل الباخرة بعد أن صرح الجميع بما جلبوه من أمتعة، متمتعين بـ (سقوط) الجمارك العراقية.

قبل أن تغيب شمس اليوم الثاني، كانت أسرار الجميع معروضة أمام الجميع.

صعد أبو ياسر (الجميع يكنّي الجميع بأبو فلان وهي الطريقة العراقية المفضّلة للمخاطبة حتى وإن كان هذا الأبو فلان، لا أباً كان ولن يكون) على الطاولة المدوّرة في المقهى،

Twitter: @ketab_n

وبعد أن تأكّد من ثباتها، وأنّ محرّضيه على صعودها ممسكون بها جيداً، ابتدأ بتلاوة بيانه الشخصي جداً:

- يا جماعة....

- .....

- يا جماعة أرجو الإنتباه.....

- ....

سكت الموجودون، وهم نصف المسافرين تقريبا.

- تدرون آني منين جاي؟

- .....

- من اليابان.

دشداشته البيضاء العريضة، وسبحته التي يحركها ويلفها على إبهامه بخفّة وتمرّس، أثارت شكوك المستعمين، فضحك بعضهم.

- هي مو اليابان بالنفِسْ.. جواها بشوية..

- الصين؟

سأل أحدهم.

- لا.. بعد جواها بشوية.

Twitter: @ketab_n

- ....

- تايلند..

قالها بعد أن عصر رأسه مصطنعاً التذكّر.

- معلينة.. المهم النيّة، لأن آني رحت علمود أجيب سيارات يابانية.

- ....

- محد سألني ليش؟

- ليش؟

ردّدها بعض منتظري معرفة زبدة الخطاب.

- لأن آني أريد أحقق حلمي الوطني وهو، سيارة وموبايل لكل عراقي، رجالاً ونساء، أطفال وشياب وشباب.

ما أن انتهى من جملته الأخيرة، حتى صرخ أحدهم من بعيد:

- بس طلعت السيارات كلها سُكّانها على اليمين.

- إي وشنو يعني؟

استنكر الخطيب وهو في طريق النزول واضعاً قدمه على الكرسي.

Twitter: @ketab_n

- شلون شنو يعني.. ممنوع أبويه.

أجابه فاضح سرّ الصفقة (المضروبة)

- عمي.. بعد ماكو ممنوع.. سكان عاليمين سكان عاليسار.. سوق مثل متريد حتى بلا سكان.. أبوية لعد ليش سموها ديمقراطية؟.

في بحر بلا نهاية، يُطبق عليه أفق مُغبر، واصلت جبل علي صعودها إلى أم قصر.

أنظر من شبّاك القمرة الضيّق فأرى الماء يتحرّك ببطء أقرب إلى السكون فأعود لأرتمي على السرير يغالبني الشكّ بأنّ هذه الباخرة تتحرّك وأنّ أم قصر، ميناء ذاهبون إليه.

هذا الشكّ كان يتبدّد حين تتبدّل أسماء الدول على الموبايل، هذا يعني أن هناك مسافات تقطعها هذه الجدّة الهرمة جبل علي، وأنّ أم قصر ميناء ذاهبون إليه.

منذ الصباح الأوّل، بدأت أسئلة الهنود البهرة تطلق في كلّ اتجاه يجدون فيه عراقياً، (كان كلّ من لا يرتدي مثلما يرتدون، عراقي بالنسبة لهم).. لم يكونوا يوجّهون أسئلة، بل هو سؤال واحد لم يتغيّر:

- كم بقي بيننا وبين كربلاء؟

Twitter: @ketab_n

من أعلى مكان يمكن أن يصله المسافر، وقفت مراقباً حركاتهم، في البداية لم يكن الأمر أكثر من محاولة لتمضية الوقت السائر مثل حيوان أسطوري انقلب على ظهره. بعد ذلك تحوّلت المراقبة إلى فضول، ثم إلى محاولة لإيجاد تفسير لما يفعلون.

مثل فقمة الفراء في رحلتها إلى السواحل الدافئة، كانوا يتنقلون. مجاميع تتقاطع لكنها لا تختلط، وحين يتواجهون، لم يكونوا يتبادلون غير أقلّ الكلمات، وبين اثنين منهما فقط، واحد من هذه المجموعة وواحد من الأخرى.

فجأة يتجمّعون. بسبب، ودونما سبب.

السبب حين الصلاة أو موعد الطعام، ومن دون سبب يراقبون البحر أو يطعمون نعاج الماء التي كثيراً ما تقترب من (جبل علي) حين تكون الباخرة المهيبة قد اقتربت كثيراً من شاطئ مدينة يحجبها الأفق الذي بقي مغبراً.

من ذات النقطة، كنت أراقب العراقيين.

صاحب صفقة السيارات اليابانية، اتسعت حلقة مريديه فدخلها هواة المناكفة، مكذّبو رواياته ومصدّقوها أيضاً.

فجأة، ومن دون سابق إنذار، تتفكّك الحلقة، ليتباعد المجتمعون كلّ في اتجاه وكأنّهم أسماك سقط بينها حجر ثقيل، فأصاب شملها وجعله بدداً.

Twitter: @ketab_n

باقترابي من المجموعة، وإنصاتي للحوار الذي ليس من السهل أن تفهم منه شيئاً لأنّ الجميع يتحدّثون بذات الوقت، عرفت أن سبب التشتّت هو (ارتطام) في وجهات النظر السياسية.

الديموقراطية العراقية بفرعها الذي تشكّل فجأة على ظهرالجدّة (جبل علي)، لم تستطع الاتفاق إلّا على شتيمة صدام حسين (ومن كان يجرؤ حينها على عكس ذلك)، واتفقت أيضاً على أنّ إطلاق مكوك فضائي عراقي، هي مسألة شهر أو شهرين، أليس الأميركيون بما فوقهم وتحتهم رهن اشارتنا؟

مجموعة النساء، وكلّهن أمهات اجتزن الخمسين منذ زمن، لم يكن وقارهن يسمح لهن بالتحرّك، فاخترن مصطبتين فرشت إحداهن تحتها بساطاً.

هذه المجموعة حافظت على الشاي ساخناً، طازجاً، طالما حلقتها منعقدة في هذا المكان.

بين فترة وأخرى، يقرفص أحد الذين ملّوا الحوار الديموقراطي إلى جانب أم علي (متخصّصة الشاي)، ليشرب على مهله استكان شاي يعقبه بجملة يردّدها كلّ من انتهى من شايه:

- مطعمهم وچايهم وهاي باخرتهم شلع، تروح فدوة لقندرتچ خالتي أم علي.

Twitter: @ketab_n

- .....

- ألف رحمة على ابوچ على هالچاي.. هسه ردلي النظر.

- ألف عافية يمة.. أصُبلك اللاخ؟

- ورا العشا.. الله يخليچ ذخر للأمة العراقية.

خمسة بدشاديش بيضاء وسجائر لا تنطفئ يمشون سوية قاطعين الممرّ الطويل، ذهاباً وعودة، بأيادٍ معقودة وراء الظهور.

في الليلة الثانية، عرفت أنّهم أصحاب معارض السيارات، كانوا يتحدّثون بصوت غير مسموع خوفاً من أن تشيع أسرار الزمن الذي تحوّل وأسقط تفّاحة المال في أحضانهم من دون أن يحركوا أطراف أصابعهم حتّى، إنّهم الرابحون دائماً، في كلّ زمن ومع أي نظام.

الصامتون فريقان على جبل علي، عراقيو الاغتراب الطويل (٢٠ عاما فما فوق)، والأجانب من فريق الهنود البهرة الذين لو اقتنع أحدهم بأنّ الباخرة يمكن أن تنزلهم في كربلاء قبل أم قصر لاختطفوها بنصف ساعة.

كانوا أكثر من ثلثي الموجودين على ظهر الباخرة، ركاباً وبحّارة وطبّاخين وسفرچية وعمال وآخرين لا توصيف لهم ولا تصنيف.

Twitter: @ketab_n

السؤال المفتاح لبدء أي حديث مع شخص لا تعرفه هو: متى سنصل؟

المنظّفون وعمّال المطعم والعراقيون ممن (داسوا) الخطّ البحري، يطلقون، وبأقل من ثانية، جواباً جاهزاً:

- الثلاثاء اذا ماو كفونا الأمريكان.

- وليش يو كفونا؟

- تفتيش.

- ليش التفتيش؟

- التفتيش مال الحصار.. ليش الأخ بولندي؟

أكثر من أربعة عشر عاماً ونحن نسمع عن ايقاف السفن المتوجّهة إلى العراق والخارجة منه لتفتيشها من أجل التأكّد من أنّ كل شيء (محاصر) وأنّها لا تحمل سلعاً محضورة وهي ذاهبة، أو تهريبها للنفط العراقي المقفل عليه في آباره، وهي عائدة.

اتضح لنا، نحن الغائبون لعشرين سنة فما فوق، أنّ آثار صدام حسين ما زالت حيّة ترزق ولم تذهب بذهابه، فالقصة طويلة والأمر يحتاج إلى حسبة أطول للتخلص من الآثار التي خلفها (القائد) طيلة ثلاثين عاماً من نوبات (الضرورة) التي ركبته.

Twitter: @ketab_n

بعد ذلك عرفنا، أنّ صعود المفتشين سيتسبّب في تأخيرنا يوماً كاملاً، لأنّنا سنصل أم قصر بعد غروب اليوم التالي، وإن غابت شمس الميناء غابت معها سفينة (السحب) الصغيرة التي من دونها ستبقى (جبل علي) جاثمة مثل حوت جانح حتى الصباح التالي، موعد استيقاظ سفينة السحب وطاقمها الذي لن يتحرّك قبل أن يشبع تثاؤباً وسجائر على الريق.

ما خشي الجميع منه وقع. تعالى لغط الركّاب وهرع الجميع إلى شرفات (جبل علي) الشرقية.

- وكّفونا.

قالها أحدهم وهو يكاد يركض بالاتجاه الذي هرول نحوه الجميع، إلّا البهرة، الذين بقوا جالسين في أماكنهم وكأنّ على رؤوسهم الطير.

حين كنّا نسمع الأخبار المتكرّرة عن اعتراض السفن القادمة من العراق والذاهبة إليه، نرسم المشهد في مخيلتنا:

إنزال مفاجئ بطائرات الهليكوبتر السوداء (لماذا سوداء؟) تتدلّى منها سلالم القنّب المتين التي ينزل عليها رجالٌ بملامح أخفاها طين التمويه والخوذ المزروعة بالأغصان الخضراء، رجال كأنّ الواحد منهم نصف شاحنة، تهبط على السفينة فيرتجّ سطحها ويتطاير الصدأ المختبئ في زوايا بدنها الهرم.

Twitter: @ketab_n

هذا الإنزال الجوي (حتى تكتمل الصورة) لا بدّ أن ترافقه تغطية تقوم بها فرقاطات بمدافع رشّاشة تحيط (جبل علي) يميناً وشمالاً، فترفع الأخيرة يديها، رامية مرساتها العملاقة، معلنة عجزها الكامل واستسلامها بطيب خاطر لجيش التفتيش الكاسر.

حين وصلنا السطح، لم نر في الأفق شيئاً، تطلّعنا إلى السماء فلم نر هابطاً ولا صاعداً، وغير ذلك، لم نسمع صوتاً.

- ذولاك.. ذولاك..

أشار أحدهم بيده إلى أسفل الباخرة.

- سلام أليكم.. گود مورننغ.. سباه كير..

استدرنا نحو مصدر التحيات المكسّرة لنرى زورقاً مطاطيا أزرق، رُكّب على مقدّمته رشّاش متوسّط (هكذا وصفه أهل الخبرة العكسرية من المسافرين)، أمّا قوّة التفتيش، فكان عددها ستة عشر جندياً شابّاً فقط لا غير، يرتدون بدلات كحلية مثل التي يرتديها الميكانيكيون، وحين صعدوا إلى ظهر السفينة، تبيّنت مسدّساتهم السوداء التي دسّوها في أغماد تتدلى، هي وأجهزة إلكترونية، من أحزمة بلون لباسهم.

لم أستطع أن أكتم دهشتي، فتوجّهت نحو صاحب الخبرة الذي وصف رشّاشهم بالمتوسط:

Twitter: @ketab_n

- هذولة راح يفتشون كل هذي الباخرة؟

- هذولة اللي بالوجه.. متدري بيا لحظة يطلعولك حين الخطر (هكذا قالها) جيش من جوا المي وجيش مدري منين.. هذا غير الاقمار الاصطناعية..

- ....

- إي الأقمار الإصطناعية.. والله اذا واحد من الركاب مد ايده بجيبه بالغلط.. ميشوف غير الطلقة فاتت من الشباج وإجت بخصيانه..

الكلمة الأخيرة قالها مقرّباً رأسه مني حياءً من أن تصل مسامع النساء المتفرّجات على فريق التفتيش.

مثل فريق كرة قدم يلعب من دون خصم، تحرّكوا طولاً وعرضاً في طوابق السفينة وطابقها الأسفل، حيث سيارات صاحبنا اليابانية ذات المقود على اليمين، والتي سيقودها العراقيون بقوّة الديموقراطية.

ساعتان، انتهوا بعدها من مهمّتهم، موزّعين كلمات الاعتذار والابتسامات، وهم في طريقهم إلى قارب المطّاط الأسود برشّاشه المتوسّط الذي لازمه واحد منهم لم يبرح القارب.

تحرّكت جبل علي بعد انسحابهم بخمس ساعات، لم

Twitter: @ketab_n

أسأل عن سبب انتظارنا كلّ هذا الوقت، واستلقيت محاولاً تمضية الوقت في قراءة كتاب رافق رحلتي، كتاب لا أتذكّر اسمه يروي مذكّرات تاجر هندي متعالٍ، عن شعوب الخليج التي يصفها بالمتخلفة، بادئاً بعُمان، ومنتهياً بالبصرة، مروراً بالبحرين التي كان يعجب من اللون الأصفر لحميرها !

لم أركّز فيما قاله المتعالي، فقد كنت أحاول إيجاد التفسير (الحربي) لساعات انتظارنا الخمس وقد سيطرت علي فكرة العلاقة بين الأقمار الاصطناعية وخصيان المسافرين.

مثل برتقالة من نار على وشك الانطفاء، كانت الشمس تغطس في مياه الخليج العراقية، ما بيننا وبينها، تجثم عشرات الهياكل العملاقة لسفن الحروب مشرئبّة بجزء منها خارج الماء الساكن بسكون الريح والسكون الذي خلّفته صدمة رؤية الحرب بالعين المجردة، ووجهاً لوجه لأوّل مرّة، بعد عشرين عاماً من الغياب.. فما فوق.

Twitter: @ketab_n

على طريق الأفعى

كما توقّع أهل الخبرة، وصلنا ليلاً، فاضطررنا للمبيت على بعد مئات من الأمتار من رصيف أم قصر بأضوائه الساطعة من بعيد، وأصوات عمّال الخفارة الليلية التي تأتينا عبر الماء الساكن والريح الخريفية الدافئة، من دون أن نرى اصحابها، ولا حتى حركة خيالاتهم.

ما أن أشرقت الشمس حتى دبّت الحركة على ظهر جبل علي، وعلى غير العادة، لم يرغب ثلاثة أرباع المسافرين بفطور الباخرة، كانوا مشغولين بانتظار سفينة السَّحْب التي تأخّر ظهورها لتتحوّل غرفة القيادة إلى مضيف يتوسّطه القبطان اليوناني محاطاً بوجوه الرحلة التي أصبحت معروفة للجميع بخبرتها (البحرية).

كان القبطان يمتصّ السيجارة بعمق وإخلاص مثل عمارتلي (خلصان گلبه) من مصائب الدنيا، مرتشفاً الشاي من الاستكان ذي الخطِ الذهبي المعروف في العراق بإستكان (الخط السريع).

Twitter: @ketab_n

في الثامنة وعشر دقائق، ظهرت سفينة السحب التي استُقبِلَت بالتصفيق والهلاهل.

ختمنا جوازاتنا بدقائق، مجتازين الحاجز الذي كان قبل سقوط صدام حسين حاجز رعب، حين يُقلّب فيه رجل الأمن جوازات السفر، تهوي قلوب أصحابها إلى أحذيتهم.

وسط لغط المستقبلين وتدافع الحمّالين، سحبنا أمتعتنا. ما هي إلّا نصف ساعة حتى استقامت الـ (كيّا) على الطريق السريع الذاهب إلى الحلّة.

لم ندخل البصرة، فالطريق السريع يمرّ من خارجها باتجاه الناصرية.

كنت أحدّق في كلّ شيء. بالأرض المترامية التي غزاها القصب وهي التي ما عرفت غير النخيل والحنّاء والعنب.

بيوتٌ طينية تلوح في الأفق بين فترة وأخرى، وعلى مفترق طريق البصرة رأينا، نحن العائدون بعد فراق، أوّل الدبابات الأميركية التي غيّبت بظهورها كلّ ما عداها في المشهد، واحتلته.

سائقو سيارات (الهمر) التي تتخلّل حبل الدبابات، يلوّحون بالتحية للعابرين، بعضهم كان يرفع يده أعلى رأسه ثم ينزلها فاتحاً كفه، واضعاً إيّاها على جهة القلب، مثل جنوبي عراقي من (بني لام) أو (آل فتلة).

Twitter: @ketab_n

أُخِذْتُ تماماً بما أراه، الصورة التي أمامي اعتدتها على الورق أو على شاشة، لكنّها الآن، هنا، بأبعادها الحقيقية، بصوتها ورائحتها، بطمأنينتها وخطرها، بالتباسها ووضوحها، بوجودها الصارخ الذي يعيدك إلى حيث أنت كلّما شردت.

أنت في العراق، السيارة تقطع بك وبمن معك مئات الكيلومترات من دون أن توقفك (سيطرة)، من دون أن تسمع الكلمة الأكثر همجية وقمعاً وبدائية في الأرض: هَوِيتّك.

تجمّعُ أجزاء الصورة من الذاكرة التي تلقّت حجراً كبيراً في قلب بركتها الساكنة، عوارض الحواجز المكسّرة المحاذية للطريق، لون التراب الذي أصبح يميل شيئاً فشيئاً إلى اللون الذي تعودته وأنت مُسمّرٌ مواصلاً الليل بالنهار أمام الشاشة.

إذن فنحن على ذات الطريق الذي شهد عرض السرعة الشهير للدبابات الأميركية التي لم تتوقّف إلّا في ساحة الفردوس.

إنّه طريق (أفعى البوا) كما أطلق عليه الصحّاف وهو يقول: دعوها تتمدّد، نحن بانتظار وصولها لنقطع رأسها.

مالت الـ (كيّا) داخلة مفترق الناصرية لنعرف بعد أن دخلنا المدينة أنّنا سنتوقّف للغداء، هكذا قرر السائق الذي لم يدع سيارة أو دبابة او أي شيء أميركي يمر من دون أن يصرخ بالتحيّة:

Twitter: @ketab_n

ـ دوگ مورننگ..

هذا أوّل الغيث، المدينة ممحوّة من ذاكرتي تماماً، بالرغم من أنني رأيت فيها مشهداً بقي يرافقني ويقفز بوجهي كلّما تذكّرتها.

في أوائل السبعينيات رأيت الناصرية للمرة الأولى والأخيرة، كان شتاءً بارداً بمربعانية تجلَّدَ فيها الزرع، وتشقّقَ جِلدُ الكفوف والأقدام.

قيل لنا إنّ رؤية الناصرية من دون متنزّهها مثل عدم رؤيتها.

دخلنا المتنزّه غروباً، متدثّرين بلفحات الصوف والملابس الثقيلة، فوجئنا بالفرات يقطع المتنزّه ويا ليته لم يقطعها، في ذلك اليوم على الأقل.

أكثر من عشرين رجلاً ملثمين بشماغاتهم الحائلة المتهتكة، معظمهم يرتدون السِتَرْ الممزقة من أكواعها مظهرة بطانة كانت بيضاء، يشدّون الدشاديش حول أعلى بطونهم.

كانوا يواجهون تدفّق النهر بأجسامهم المغمورة بسكاكين الماء حتى أعلى بطونهم وهم يشدّون حبلاً غليظاً، بينما الريح تقصّ المسمار.

Twitter: @ketab_n

أصواتهم تتعالى:

- گولوا الله، الله، يا أبا الحسن.. الحسن.

بعد دهر طوله نصف ساعة، صعدوا واحداً بعد آخر إلى الجرف، وحين وضع آخرهم (كان أقواهم وأضخمهم وأعلاهم صوتاً) قدمه المتجمّدة على الجرف، ظهرت حافة شبكة الصيد التي سحبوها إلى الخارج مطالبين بعضهم البعض بالصلاة على محمد وآل محمد.

نزل الظلام ونحن متسمّرون أمام صيّادي البرد القاتل وأسماكهم القليلة التي انتزعوها بصعوبة. من بعيد، تقدّم رجل متدثّر بعباءة سميكة، ممسكٌ بيده اليسرى زنبيلاً.

اقترب من الشبكة، اختار أكبر سمكتين، وضعهما في الزنبيل ثم غاب في الظلام.

سألت باستغراب من يكون، قال صديقنا الذي قادنا إلى حيث كنّا:

- هذا (السيّد)، أخَذَ خُمسَهُ.

وسط شارع الحبوبي، قلب الناصرية، توقّفت حاملة جنود أميركية يتجمّع حولها أطفال يسألون جندية أميركية جميلة بشكل لافت، أن تأخذ بأجسامهم الصغيرة ليصعدوا وينظروا في الفتحة العالية ليروا ما في داخل الحاملة.

Twitter: @ketab_n

بصبر غريب، حملتهم واحداً بعد آخر ورفعتهم إلى حيث يريدون، لم ينزل أحد منهم، ولم تجبرهم على ذلك. كنت أصوّر المشهد، ربّما كان هذا الصبر الطويل سببه الكاميرا.

تحرّكت حاملة الجند، فوجدنا أنفسنا وطاولة المطعم التي اخترناها على الرصيف، قد أصبحنا في وسط الشارع، نحن وصحون اليابسة والباذنجان والتمن المتناثر خارج الصحون بسبب عرض المهارة الذي قدّمه العامل المصري.

ـ أكو بعد مصريين؟

سألت السائق الذي التفت إلى صاحب المطعم الجالس على الدخل غير بعيد:

ـ ابو سعد، هذا منين جايبة المصري؟

ـ هذا من هو زغير عدنة.. گلناله ظل بالمطعم لا تطلع حتى لو گالولك القيامة قامت.. ياكل بالمطعم.. ينام بالمطعم.. ما يتحرك منّا إلى أن الله يفرجها عليه ونشوفله درب.

ـ اكو غيره مصريين بالناصرية؟

ـ ولا طير.

بعد أن عبرنا الديوانية عصراً، نظر السائق في المرآة موجّهاً الكلام لنا:

ـ نفوت ع الحلة.. من (السياحي) لو من (السريع)؟

Twitter: @ketab_n

جاء الرد بشبه إجماع على اختيار الطريق السريع، أنا كنت صامتاً تماماً، أحاول أن التقط شيئاً أتذكّره، أو مَرّرْت به، لكنّ الأرض، حتّى الأرض، تغيّرت.

من القبّة الزرقاء التي زحف عليها الغروب، عرفت أنّنا أصبحنا في الحمزة، وأنّ ما بيننا وبين الحلّة لن يزيد على خمسة وعشرين ـ أو عشرين كيلومتراً لا أكثر.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الآن.. وبعد فراق

لم أجد تفسيراً لاضطراب القياسات الذي يقع فيه الغائبون عن المكان طويلا، فكلما طال الغياب زاد الاضطراب.

مع الغياب، تنزع المخيلة إلى الاستفراد بالمدن التي تركناها وراءنا. فتوسّع الشوارع وتعيد بناء الغرف بسقوف أعلى، ونوافذ أكثر، وأبواب أوسع. المباني تزيد طوابق، والأشجار طولاً، والأنهار تدفقاً.

الآن.. وبعد فراق، أوّل شيء تفعله الذاكرة، هو إعادة حساباتها التي لعب بها الغياب الطويل. تضيق الشوارع، وتصغر الغرف، والنوافذ تعود إلى عددها، والأبواب تعود أبواباً لا بوّابات.

بعد أن اجتزنا (الحمزة)، ضاعت المعالم تماماً، حتّى رأيت بناء لم يكن غريباً عليّ. سألت ماذا يكون؟

- هذا معمل النسيج. أجابني أحدهم.

هل هذا هو معمل النسيج العملاق.. يوم افتتاحه اعتقدنا

Twitter: @ketab_n

بسبب ما قيل، أنّ الصين الشعبية وضعت يدها على قلبها خوفاً مما سيفعله (معمل النسيج في الحلّة) باقتصادها القومي.

لم يصغر المعمل لأنّ جيرانه كبروا، فهم أيضاً صغروا معه. لكنها مخيّلة الغياب، رسّامة المزاج المنحاز للمكان، حولته إلى بناء عملاق يحتلّ الأرض عرضاً، والفضاء طولاً.

مع كلّ متر تقطعه الـ (كيّا)، تنمحي خطوط الخيال وتحلّ محلّها البيوت الكابية والحلفاء الزاحفة على الأرصفة، نخترق الشوارع التي نعرفها جيداً الآن، فتستثيرنا حركتها الضاجّة بالحياة، وحين تحاول أن تركّز على الوجوه، يبهجك انطلاقها الذي لا يخفيه إهمال لم تعهده بالناس لهيئاتهم، وخصوصاً في مثل هذا الوقت من يومهم، وقت الغروب.

في أيّام الغروب البعيدة، اعتاد الحلّاويون أن يخرجوا من بيوتهم بأفضل ما يلبسون، متوجّهين إلى مقاهيها ونواديها وسينماتها وملاعبها، بعد نهار من التعب بكلّ أشكاله. تعب الحرفة وتعب المهنة وتعب احتراب أصحاب الطيور وتعب مدمني الشطّ الذين لا يغادروه إلّا بعد أن تتعذّر رؤية أحدهم الآخر.

قبل أن أصل البيت الذي كنت متأكّداً أنّني لم أكن سأهتدي إليه وحدي،عرفت أنّي سأخوض معركة العودة بعد فراق، بذاكرة لا يعوّل عليها.. ذاكرة مطفأة.

Twitter: @ketab_n

عرفت كم طال غيابي حين رأيت نخلتي البيت وقد ابتعدتا في ظلام السماء بعد أن كانتا بالكاد تظهران من السور.

طلع الفجر ولم تغمض عيناي. نزلت قاصداً مكاني الأثير على الشطّ، عسى أنّ الفلاحين ما زالوا يمرّون ليعبروا الجسر مقرفصين على أحمال الخضار الندية التي تحملها وتحملهم مطاياهم.

ابتعدت عن البيت أمتاراً، التفتّ من أجل صورة كاملة. لم يتغير شيء، قرميد المظلة العالية تساقط، وعلى الواجهة تناثرت آثار رصاص.

لم يعد الفضاء براحاً بين البيت وشطّ الحلّة، المتنزّه احتله بائع أسماك حيّة ومقهى ومشتل يبيع شتلات الورد في غير أوانها.

مصاطب من الحجر امتدّت على الجرف الذي داس عشبه السابلة، صانعين طريقاً ترابياً على قياس مارٍّ واحد.

حين جلست على المصطبة حيث كنت أفترش الحشيش الندي، أيقنت أنّ فلّاحي الحقول البعيدة لن يمرّوا، فقد شقّوا ضباب السنين الطويلة وذابوا في أفقه الملبّد.

أردت الخروج وحدي كي أمرّ بكلّ الأماكن التي حفرت بذاكرتي مقاومة ذبولها وضمورها المؤلم. وحدي، لن يعرفني أحد، فمن يعتقد أنّ هذا الماشي بثقل السنين التي لم تترك له ولو

Twitter: @ketab_n

شعرة سوداء واحدة، هو نفسه ذلك الفتى الذي كان (يطير) على دراجته الحمراء متباهياً بتركه المقود للريح بينما يداه تتدلّيان على جانبيه وكأنّ لا لزوم لهما، فالمقود مطيع والدراجة تطير؟

نزولاً من جسر (اليطگطگ)، باتجاه حديقة المحافظة اتجهت، الحديقة لم تعد حديقة بعد أن رصفت بالحجر الأحمر، والمحافظة أيضاً ما عادت كذلك، اقتربت من بابها رافعاً رأسي إلى أعلاها حيث حديد سارية العلم بلا علم، متخيّلاً مشهد المنتفضين وهم يرمون فلاح عسكر من هذا العلو الشاهق بعد أن أجبروه على قراءة قصيدة يشتم فيها صدام حسين.

السابح في هواء العدم، المتهشّم في احتفالية الانتقام، كان قبل أن يصبح الشاعر الشعبي الذي اختاره صدام ليردّ على خطاب جورج بوش الأب قبل حرب الكويت كان قبل أن يصبح كلّ هذا، لاعباً في نادي الفيحاء، تحديداً في الفريق الثاني بكرة السلة، حيث كنت ألعب.

التفتّ يساراً، فرأيتها.

مديرية الأمن التي أرعبت المدينة، بيت صغير تغطي سماءه سينما الجمهورية لكنّه كان يجثم على كلّ سماء المدينة، مطبقاً باستمتاع القاتل على أنفاس أهلها. إنّه الآن لا شيء، لا شيء تماماً، شارعه الذي كان لا يجرؤ ماشٍ على المرور من أمامه صار تجمّعاً للباعة بكلّ ما يبيعون، ومزبلة لنفاياتهم.

Twitter: @ketab_n

عمارة عبد الرزاق شريف لم تعد عمارة عبد الرزاق شريف. لم يعد فيها غازي الجنابي ولا فخري جابك ولا حجي مزهر ولا سيد علي عنبر ولا محيي الحمزاوي ولا خزعل طربال غاسل سياراتها.

قهوة سيد شاكر ونراگيلها القومية العربية بقيادة علي وتوت رئيس محكمة الثورة التي علّقت أكثر من سبعين يهودياً عراقيا بريئاً على أعمدة ساحة التحرير في نهاية الستينيات، هذا المقهى انقلبت حوله الدنيا فلم تعد قادراً على أن تتبيّن إن كان قد بقي منها جزءٌ أم اندثرت ضخامتها ومعها ضخامة علي وتوت الذي رمته الحكومة في ظلام التقاعد العسكري حالما انتهى من مهمّته غير النبيلة.

وأنا في آخر الدنيا، سمعت، وبالتفصيل، ما مرّ بالحلّة في انتفاضة ١٩٩١، بعد أن كانت، وعلى غير المتوقّع بالنسبة للنظام على الأقل، ستنفجر مع المنفجرين وأنّها آخر من ستلقي سلاحها، لتصبح بعد ذلك أكبر مقابر العراق الجماعية. زحفت عليها طائرات غزال المروحية السوداء، هدية الإنتهازي شيراك إلى صديقه صدام حسين، ألقت أولاً منشورات الوعيد بالصواريخ الكيمياوية التي لن تبقي في الحلّة حيّاً يتنفّس.

خلال ساعات، لم يبق في المدينة إلّا المصرّين على الوقوف بوجه الجراد الذي اجتاحها. بعد أن عاد من عاد ومات من مات، عرف أهلي أنّ بيتنا كان قد استبيح من الحرس الجمهوري.

Twitter: @ketab_n

حين سألت عمّا فعلوه في البيت، أخبروني بأنّ ما لم يكن متوقّعاً قد حدث. حديقتا البيت امتلأتا بالجثث، جثثهم. أمّا البيت فلم يمسّوا فيه قشّة، سوى إطلاقة مسدس اخترقت خشب الساعة القديمة فأوقفت رقّاصها عن رحلة الأرجحة التي بدأها منذ أكثر من ثلاثين عاماً.

نظرت إلى الساعة من بعيد. أثر الرصاصة واضح، والساعة متوقّفة على الساعة السادسة وثلاثة وعشرين دقيقة منذ اثني عشر عاماً. حين سألت إن كانت السادسة صباحاً أم مساء، التفت الجميع نحوي.. لم يبتسم أحد... سكتّ، ولم أسأل عن حديقة الجثث.

Twitter: @ketab_n

وزير العطش المحلّي

أوّل أيّام الانتفاضة، هجم الجائعون على شركة التموين الحكومية الواقعة في ممر مظلم محاذٍ لعمارة الدكتور غني البيرماني.

لفتة أبو شنع، أوّل من اقتحم المخازن متنكّباً الكلاشنكوف منتفضاً بدشداشته الشتوية السميكة التي تحزّم عليها داسّاً مسدّساً أسود في جانبه. الجموع التي رمى بها التدافع بعيداً، بدأت الصراخ منتخية شهامة الثائر:

- لفتة يُمّة دخيلك..

- لفتة رحمة على أبوك...

- لفتة ما عدنا ولا حبّاية تمّن..

التفت لفتة نحو الجموع، سحب المسدّس، ضرب طلقة في ظلام المخزن.. سكت الجميع:

- ها أهل الحلة.. بدت الواسطات؟

أفواج أخرى هاجمت راكضة نادي المعلّمين في باب

Twitter: @ketab_n

المشهد حاملين ما تيسّر لهم من حجارة وعصي وأسياخ بناء صدئة، مكبّرين بأعلى اصواتهم:

- الله أكبر.. الله أكبر.. لا فجور.. لا خمور.. بعد اليوم.

النادي الذي لم يكن إلّا حديقة عطشى وغرفتين وقاعة صغيرة يشرب فيها المعلّمون اليائسون آلامهم مع العرق الذي جاءت هذه الأفواج (المؤمنة) لتحرقه. ما اتضح حين خرجت راكضة أنّ الهجوم لم يكن إيمانياً، إذ اخترقوا شارع باب الحسين راكضين وهم يكبروا:

- الله وأكبر.. ما خلوّنا ولا بطل.

كان المؤمنون المنتفضون متّجهين نحو الجسر الجديد ليعبروا إلى نادي الموظّفين من أجل (تطهيره) من الرجس لحسابهم الخاص.

لأنّه نذل، تفنّن في اختيار عقابات للحلّة أكثر منه نذالة. هذا ما فعله صدام حسين.

على خطى طائراته التي زحفت على أهل الحلّة، زحفت جرّافاته على غابات نخيلها الذي اقتلع من جذور عمرها مئات السنين، تبدأ من أقدام النخيل وتنتهي حيث لا يدري أحد.

أكثر من مليوني نخلة ألقيت جثثها فوق بعضها لينظر إليها أصحابها الواقفون على أبواب بيوتهم الطينية، كاتمين

Twitter: @ketab_n

بكاءً مرّاً، خوفاً من القوّات الخاصة التي بقيت تحرس المكان خشية أن يتجرأ أحدهم ويسحب جثّة لدفنها بعيداً، فصدام أمر (لقد عاد ليأمر) بأن يبقى النخيل القتيل أمام أهله ليتذكّروا أنّه أعدم بتهمة حماية انتفاضتهم. كانت عاشوراء جديدة.. لكنها أشدّ قهراً.

تجنّبت أن أمرّ بالبساتين لأنّي خشيت (وأنا الذي اعتدتها أكبر مظلة من سعف رأتها عين إنسان) أن يقتلع قلبي فراغها المميت. مع ذلك مررت بالمكان فأذهلني احتلال بنيها لمكانها. بنوها الذين لم ينتظروا أوان استطالتهم.. فاستطالوا قبله.

على طريق مقبرة النخيل نفسها، لم تكن أكثر من أربعين قرية تعرف سبب انقطاع المياه عن بيوتها، فاتجهت إلى شطّ الحلّة لتحمل منه، هي ومطاياها، تنكات الماء الخابط لأكثر من اثني عشر عاماً.

بعد أن سقط صدام، وسقط معه وزيره الذي عيّنه بعد الانتفاضة، اجتاح الحلاّويون بيته، الذي بني على حافّة الشطّ وعلى أوّل طريق قرى العطش، ليجدوا أنّ وزير الحكم المحلّي قد أدّى واجبه المحلّي على أكمل أوجه النذالة الممكنة حين لوى عنق أنبوب المياه العذبة وأدخله عبر حديقته الوارفة. ومن حيث مائدته العامرة بقي يتأمّل (الكاك) الذي أغلقه بيده لاثني عشر عاماً، تموت فيها قرى العطش، بينما تتسلّق نباتات حديقته مفتاح الماء الصدئ. الأغصان الممتدّة على الأنبوب

Twitter: @ketab_n

قبل المفتاح المتورّم بالماء المحتبس، بقيت عجفاء، ذاوية، بالكاد تحيا. الأغصان الملتفّة على جزء الأنبوب الخاوي، تفجّرت ورداً أحمر بقي يتدفق لاثني عشر عاماً هي عمر العطش.

هدمت الحلة بحجة البناء، ثم لا بناء. بل أنقاض على أنقاض تناوبت عليها الأيام والليالي ووجع الحلّاويين الذين أسقط في أيديهم العارية العاجزة أمام قتلة سقطوا في هاوية العدم ثم استردوا أنفاسهم فجأة ليخرجوا أكثر مافي أرواحهم من صدأ اختزنوه للأيام (السود).

ما بين ساحة المحافظة التي أصبحت المحافظة القديمة وساحة أخرى من تراب وغبار حيث كانت تقوم متوسّطة الحلّة. كنت أمشي على جثث من القهقهات المجلجلة، والتحيات التي لا ينتظر أصحابها ردوداً، وباعة ينادون بالأصوات المتلوّنة صعوداً وهبوطاً وتنغيماً، نكاية بباعة لا تبعد بسطاتهم أكثر من نصف متر عنهم.

ها هي المدينة وقد انتزع نصف قلبها ليرمى إلى كلاب اجتاحتها قادمة من لا مكان. النصف الباقي ترك ليترنّح ثم يهوي مثل شجرة منخورة أطاحت بهيبتها الريح بعد أن استنفذت كلّ ما تبقّى في عروقها من محاولات متيبّسة للتماسك.

هوت فهوى معها في فراغ النسيان، أغرب بائع في أي مكان.

Twitter: @ketab_n

جاسم أبو الفستق الذي كان يبيع بضاعته نائماً بينما قبضة يمينه معلّقة في الحلقة النحاسية المتدلّية من السقف بحبل من القنّب المتين. وحتى لا تصنع حلقة النحاس أثراً لا ينمحي في باطن كفه، لفّها أولاده بطيّات من الخام الأبيض منحتها سماكةً، وضمنت بقاء جاسم الغافي على ما هو عليه، غائباً في نومة البائع اليقظ.

لأنّ البائع نائم، فلن يكون زبائنه إلّا حلّاويين حفظوا درس الشراء اليقظ. أبناء جاسم، عبأوا الفستق وحبَّ الرگي وحبّ اليقطين في أكياس سمراء فتلوا أعناقها، واضعين كلّ صنف في صينية من الفافون. كيس حبّ الرگي الأسود بعشرة فلوس، كذلك حبّ اليقطين، أمّا الفستق فبعشرين فلساً. يمرّ الزبون ليأخذ اختياره ثم يرمي الثمن في صندوق الخشب، وإذا كانت له بقية من نقود، يأخذها من هذا الصندوق بينما يواصل جاسم نومه الأزلي.

هوى قلب الحلّة فهوى فاضل أبو الشربت الذي كان يكدّس الزبيب المعصور صانعاً منه جبلاً صغيراً مسنوداً بجدار تلوّن بلون الزبيب. كنّا نتسابق على الانتهاء من كأس الشربت لسماع فاضل وهو يقول كلمته الساحرة: بالعافية.

كان فريداً بين باعة تعوّدوا أن يتفضّلوا على زبائنهم ولا يتردّدوا في زجرهم وفي بعض الأحيان الامتناع عن بيعهم.

Twitter: @ketab_n

هوى مركز الشرطة الشهير حيث توجّهت أمّهات البعثيين لتسلّم لضابطه بدلات الحرس القومي ورشاشات البورسعيد يوم أسقطت أيامهم الدامية بسقوطهم في ١٨ تشرين ١٩٦٣، فانفرطت مسبحة حرسهم القومي خلال ساعات.

كنت طفلاً واقفاً بين المتجمهرين حول الباب الأخضر الضخم للمركز، وكانت الأمّهات المغلوب على أمرهنّ يخترقن الجمع حاملات عهدة البعثي العقائدية، البدلة والغدّارة وسط صيحات المستهجنين. يفتح لهن باب صغير وسط بوّابة المركز الضخمة ليدلفن منه نحو الساحة الوسطى حيث تكوّمت عدّة شغل تسعة أشهر من الدم الذي أساله البعثيون أنهاراً.

كما لو حدث أمس، في ذلك اليوم، فتح الباب الصغير ليخرج منه رجل صدمتني رؤيته وهو بملابسه الداخلية حافياً، مخترقاً المتجمهرين الذين أشبعوه شتماً وضحكاً.

كان الرجل هو معلّمي عزيز الحسيني، الرجل الأكثر احتراماً لنفسه التي أبت ارسال البدلة والغدّارة بيد الأم الوقور فجاء بنفسه ليسلّم عهدة لم تكن تليق به، فأصرّ الضابط على أن يخلعها ويمضي من حيث جاء بعد أن تصوّر أنّه سيعتقل، متفاجئاً بحرّيةٍ بلا ملابس أهون منها السجن.

في هذا الفراغ الضاجّ بالوحشة والغبار، كنّا ندلف بخفّة الطفولة ودشاديش (البازة) المقلّمة إلى القيصرية حيث الساحة

Twitter: @ketab_n

الصغيرة الساكنة شبه المغلقة بدكاكين صبغت بالوردي. هذه الدكاكين كانت تشكّل خطراً على من مثلنا من الأطفال.

الشاغلون كانوا: المحامي نزار أبو ديچ المتهم بميوله المثلية، وجاره المصوّر أبو حقي بصمته المريب وطوله الفارع وميوله التي لا تبتعد كثيراً عن ميول أبو ديچ ولكن بفضائحية أقلّ. والحلاق عبيد طوگه، حلّاقنا الذي كنّا نامن له حتّى ذلك اليوم الذي كان نهاية عهدنا به وبحلاقته.

يومها، وجدنا واجهة دكّانه مغلقة، أي أنّه لم يكن بعيداً وإلّا لأنزل الكبنك. تبرّع أحدهم وأخبرنا أنّه ذهب ليحلق لسيد علي عنبر تاجر الكهربائيات الحريص على صبغ شعره وتصفيفه على طريقة أنور وجدي.

لا أتذكّر من منّا أعلن أنّه يستطيع أن يصعد فوق ظهر الشاحنة الواقفة تحت شبّاك صغير جداً (رازونة) ومن هناك سنتفرج على عبيد طوگه وهو يصبغ شعر سيد علي عنبر.. أي أنّنا سنرى على الهواء مباشرة ما سمعنا به وتخيّلناه لسنين.

مدّ صاحب مشروع الفرجة رأسه بعد أن تعلّق بقضبان الرازونة الرفيع فهوى إلى الأرض عاقداً اللسان دهشة وصدمة. ما أن استعاد أنفاسه حتى قام رافعاً دشداشته إلى أعلى ركبتيه، واطلق ساقيه للريح صارخاً:

- اشردوووووو....

Twitter: @ketab_n

لم نتردّد للحظة فأطلقنا بدورنا السيقان للريح حتى أقرب ملاذ آمن وهو حديقة النساء. بعد أن أحكمنا الاختباء خلف صف الآس، التفت إلينا صبي الرازونة وقلبه يكاد يقفز من صدره:

- لو تدرون شنو شفت؟

- ....

ثم أكمل القصة.

لم تكن مهمة عبيد طوگه في المخزن الخلفي لمحلّ سيد علي عنبر هي إعادة الشباب الضائع لتاجر الكهربائيات ووكيل تلفزيونات (سيرا) في الحلّة بصبغ شعره فقط، بل وبتعهّد مكافحة شعره أينما كان. كان عبيد، حين حجب رأس صاحبنا الضوء القادم من الشباك، يلقط بملقط الخبير، الشعرات المتناثرة على مؤخّرة السيد علي الذي أدار رأسه مع رأس حلّاقه المتعدّد المهمات، ليريا ما الذي سدّ ضوء الرازونة عليهما. فلم يبصرا الا عينين مبحلقتين في رأس حليق هوى بفعل الرعب مرتطماً بالأرض.

حين أطاح أجلاف البداة بسوق (الرگاگيع)، لم يعرفوا (ومن أين يمكن أن يعرفوا؟) أنّهم دفنوا تحت أنقاض السوق. دهشة لفتة المردان حين فوجئ بشقيقه الشاعر حسين مردان وهو يقف أمامه مثل مارد. صائحاً بصوته المجلجل:

Twitter: @ketab_n

- أما زلت تصنع أحذية للحفاة والبؤساء أيّها الشقيق؟

يومها التفت السوق إلى لفتة الذي رمى بمطرقة الجلد وسكينه الماضية، ليقوم بكل ما أبقت له سنين فراق أخيه الثلاثين من قوّة، محتضنا قامته الهائلة ذاهباً معه في نوبة بكاء وعناق لم يتوقّعها من رافقوا الشاعر ولا من عرفوا عزلة صانع الأحذية التفصال وصمته.

أين ذهب السوق وأين ذهبت النمور والفهود التي ملأت جدران المحلّ الصغير للرگاع حسين عمشة، ولوحة الكرتون البيضاء التي كتب عليها:

يا واقفـــاً كن منحـرف   سلّم سلامك وانصرف

هذا محـــل شغـلنـــا   فلا مكـان لك أن تقف

وحين تسأله ما معنى (كن منحرف)، يجيبك والمسامير الصغيرة تملأ فمه:

- يعني صير خوش ولد.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

بأيٍّ حبال تدلّوا؟

من أي سماء هبطوا؟

بأي حبال تدلّوا لينزلوا بأحذية الإعدام الحمراء الطويلة الأعناق، منقّضّين على حياة أبسط من العشب، وأحلام لا تذهب أبعد من ضحكة أفلتت على غفلة من بيت القلب؟

أعداء المدن والأشجار، كيف كان لهم أن يتردّدوا قبل أن يطيحوا بسينما الفرات، (براديسو) الحلّة، التي لم تقف أو تتكاسل يوماً، عن أداء مهمتها المقدّسة، في تركيب الأجنحة لمخيّلات الحلّاويين الذين أسلموا أرواحهم لسحر ظلامها. الكبار الذين قطعوا بطاقة شرعية أو الصغار الذين اندسوا بأجسامهم الصغيرة بين قامات المتدافعين العالية ليجد من أفلت منهم نفسه حائراً بين التمتّع بنجاح عملية التسلل، وبين فتح عينيه على آخرهما، استعجالاً لتعّود الظلام، ثم تسليم الرأس الصغير لسلطة الشاشة الساحرة، طائرة به إلى حيث تشاء.

هذا الرأس الحليق بعينيه الواسعتين اللامعتين فقراً وذكاءً، كان يرجع مرّة إلى مكانه على كتفي الفتى، ويبقى مرّات أسيراً لسحر الدهشة، فلا يعود أبداً.

Twitter: @ketab_n

كم سمعت على مقاعدها ناتئة المسامير، همس طالبات ثانوية الحلّة وهنّ يراقبن أبطالهن بقلوب يكاد يوقفها الترقّب حين تحتدم الأحداث وتقترب بهم من حافة الهاوية.

لا أنسى صوت وصال (صديقة أختي) وظلّ يدها المتشبث بكتف الجالسة بجانبها، ثم انهيار قدرتها على حبس دمعها، ليرتفع صوتها بعد أن تلقّى يوليوس قيصر طعنة الموت الشهيرة، صائحة بصوت تقطّعه شهقات العبرات المتلاحقة:

- لچ عيني..... مات......

إلى سينما الفرات نفسها، ساقنا بطابور من أكثر من ثلاثين تلميذاً، مرشد صفّنا المعلّم صبيح، مخترقاً بنا أكثر شوارع الحلّة ازدحاماً، لنشاهد فيلم جميلة بوحيرد، والمدينة تعيش غلياناً ضدّ الفرنسيين أوصلها إلى أن تسمّي نصف كلابها (ديغول).

تعرّضت مخيّلاتنا (ونحن في صف الرابع ابتدائي) إلى عدوان صريح حين رأينا ماكنة الحلاقة الاستعمارية وهي تحلق لماجدة، في مشهد تعذيب أطاح بأفئدتنا الصغيرة الملتاعة التي لم يستطع أحد جمعها وهي تتناثر على الأرض في ظلام المصاطب الخشبية الطويلة، فبقيت هناك حتّى اليوم.

هذا الفيلم أسّس الوجدان السينمائي للشعبة (ب) من الصفّ الرابع في مدرسة العدنانية الابتدائية.

Twitter: @ketab_n

الرؤية السينمائية قسّمت الصف إلى فريقين، الأوّل تبنى رأياً لا رجعة عنه وهو أن بطلتنا القومية ماجدة، فاتحة أحضانها لمن هبّ ودبّ من الممثلّين. من رشدي أباظة إلى يحيي شاهين مروراً بعماد حمدي وعبد الحليم وأحمد رمزي.. وخصوصاً عبد الحليم، فهذا أكثرهم إمعاناً بـ (التبويس) الذي يجب أن يراجع بسببه فريق محبّي ماجدة موقفهم. الفريق الثاني، استمات دفاعاً عن صاحبة لقب (عذراء الشاشة) الذي عرفت به ماجدة في تلك الفترة.

هذا الفريق قدّم دفاعه الذي اعتبره قاطعاً، متهماً فريق النيّة السيئة بالجهل الكامل بخفايا الحيل السينمائية. فالبوسات حسب تفسيرهم تتمّ بأن تبوس ماجدة الحائط، ويبوس شكري سرحان نفس الحائط وفي نفس المكان، لكن من الجهة الثانية. بعد ذلك، يقصّ المخرج الحائط من الفيلم، فتلتقي الشفتان.

على الأرض اليباب التي تركتها السينما، رأيت في الظهيرة، ظلالاً لمقاعد خشبية طويلة، تخترق بجمودها المستسلم أصوات باعة الكولا والحَب واللبلبي، والسباب المتصاعد من ظلام النهار، لأنّهم حجبوا بمرورهم مشهداً مهما حتى وإن كان غير ذلك.

هؤلاء الباعة أنزلوا الصواني على الأرض في استراحة أخذوها رغماً عنهم مع كلّ معركة حامية أو مشهد غرامي ملتهب.

Twitter: @ketab_n

لأنّها اعتادت الجيرة الطيبة، أخذت سينما الفرات معها في طيرانها الأخير، مقهى أبو جمال ومهدي أبو المخلمة وبنات أيوب، بائعات البهجة والحياة للأفئدة اليابسة.

أخذت معها (جمّار) النخيل الذي يفترش باعته رصيفها المقابل، كان القرصان الأحمر ينزل من إعلان فيلمه العملاق فوق رؤوس باعة قلوب النخيل ليشتري كلّ ما تبقّى منه، وإن لم يكن موجوداً فهرقل وماشيستي لن يتركا هؤلاء الباعة الطيبين ليعودوا إلى بيوتهم بوجوه متجهّمة تزيد تعب الزوجات القانعات بالضيم تعباً.

في طيرانها الأخير، رمت في طريقها إلى الأعالي، الأجنحة التي نبتت في خيال صبية لم يولدوا، وجنود أطارت الحروب صواب قلوبهم، فاخترقوا الحلّة على ظهور قطعان جاموس الغرب الأميركي الهادرة، مثيرين الغبار والدموع، مطيّرين بعصف مطاياهم عباءات الزوجات المحدّقات في فراغ عودتهم المستحيلة.

فتلت سينما الفرات نفسها وهي تدخل في غياب السماء ثلاث مرّات، فشاهد أهل الحلّة ماكنتها تنزف بكرات الأفلام، وصفّين من مقاعدها الخضر بالمسامير الناتئة، تخرج من شبّاك تذاكرها، فيتبعها الساموراي السبعة وسنگام بصحبته راقصيه، وهيلين بطلة طروادة ونورمان وزدم وروبرت حسين وكيرك دوگلاس ملوحّاً بشبكة سبارتكوس المعفّرة بالدم والتراب.

Twitter: @ketab_n

يومها، حجبت سماء الحلّة بالهنود الحمر ومئات الآلاف من جنود الشمال الأميركي يلاحقهم بحراب البنادق جنود الجنوب.

من بعيد لمح الحلّاويون بيوت الكاوبوي الخشبية بمداخنها ودخانها (بعضهم قال إنّه رأى أكثر من عشرين بيتاً) ظلّت تطير في ليل المكان، تتبعها أنشوطات الرعاة المعلّقة بجيادهم الصاهلة بأعلى ما تستطيع..

انتهى

مساء ٢٠ أغسطس ٢٠١٣
كافيه يونس – الحمرا- بيروت

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

مدخل ١١
عزيز السرّي ١٧
حلّة الأكراد ٣١
جاوانيون حفيدهم فلبس ٤٧
أربعة خامسهم اليطگطك ٧٥
هاشم قدّوري ٨٣
من يشبه من؟ ٨٩
الأمازون تمطر في المحطة ٩٩
حلّة الحامية ١٠٥
العدنانية للبنين ١١٧
حمامة العدنانية ومدفعها ١٢٥
الحانقون... مدرّسون ١٣٥
حلّاويون، على سفر واغتراب ١٤٥
حكايا العائدين ١٥٩
يوم عاد الحَمَر ١٧٣
عمارة عبدالرزاق شريف ١٧٩
موفق محمد أبو خمرة ١٩٩
مجانين الكلام ٢١٩

Twitter: @ketab_n

يوم فُضح الشاعر ٢٣١
للحلّة أجانب ٢٤١
(زعامة) ضدّ الوجود الأجنبي ٢٥٩
برهان ونسة ٢٧١
سفينة النور المقدّس ٢٧٧
صلّوحي ٢٩١
الملّا محمد علي ٣٠٧
لطيف بربن ٣٢٥
السَنيّة.. سينما المقهى ٣٤١
مزرعة عمّودي وجريدته ٣٥١
رطانة ثقافية ٣٧١
من أين أتيت أيّتها الجدّة (جبل علي)؟ ٣٩١
على طريق الأفعى ٤٠٧
الآن وبعد فراق ٤١٥
وزير العطش المحلّي ٤٢١
بأيّ حبال تدلّوا؟ ٤٣١

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الكاتب

نوفل الجنابي، ولد ببغداد أيام ذروة فيضان دجلة في خمسينيات القرن الماضي. وبسلطة الأب الضابط المقرّب من نوري السعيد،وُضعت العائلة بفاركون الحِمل في القطار الصاعد،بعد أن وصلت امواج دجلة الغاضب الى باب البيت.

منذ ذلك اليوم،لم يكن له غير الحلة بيتاً حتى غادر العراق في أواسط السبعينيات متنقلاً بين بلدان عدة في العالم.

عمل في الصحافة لأكثر من خمسة وعشرين عاماً، وتفرغ منذ أكثر من عشر سنوات لصحافة التلفزيون وإنتاجه صانعاً للأفلام الوثائقية والبرامج وأنماط كثيرة أخرى، مكّنته التقنيات المتقدمة والذهنية المقررة في(العربية) من غزارة الإنتاج، وحوّلت رؤيته الى وقائع فُتحت أمامها الشاشة، فأوصلتها الى حيث يجب أن تصل، وأبعد.

www.nowfalaljanabi.com

@ketab_n

..والكتاب

للحلاوبين (إيشاكاهم) التي ديست بأحذية البداة فهدمتها وأحالتها الى خطوط واهية يكفيها تأوهاً متألماً لتطير وتتبدد.

الحلة ، بسخريتها المرّة، لم ترث لسانها الطويل من الأجداد البابليين الذين (بلبل) الله السنتهم، بل صنعته من قسوة أيامها، ووزعته على أبنائها الطيبين وغير الطيبين، ليستخدموه كما ينبغي وكما لا ينبغي.

ما خلفته الألسن ولم تطؤه أحذية البداة، حاول هذا الكتاب ان يجمعه معتمداً على ما اختزنته الذاكرة... الذاكرة فقط.

ISBN 284306205-5

9 782843 062056